

قراءة حديثة
فى
كتاب قديم
تأليف
محمد حسين يونس
مكتبة مدبولى
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
DOUGLAS ADAMS
m.lotf



تأليف
محمد حسين يونس

مكتبة مدبولى

قراءة حديثة فى كتاب قديم

تأليف

محمد حسين يونس

قراءة حديثة فى تاريخ قديم

لست ممن يدعون قدرتهم على تقديم التحليلات السياسية والاقتصادية.. فهذه ليست غايتى ولم أعد لها نفسى .

و لكننى وقد عشت معظم أيام عمرى الواعى فى الفترة ما بين 1960 و 1980 فإنني شأنى فى ذلك شأن عشرات الملايين من الذين عاصروها فى مدن وقرى مصر نستطيع أن نقدم شهادتنا – دون تخصص – فقد شاركنا فى الأحداث و تأثرنا بها ... بل لقد شكلت مجرى حياتنا ... وحاضرنا ... والى حد ما مستقبلنا .

والسطور القادمة هى محاولة لرصد .. وتجميع .. وربط مجموعة من الظواهر الصحيحة بعضها ببعض كان لها الأثر الهام على سير الأحداث.. فإذا كنت من معاصريها فأرجوك قبل أن تعلن موافقتك أو اعتراضك أو رفضك... أن تراجع معى شريط الأحداث التى دائما ما ننساها أو نفقدها فى زحمة " الكبد " الذى خلقنا له

وإذا كنت لم تعاصرها .. فلك أنت أكتب هذه المقدمة... لا كاعتذار عن عدم قدرة العمل الذى بين يديك على التوصيل .. ولكن كى أضع خطوطا عريضة تحت مجموعة من العلاقات والأحداث حاولت قوى كثيرة - عن عمد أو حسن نية – تشويهها أو بلبلتها أو تضخيمها بحيث أصبحت تلك الفترة رغم قربها أكثر فترات تاريخ بلدنا غموضا بالنسبة لمن لم يعاصرها ... ولتثق أن ما ستقرأه على جانب كبير من الصدق إذا سامحتنى على أخطائى الفنية كمحلل سياسى أو اقتصادي أو لاستخدامي لنفس المصطلحات والألفاظ التى كنا نستخدمها حينئذ .

فى يوليو 1961 قضت (الثورة) نهائيا على آخر معاقل (الرأسمالية) فى مصر . بتأميم البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية والمقاولات وحصرت هذه الأنشطة فى إدارة القطاع العام .

ثم قامت بإنشاء خط دفاعى صلب لمنع عودتها بإصدار القوانين المنظمة لدور القطاع الخاص " الرأسمالية الوطنية " فى العملية الاقتصادية ... وبقوانين الضرائب والجمارك أصبح هناك سدا منيعا أمام أى تراكم رأسمالى للأفراد ... وبأجهزة الرقابة المختلفة أصبح من الواضح أن الرأسمالية (المستغلة) لن يقوم لها قائمة بعد ذلك التاريخ .... ولكن وبعد عشرين عاما فقط من إصدار هذه القوانين أصبح فى مصر 250000 مليونير – أرجو مراجعة الرقم ثانية – ربع مليون مليونير بعضهم يمتلك أكثر من ألف مليون جنيه وعلى الجانب الآخر 34% من الشعب المصرى يعيش تحت خط الفقر ... ألا يدعوك هذا للتساؤل!! كيف تم هذا ... رغم أن معظم هذه القوانين لا زال سائدا لم يتغير .

1- مصر الاشتراكية

لم تصل مصر الى " اشتراكيتها " عبر علاقات فلسفية أو نضالات حزبية أو ثورة شعبية و إنما من خلال تجارب ثورة يوليو لتحقيق أهدافها (الإنسانية) الست وإرساء أسس مجتمع جديد يتناسب مع الواقع المتغير لنهاية القرن العشرين ..

فعندما حاول قادة الثورة تحرير المواطن من (عبودية العوز) بإيجاد عمل كريم لكل قادر أو معاش لغير القادر ... وعندما كان عليهم ضمان توفر السلع الضرورية بالسوق بأسعار مناسبة... وعندما حاولوا حماية الجنيه من تقلبات السوق الرأسمالية وخلق اقتصاد وطنى متحرر من النفوذ الأجنبى ... اصطدموا بقوى (الثورة المضادة) فى الداخل والخارج .. واكتشفوا أن عليهم فى سبيل ضمان حرية وطنهم مساندة الثورات الوليدة والانضمام الى مجموعة عدم الانحياز و إحياء القومية العربية والوحدة الأفريقية والجامعة الإسلامية وخلق علاقات متوازنة مع دول المجموعة الاشتراكية وقوى السلام العالمى ومقاومة الاستعمار ... و أن عليهم كذلك اتباع منهج الاشتراكية كأساس لإدارة اقتصاد الدولة .

وبالتالى لم تكن قوانين يوليو 1961 هى بداية " الاشتراكية " فى مصر ولكنها كانت الخطوة النهائية لفرض سيطرة أجهزة الدولة على مجمل الاقتصاد القومى وتوجيهه وتقليص نفوذ الإقطاع والرأسمالية ومنع ظهورهما ثانيا وما تبع ذلك من بث لوعى و تأصيل لقيم أخلاقية جديدة تتناسب مع الواقع المستهدف .

وتغير شكل المجتمع بعد التأميم لقد أصبحت الدولة هى المنتج الرئيسى سواء كان ذلك فى الزراعة أو الصناعة أو المقاولات أو التجارة أو الخدمات ... فى الفن أو الثقافة أو السينما أو الكتاب أو المسرح أو الإذاعة والتليفزيون .. أو بمعنى أدق فى مجمل أنشطة الحياة الإنسانية .

لقد ألزمت الدولة نفسها بإيجاد عمل لكل مواطن ومسكن وطعام وملبس وفرصة تعليم ووسيلة ثقافة ورعاية صحية له... وفى حمايته من قوى العدوان الداخلية والخارجية.

فى تلك الأيام بدأ الدعم للسلع الرئيسية وبناء مئات المدارس والوحدات الصحية والمشروعات الإنتاجية ... وتم إنشاء مسارح الحكيم والقومي والطليعة والعرائس والأوركسترا السيمفوني وفرق الرقص الشعبى والباليه والدار القومية للطباعة والنشر ... وتقرر منح جوائز الدولة فى العلوم والفنون والآداب .. وانعكس ذلك على الأغنية والفيلم والمسرحية والكتاب والشعارات التى تمجد العمل وتعتبره حق وواجب وحياه والتى تتغنى بالاشتراكية والديموقراطية وتعتبرهما جناحا الحرية .. وتدعو للبناء والتصنيع وزراعة الأرض البور والكفاية والعدل .

ونتيجة لذلك تم طرد الاستعمار مرتين وشمخ المصرى بدور بلده الرائد المؤيد للحريات ... و آمن المواطنون " عدا أعداء الثورة " على حياتهم ولقمة عيشهم وتعليمهم وصحتهم ومستقبلهم رغم سيطرة الدولة الكاملة على كل مداخل ومخارج الاقتصاد القومى .

فالزراعة التى كانت يسيطر عليها الإقطاع من خلال ملكيته لمعظم الأراضى الزراعية أصبحت الدولة بقوانين للإصلاح الزراعى 1952 وما تلاها وقوانين العلاقة بين المالك والمستأجر هى المسيطر الرئيسى عليها من خلال أجهزتها الممثلة فى وزارة الإصلاح الزراعى والجمعيات

التعاونية التى تشرف على الملكيات الصغيرة المفتتة تحدد نوعية المحصول وطريقة تسويقه وسعره وتمويل زراعته .

والصناعة بعد تأميم ممتلكات الأجانب فى 1956 وتكوين بدايات القطاع العام ممثلة فى المؤسسة الاقتصادية سيطرت عليها الدولة فى محاولة لتحقيق حلمها الطموح " من الإبرة الى الصاروخ " فأنشأت شركات قطاع عام للسماد والأسمنت والحديد وصناعة السيارة والطائرة والصاروخ ... وطورت الشركات القائمة فى غزل ونسج القطن وصناعة القماش والسكر والزيت تاركة هامشا ضيقا للقطاع الخاص يتمثل فى مجموعة من الورش الصغيرة التى يشرف على منتجاتها ويحدد أسعارها أجهزة الرقابة الحكومية .

والمقاولات التى كان عليها عبء إنشاء مبانى خطة الصناعة الطموحة ومبانى الخدمات والدور الحكومية والإسكان وشبكات الطرق والمياه والمجارى والكهرباء بالإضافة الى السد العالى والوادى الجديد تم تجميعها بعد تأميمها فى مؤسسات حكومية رقابية تشرف عليها ... توجهها ... توزع الأعمال بينها ... كذلك تم إنشاء جهاز رقابى يتبع وزارة الإسكان مهمته السماح لمقاولى التخصص بالعمل ضمن إطار خطة الإنشاء ويتأكد من أن كل شركة لم يتجاوز حجم عملها كمقاول باطن لشركات القطاع العام أو الحكومة الحد الأقصى وهو خمسون ألف جنيه سنويا .

والتجارة الخارجية تم حصر نشاطها بالكامل فى شركات القطاع العام والجمعيات التعاونية فيما عدا بعض فروعها فتركت للقطاع الخاص تحت إشراف أجهزة مراقبة الأسعار ووزارة التموين .

والخدمات كانت الحكومة تقدم أغلبها ... جميع أنواع النقل... نقل المياه .. المجارى الكهرباء – الطاقة – التليفونات التعليم.. الصحة.. الثقافة... الإسكان.. مع السماح بهامش ضيق للقطاع الخاص تشرف عليه لجان حكومية لتحديد الإيجارات .

باختصار كان مجمل النشاط الاقتصادي والإنساني تتولاه الدولة والقطاع العام وما يتولاه القطاع الخاص كانت تشرف عليه (وترشده) طبقا لخطة مركزية تعدها وزارة التخطيط.

فإذا أضفنا لذلك قوانين الضرائب التصاعدية والرسوم الجمركية العالية الخاصة بحماية الصناعة المحلية وقيود تحويل العملة.. وعضوية مجالس إدارة الشركات لمثلى العمال ... و إقرارات الثروة وتحديد الحد الأقصى لمكافآت ورواتب أعضاء مجالس الإدارات بخمسة آلاف جنيه ... فكيف قام للرأسمالية " المستغلة " قائمة بعد ذلك !!

2- صغار.. صغار المستثمرين

رغم القوانين الاشتراكية ... ورغم العنف الثوري ... وسيطرة أجهزة الدولة على مداخل ومخارج الاقتصاد القومى ...

ورغم القيادة (الوطنية)... إلا أن الرأسمالية استطاعت اختراق جميع القوانين والتحصينات التى أنشأتها الثورة من خلال مهاجمة نقط ضعف النظام الذى لم يجد من يدافع عنه .. فأصحاب المصلحة الأساسية الذين كانوا من الممكن أن يفدوه بأرواحهم تم استبعادهم من اليوم الأول وحل محلهم هؤلاء الذين كونوا ثروات ضخمة بعد ذلك مستغلين كل ثغرة ممكنة فى النظام .

إن القيادات الفنية والاقتصادية للقطاع العام وبعض قيادات الاتحاد الاشتراكى ... والعناصر الانتهازية التى اندست فى الأجهزة الإعلامية والبوليسية تحالفوا جميعا مع فلول الإقطاع والرأسمالية المهزومة لنهب مؤسسات الدولة وتكميم الأفواه واستـخدام (العنف الثورى) من معتقلات وقوانين استثنائية لضرب حلفاء الثورة بدلا من أعدائها .. وبالحصار الاقتصادي والاعلامى الذى مارسته (دول المعسكر الإمبريالي) ... وبميوعة (المعسكر الاشتراكى) الذى كان يسعى الى الوفاق وبنزيف حرب اليمن الذى استهلك الاقتصاد ودمر مخزون العملات الحرة وترك أجهزة الإنتاج تنعى الإهمال ... استطاعت قوى الثورة المضادة أن تحتل مراكز الصدارة وتوجه ضربات قاسية وحاسمة الى " الاشتراكية " وتعود بالرأسمالية الطفيلية الجديدة للسيطرة على الاقتصاد القومى .

ولكن كيف حدث هذا ؟؟ .

عندما هربت فلول الرأسمالية القديمة والإقطاع الى أوروبا ودول عربية حيث جمعت حولها أكثر العناصر انتهازية ... لم يكن هناك من يتصور أن فى استطاعتها العودة ثانيا وعندما انضم إليهم صغار المقاولون والموردون المتحالفين مع بعض قيادات القطاع العام لتبدأ حربا ضارية ضد النظام بهدف تدميره من الداخل والخارج ... لم نهتم جميعا لتأكدنا من ثبات وقوة وشعبية الثورة ..

وعندما سافرت الدفعات الأولى من القوات المسلحة لحرب صغيرة محدودة فى اليمن لم يدر فى خلد القيادة السياسية والعسكرية أنها إشارة البدء لتحطيم النظام ...

فالقيادة العسكرية التى منحت الضباط والجنود بعض الامتيازات الصغيرة – فى تصورها – لدفعهم للسفر مثل البدلات والمعافاة من الجمارك للسلع المستوردة معهم و أولوية الحصول على جميع الخدمات الحكومية كتركيب تليفون أو الحصول على شقة لم تكن تتصور أن العائدون سوف يشكلون شرائح جديدة فى المجتمع تستمتع وعائلاتها بدخول أكبر وامتيازات أكثر ولم تكن تتصور أن بقدوم بضائع اليمن المعفاة من الجمارك أطل المجتمع بشكل واسع على منتجات العالم الرأسمالى فبهرته .. استنزفته فى سوقها الاستهلاكي ...و أغرى الطلب عليها العديد من الضباط والجنود بالتجارة فيها وتهريب العملة .

ومن هنا بدأ تغير الاقتصاد القومى ... فالدخول التى ارتفعت من عائد بدلات السفر والتجارة والتهريب امتصها تجار المخدرات والعملة والمضاربون والمقاولون وتجار الحرام والمتعة بعد أن نشطت تجارتهم .

وبدأت الرأسمالية التجارية خطواتها الأولى بعد أن تشكلت من بعض أفراد القوات المسلحة والتجار والسماسرة وصغار المقاولين ومورى الفن التجارى والمتعة الحرام وتجار المخدرات وبعد أن انضم إليهم بعض منحرفى القيادات الاقتصادية والسياسية الذين زادت السلع الاستهلاكية شهيتهم للكسب السريع عن طريق الرشوة واستغلال النفوذ .

لقد تراكمت لدى الرأسمالية الجديدة كميات هائلة من أوراق العملة التى أصدرتها الحكومة دون أن يكون لها رصيد عمل اجتماعي .. وزاد من تراكمها مضاربتهم عليها فى السوق السوداء ... وخلق الأزمات لرفع الأسعار ... رغم رقابة الحكومة... فاستخدمتها (أى الرأسمالية الجديدة) فى مجالات الاستثمار المسموح بها فى ذلك الوقت ...

فى شراء ملكيات صغيرة من الأرض وزراعتها فواكه .. وفى المشاركة على تربية الحيوانات والدواجن ... وفى إنشاء صناعات منزلية خفيفة مثل التريكو والخياطة والسجاد ... أو إنشاء ورش صغيرة لانتاج البلاط والنجارة والأثاث ... وفى بناء المساكن الصغيرة على أطراف المدن . – ونشطت بذلك أعمال المقاولات الصغيرة – كذلك فى تجارة المواد والأدوات الاستهلاكية وفى تجارة المخدرات والعملة ... وفى شراء التاكسيات وعربات النقل ... والشقق المفروشة ...

وبدأت أجور الحرفيين فى الارتفاع .. وبدأت القيمة الشرائية للجنيه تنخفض وعاش المجتمع المصرى أزمة اقتصادية أدت لظهور السوق السوداء و إهمال المرافق وشيوع النمط الاستهلاكى كسلوك وتفسخ القوات المسلحة ثم هزيمة 67 .

لقد كانت حرب اليمن أولى نقاط الضعف التى اخترقتها (الرأسمالية) و أطلت منها برأسها ثانيا .

3- صغار المستثمرين

هزيمة 67 هى أهم الأحداث التى أعقبت 23 يوليو 1952 تأثيرا فى تاريخ مصر لقد شحذت كل القوى أسلحتها واستعدت للمعركة بـعد أن تصورت ضعف النظام .

ورغم محاولات القائد لتصحيح المسار ببيان 30 مارس 1968 ورغم دعوته لوحدة وطنية تقف صفا واحدا لاسترداد الأرض السليبة برفعه شعار " لا صوت يعلو على صوت المعركة " .. الا أن الرأسمالية الجديدة كان صوتها أعلى من أى صوت مطالبة بتدمير النظام القديم .

ومع اهتمام القيادة السياسية بترميم القوات المسلحة .. انزوت الآمال والأحلام العظيمة لبدايات الاشتراكية ... فتوقفت الصناعات الوليدة خصوصا الحربية منها وعانت من مشاكل التجديد وعجز قطع الغيار .. وتداعت شبكات الخدمات (مجارى – مياه – كهرباء – تليفونات – طرق) ... وتم تجنيد زهرة الشباب القادر على العمل وهاجر الآخرون الى الدول العربية و أوروبا ... فتدهورت الزراعة والخدمات التعليمية والصحية والفن والثقافة والعلوم ... وحلت أزمة اقتصادية طاحنة استفادت منها الرأسمالية فى تراكم رؤوس أموال جديدة مستغلة كل ما يمكن استغلاله متهربة من تطبيق القوانين ودفع الضرائب والجمارك .

وبدأ الحماس والحب والاعتزاز والثقة التى تولدت مع انتصارات الثورة الأولى يحل محلها قيم السقوط الأخلاقى التى صاحبت الهزيمة ... فانتشرت وسائل اللهو والعبث والمخدرات وتقديم المتعة المحرمة للوافدين من أطراف الدول العربية .. و أصبحت الرشوة واستغلال النفوذ أعمالا يومية لا يخجل منها المواطن ويحاول سترها ... و أصاب الناس حمى الحصول على المال بأسرع ما يمكن و أسهل ما يمكن ...

فسقطت الخطوط الدفاعية التى أقامتها " الدولة الاشتراكية " خط خلف خط وظهرت " القطط السمان " على حد التعبير الذى ساد فى تلك الأيام .

ولكن .. من أين ظهرت " القطط السمان " ... ؟ رغم وجود القوانين الاشتراكية !!

لقد ظهرت من كل ما هو غير مشروع من أنشطة !!!

الرشوة والعمولات خصوصا فى مجال المقاولات التى كان عليها العبء الأكبر فى إنشاء الخطوط الدفاعية الجديدة .. بدون أى حساب أو منافسة أى بطريقة (التكلفة + قيمة مضافة).

ومن تهريب البضائع من مصادر أخرى غير اليمن بعد أن زادت شهية المستهلك لها... ونشطت " تجارة الشنطة " الى بيروت و أثينا وليبيا . ومن توريد العمالة للدول العربية ... ومن المضاربة بسعر الجنيه المصرى بالسوق ومن البغاء والشقق المفروشة وتقديم التسهيلات للسياحة القادمة من الدول العربية ... و أخيرا من بدايات الانتعاش الذى تم مع ورود عوائد عمل العاملين بالخارج .

ومن الطبيعى والموقف بهذا الشكل أن ينعكس ذلك على مجالات الاستثمار الجديدة ... فتصبح استثمارات ذات عائد سريع ... أى فى مجالات الاستهلاك اليومى ...

مثل تربية الدواجن من أجل البيض والذبح والحيوانات من أجل اللبن واللحم . زراعة الفواكه (وتوقفت زراعة القمح والذرة والقصب والقطن) صناعة الأحذية والشنط ... تهريب الذهب وصناعة الحلى ... الملابس والسجاد... منتجات خان الخليلى ... وفى مجالات أقل كتأجير الشقق المفروشة للسياح العرب فى الأساس ... تشغيل التاكسيات ووسائل النقل الفاخرة... ورش الإصلاح تجارة العملة والأدوات الاستهلاكية من ملابس وأدوات زينة (البوتيكات).

وبدأت ظاهرة الدروس الخصوصية و ارتفاع أسعار الخدمات الطبية والفن الرخيص .

وهكذا كان المسرح قد تم إعداده لأحداث ما بعد 73 لقد ساد منطق جديد... منطق الربح السريع ... ومع انهيار الأخلاق انهار الكتاب والاسطوانة والفيلم والمسرح... وتفشت الفردية وعدم احترام العمل كقيمة ... ولاذ البعض بالدين والدروشة هربا من الطوفان ولجأ آخرون الى الهجرة أو الهروب بأمراض مستعصية نفسية .. أو بالانحلال .

4- الاستثمار المتوسط

وحارب الجيش المصرى معركة محدودة استرد فيها جزءا من سيناء ثم وقعت القيادة السياسية بعدها معاهدة للصلح مع إسرائيل وتبادل السفراء ... والبضائع ...

وارتفعت الأسعار خلال شهور الى الضعف .. ولم يتوقف بعد ذلك ارتفاعها ... وساد منطق التجار .... اصبح الربح هو الهدف الأول والدافع الأساسى لكل الأنشطة الإنسانية ولم تعد حاجة المجتمع تلق أى اهتمام ... لقد بدأ استنزاف الرأسمالية السافر لكل قطرة من دم الشعب... وحاصرته بقيمها و أفكارها فرضت عليه علاقاتها ونمطها فى الحياة ... حتى أزمتها و أمراضها حتى جنونها وجنوحها .

وتغير الفن والثقافة والمثل العليا والأهداف والقوانين وتم إلغاء الاتحاد الاشتراكى وتكوين الأحزاب وصدر قانون الاستثمار رقم 43 وتعديلاته ثم قانون الشركات المساهمة وسمح بذلك لكبار المستثمرين بأن تعفيهم الدولة من الضرائب والرسوم لخمس سنوات وبمخالفة قوانين العمالة والحد الأقصى للرواتب ... وقاد " الانفتاح العظيم " الى ضرب آخر التحصينات التى أنشأتها الاشتراكية ...مجانية التعليم و العمل عن طريق القوى العاملة ونسبة العمال والفلاحين بالمجالس الشعبية والقطاع العام والتى أصبحت مصدر جدل ومحاولات مستمرة لتعديلها .

لقد كانت الرأسمالية قد أعدت المسرح لقفزتها الأخيرة ... حدث تراكم رأسمالى لعناصر عديدة يسمح باستثمارات أكبر ... تم التخلى السياسى عن الاشتراكية والمعسكر الاشتراكى ... تم وصم الفترة السابقة بالعنف والارهاب وحكم الفرد والبوليسية ... تمت (ثورة مايو) ضد (مراكز القوى).. وتم قمع الهبات الشعبية " انتفاضة الحرامية " وتكون جيش معد بأحدث أسلحة القمع " الأمن المركزى " وتم التضخيم الإعلامي لحجم الانتصار المحدود ومبادرة السلام وكامب دافيد وتم الانحياز الكامل لأمريكا وفرشت لها السلطة الورود ليحضر مستثمروها بالأموال والخير والتكنولوجيا .. والقروض وحضر من الخارج كل فلول الرأسمالية القديمة ليتحالفوا مع أبناء الطبقة الجديدة من الحكام وقادة العمل الاقتصادى والسياسى ... وليكونوا جميعا طبقة جديدة من الكومبرادوريون أتباع الاحتكارات الأجنبية ... يقتلون الصناعة والزراعة ويغرقون السوق بالمنتجات الاستهلاكية القادمة من كل بقاع الأرض.

طبقة غير متجانسة كونها التجار الذين أثروا خلال الأزمة... ورجال القطاع العام والبنوك الذين تحالفوا معهم ونهبوا مؤسسات الدولة وشركاتها... والوكلاء التجاريون أبناء وأقارب رجال السلطة والرأسمالية القديمة ... والمضاربون بأسعار الأراضى والعقارات والعملة ... وسكان بور سعيد بعد أن أصبحت منطقة حرة وكبار المهنيين الأطباء والمهندسين والمراجعين والاستشاريين والصيادلة والمحامين الذين أصبحت أتعابهم تفوق أى تصور ... ومنتجو الأفلام الهابطة والفن السخيف وشرائط الكاسيت المنحطة .... والمقاولون ... والعائدون من الخارج .

وبدأ استخدام الأموال المكتسبة من تجارة المخدرات والدعارة والبوتيكات والمضاربة بالعملة والأراضى ... فى إنشاء مجمعات زراعية ضخمة لتسمين العجول والدواجن وزراعة الزهور والنباتات الطبية ...وحدائق الفواكه واحتكرت عائلة أو اثنان هذه المنتجات فارتفعت أسعارها

بشكل جنونى واستخدمت هذه الأموال فى الصناعات التجميعية والاستهلاكية كمصانع المياه الغازية والمربات والأثاث والأدوات الصحية والملابس والشامبو وكل ما تشاهد إعلاناته فى التليفزيون ...

واستخدمت هذه الأموال فى إقامة الإسكان الفاخر والمتوسط ... و أصبح تملك شقة هو السائد بعد أن كان الإيجار ... وشاهدنا المجمعات التجارية الضخمة (السوبر ماركت) والسلع المعمرة كالسيارات و أجهزة التكييف و أحدث موديلات وماركات الملابس والعطور ومهمات التزين والحلى ... واستخدمت هذه الأموال فى إنشاء المدارس الخاصة والمستشفيات السياحية بأسعار فوق طاقة غالبية الشعب .

لقد أصبح العصر الذهبى لكبار موظفى القطاع العام ... فالانفتاح جعلهم يستبدلون ماكيناتهم ويشترون قطع غيار جديدة ويشاركون شركات أجنبية وينشئون شبكات مياه ومجارى وكهرباء وتليفونات ... ويحصلون على عمولات ورشاوى ضخمة ... لقد أصبح العصر الذهبى لموردى هذه الآلات والمعدات من أقارب السلطويين ...

لقد أصبح العصر الذهبى للمضاربين على أسعار الأراضى المعدة للبناء . و لأصحاب الأعمال الاستشارية وللسماسرة ومكاتب التخديم ولبنوك الانفتاح ... والبلطجية والخارجون على القانون .

ومن الطبيعى أن تكون جميع هذه الأنشطة معفاة من الضرائب والا كيف أمكن لهؤلاء أن يراكموا ملايين الجنيهات .

وزادت سرعة التراكم ... لقد استنفذت الرأسمالية كل ما قدمته أمريكا وأوروبا من قروض .. وكل ناتج البترول وقناة السويس وناتج العمل بالخارج ان الرأسمالية الجديدة تمتلك ما لا يقل عن خمسمائة ألف مليون جنيه ... رغم معاناة الدولة من ديون قيمتها سبعون ألف مليون...

وهكذا استطاعت الرأسمالية أن تعدل نمط السلوك الى سلوك استهلاكى سلعى والقيم الى قيم الربح السريع والخطف والفردية ... والفن الى فن رخيص تجارى ساقط .. والمنافسة الى منافسة همجية وحشية ...

واستطاعت الرأسمالية العالمية تصدير أزمتها الاقتصادية الى مصر بعد أن كانت محمية بأسوار عالية من قوانين الاشتراكية ...

وانخفضت قيمة الجنيه أكثر من مرة و أصبح له أكثر من سعر وارتفعت الأسعار عشرات المرات .

فإذا كنت تعيش مبهورا بالسلع التى حولك تدفعك إليها الإعلانات والجيران والأصدقاء ولا تجد مايكفى لشرائها

إذا حاصرتك الغثاثة من كل اتجاه واختلطت عليك القيم وبلبلتك الفلسفات الجديدة ... إذا كنت تعانى من ارتفاع الأسعار وانخفاض القيمة الشرائية للجنيه الذى كسبته بعرقك ... ولا تجد المسكن أو العلاج أو التعليم أو الملبس أو المأكل ....

إذا كنت مرعوبا من الأمس واليوم والغد ... لا تستطيع أن تتنفس .. فاعلم أن السبب هو تجمع الملايين فى يد الرأسمالية الطفيلية الجديدة التى عرفت تاريخها .

واعلم أننا على أعتاب عصر جديد ستنهار فيه كل المنشآت الاقتصادية الصغيرة والمتوسطة وستتوه فيه القيم مع عصر المليونيرات.

ولكى تنجو من الجنون والأمراض النفسية التى تصبح ظاهرة فى المجتمعات الرأسمالية.

عليك أن تتسلح بقوة الاستغناء.. عليك أن تستغنى عن أنوار المجتمع الاستهلاكى وتطهر نفسك بالعمل الجاد ... وتبحث فى داخلك عن كل ما هو أصيل وعظيم وقوى.

عليك أن تتعالى عليهم ... " أنظر حولك فى غضب وابصق " ... لقد جمعوا ملايينهم من الرشوة ... من تجارة المخدرات ... من الدعارة ... من المضاربة بالأراضى والعقارات ... من الفراخ الفاسدة .. من العمارات المتهالكة و الساقطة ... من العمل كخدام (للامبريالية) و (الرأسمالية العالمية) من تجارة العملة ... من الدروس الخصوصية .. من المستشفيات الغالية .. من آلام البشر ومستقبل الوطن ومن الديون التى سيدفعها ابنك وابنى فى يوم ما ...أم أن هذا كلام قديم لن يقبله قارئ الزمن الحديث .

قراءة حديثة فى كتاب قديم

صعود وسقوط الرايخ الثالث

مقدمة

التاسع من أبريل عام 1938 أى فى الليلة التى سبقت يوم استفتاء شعبى ألمانيا والنمسا على الوحدة التى فرضتها قوات الغزو النازى عليهما .. وقف هتلر فى الرايشستاج الألمانى يلقى خطابا هاما بصوت تخنقه العاطفة متوسلا

" أيها الشعب الألمانى امنحني أربع سنوات أخرى عساى أحقق لك فيها ما تتوخاه من استغلال للاتحاد الذى أقمناه لمصلحة الجميع " .

قوبل هذا الحديث العاطفى بعاصفة مدوية وطاغية من التصفيق والاستحسان بحيث تضاءلت أمامها جميع انتصارات الفوهرر السابقة من فوق هذا المنبر .

أكمل متجاهلا أن الاستفتاء لم تظهر نتيجته كما لو كانت أمرا مفروغا منه .

" أعتقد أن إرادة الله هى التى شاءت أن تبعث بشاب من أبناء هذه المدينة الى الرايخ ودفعته فى معارج النهوض ورفعت من شأنه ليصبح زعيم الأمة وليتمكن من ضم وطنه الى حظيرة الرايخ "
.

" هناك إرادة أسمى من إرادتنا ولسنا فى الحقيقة الا وكلاء لها .. وعندما نقض الهر شوشينج (رئيس وزراء النمسا) وعده فى التاسع من مارس شعرت آنذاك وفى تلك اللحظة أن نداء العناية الإلهية قد قرع بابى ولم أجد فى كل ما وقع من الأيام الثلاثة التالية إلا تحقيقا لمشيئة العناية الإلهية ورغباتها . ولم تنقض أيام ثلاثة حتى كان الرب قد أصابهم بغضبه وشاءت العناية الإلهية أن تمنحنى القوة لأجعل من خيانتهم للعهد سبيلا لتوحيد وطنى مع الرايخ " .

" وانى لأتطلع الى الله بالشكر الآن لأنه سمح لى بالعودة الى وطنى ولأنه أراد أن أقوده الى حظيرة الرايخ الألمانى والآن أسأل الله أن يمكن كل ألمانى من إدراك هذه الساعة وتقدير أهميتها وأن يمكنه من الوقوف خاضعا أمامه جل شأنه ليشكره على المعجزة التى حققها لنا فى غضون بضعة أسابيع " .

وسرعان ما قفز ستمائة نائب كلهم من الذين عينهم هتلر شخصيا ومن الرجال الذين يحملون أجساما كبيرة ورقابا منتفخة وشعورا مجزوزة وكروشا ضخمة ويرتدون بذات بنية و أحذية ثقيلة ... على أقدامهم كالآلات الذاتية الحركة يمدون أذرعهم اليمنى بالتحية النازية ويصرخون " هايل هتلر " بصوت واحد قوى .

وفى اليوم التالى كانت نتيجة الاستفتاء موافقة 99.75 % من الشعب النمساوى المحتل و 99.08 % من الشعب الألمانى الغازى .. على الوحدة .

إذا تأملنا تلك السطور التى تم نقلها من كتاب وليم شيرر "صعود وسقوط الرايخ الثالث" فإننا سنجد أنفسنا وجها لوجه مع الملامح الأساسية التى سيطر بها ديكتاتور الرايخ الثالث على شعبه وتحكم بواسطتها فى مقدراته والتى أصبحت بعد ذلك دستورا لكل من صورت له خيالاته بأنه مبعوث العناية الإلهية والمحقق لإرادتها فى وطنه .

ان هتلر ذلك الطاغية الذى جر الخراب على العالم بما فى ذلك رايخه الثالث المحبب الى نفسه – فاستعبد وقتل وشوه عشرات الملايين من جميع شعوب الأرض سواء فى ذلك هؤلاء الذين حاولوا استرضاءه أو استسلموا له أو قاوموه .. يقف متواضعا بطهارة القديسين يستجدى ثقة شعبه واهما إياه من خلال ميلودراما هابطة مليئة بالأكاذيب بأن ما يفعله ما هو الا إرادة الله التى قدرها لصالح وطنه وحكمه وشعبه .. ولكن وبمجرد أن ينهى خطابه هذا يصدر الأوامر لزبانيته من محترفى الإجرام ليذيقوا كل من ساقته الأقدار ليقع تحت رحمته ويلات الذل والعذاب .

ان قصة فوهرر ألمانيا قصة مكررة فى التاريخ يمثل فيها حلقة وسطية بين طغيان أباطرة الأمس فى مصر وبلاد ما بين النهرين واليونان وروما – فرعون وقيصر والاسكندر وهولاكو ونابليون .. وبين طغيان اليوم الذى نكاد أن نلمسه بأيدينا أينما يممنا وجوهنا شطر آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية .

ولكن أهمية الفوهرر ونظامه بالذات أنهما كانا يتمتعان بجاذبية شديدة ليس لدى أبناء وطنهما فحسب ولكن لشباب عالم المستعمرات الذين كانوا يرقبونه بحب وتقدير مبالغ فيه وهو يمرغ أنف الإمبراطوريات القديمة فى الرغام .

لقد بهرهم بالزخرف الخارجى للإنجازات السريعة والانتصارات الساحقة التى حققها فى مجالات الصناعة والتنظيم والحرب والمناورة السياسية فأصبح مثلهم الأعلى ونظامه هو النموذج الذى سعوا الى تحقيقه فى أوطانهم متجاهلين الآلام و التدميرات التى تسبب فيها للبشر وغير واعين لمعنى سقوطه .

لقد ترك هتلر بصمته على القرن العشرين فلاشك أن مصارعة هتلر فى النصف الأول من القرن قفزت بالعالم الى آفاق لم يكن يحلم بها فى مجالات التكنولوجيا والتنظيم ... وفى النصف الأخير من القرن ألقى نظامه بظلاله – سواء بالسلب أو الإيجاب – على أنظمة حكومات عالم ما بعد الحرب .

ولنبدأ القصة من أولها

فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين كان يحكم العالم فلول النظام الإقطاعي المندحر أمام الرأسمالية البازغة .. مجموعة من الديكتاتوريون.. فى ألمانيا هتلر .. فى إيطاليا موسولينى .. والنمسا شوشينج و أسبانيا فرانكو .. واليابان إمبراطور اله وحتى الاتحاد السوفييتى دولة العمال ومهد الاشتراكية كان هناك ستالين الذى قال عنه خورشيتشيف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى أنه كان طاغية مضطرب العقل .. على الجانب الآخر كانت هناك الإمبراطوريات الإنجليزية والفرنسية والهولندية والبلجيكية .. تحتل بالقوة والقهر شعوب المستعمرات تضطهدها وتستنزفها .. وفى العالم الجديد كانت أمريكا التى خرجت من حروب الاستقلال والحرب الوطنية تعانى من التفسخ والأزمة الاقتصادية التى جعلت معظم الشعب يتضور جوعا رغم محاولات روزفلت الديموقراطية لرم الصدع .

ان الثلاثينيات فى تاريخ العالم هى اللحظة التى كانت الأرستقراطية الإقطاعية تسلم فيها الرأسمالية الفتية الإعلام من خلال صراع حاد دموى تضطهد فيه الأخيرة عمالها وشعوب المستعمرات وتنقلب على أنظمة الحكم الرجعية التى تقف كحجر عثره فى سبيل تقدمها وفرض سيطرتها .

وكان على الرأسمالية الصناعية أن تتغلب على مشكلتين.. الأولى تلك المقاومة العنيفة من عمالها والمتمثلة فى النضالات النقابية القوية والأفكار الاشتراكية والشيوعية والتى وجدت لها موقع قدم فى روسيا بعد انتصار الثورة البلشفية .

والأخرى .. أن تجد لنفسها أسواقا جديدة توزع فيها منتجاتها وتستورد منها المواد الخام الرخيصة. وتراكـم رؤوس الأموال لتستولى على الحكم وتفرض إرادتها وسيطرتها لمصلحة نموهـــا .

فى هذا الوسط المشبع بالصراع بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ظهر هتلر وحزبه النازى.

كانت ألمانيا بعد هزيمتها مكبلة بمعاهدة فرساى التى فرضتها عليها الدول المنتصرة والتى كان عليها بمقتضاها دفع خمسة بلايين من الدولارات مقيمة بالماركات الذهبية .. عدا الفحم والسفن والخشب والماشية وغيرها من التعويضات العينية .. وكان جيشها قد تم تحديد حجمه بمائة ألف متطوع وممنوع من اقتناء الدبابات والطائرات والغواصات والقطع البحرية التى تزيد حمولتها عن عشرة الآف طن .. كما أنه كان محروما من تكوين هيئة أركان حرب .

وكان الاقتصاد الألمانى مدمرا من فعل التعويضات ويعانى من بطالة تصل الى سبعة مليون عاطل .. وكان الدولار الذى قيمته أربعة ماركات قد ارتفعت قيمته الى خمس وسبعين فأربعمائة فسبعة الآف فثمانية عشر ألف فمائة وستين ألف فأربعة ملايين مارك بحيث لم يعد للمارك الألمانى أى قيمة على الإطلاق .

وكانت الحياة السياسية ممزقة بواسطة عدد لا نهائى من الأحزاب والجماعات السياسية المتصارعة , وكانت الأرض الألمانية مفصولة أيضا فى كتلتين رئيسيتين تفصلهما بولندا ولا يسمح بالاتصال بينهما .. بخلاف أجزاء أخرى استولت عليها لتوانيا وتشيكوسلوفاكيا.. كذلك كان حوض نهر الراين الملاصق لفرنسا منزوع السلاح ولا يسمح بتواجد قوات مسلحة فيه .

وهنا ظهر الحزب النازى ليحقق انتصارات مدوية متحديا معاهدة فرساى موحدا الشعب محققا تفوقا صناعيا .. متغلبا على البطالة.. مستفزا الديناصورات المستقرة فى أوروبا والمسيطرة على العالم .. مطالبا بما يسمى بالمجال الحيوى لألمانيا .. أى مناطق تزودها بالمواد الخام والمنتجات الزراعية والعمالة الرخيصة وسوقا مستهلكا لنتاج مصانع الرأسمالية .

ظهر الحزب النازى بأفكاره الغريبة عن تفوق العنصر الآرى الذى عليه أن يقود الأجناس الأخرى المنحطة فيستعبدها أو يمحوها من على الأرض , وشجعته الرأسمالية الألمانية .. فقد كان الأمل فى حل مشكلتيها .. فالحزب بأفكاره الغريبة قادر على أن يلجم مقاومة العمال والاشتراكية والشيوعية.. وفى نفس الوقت بنظرته العنصرية يمكنه أن يجد للرأسمالية الألمانية مكانا على الأرض.

وحاولت القوى المحيطة به ملاينته.. فسلمته إنجلترا وفرنسا, بدون أى مقاومة النمسا .. ثم وبقليل من المقاومة تشيكوسلوفاكيا ولكن شراهته لم يكن لها حدود.. فحاولت زجره عندما بدأ فى الاستيلاء على بولندا .. ثم تهاونت أمام ضراوته .. فاستولى على هولندا وبلجيكا .. ثم وجه لهم ضربته الأساسية فاستولى على فرنسا ودمر المدن الأساسية فى انجلترا وحاصر أسطولها بل

أطاح بألف سفينة لها .. ثم استدار للاتحاد السوفيتي يلتهمه قطعة قطعة حتى وصل الى حدود موسكو ناشرا الرعب بقواته المتفوقة ونظامه البوليسى شديد الكفاءة شديد الإرهاب .

لقد كان لهذه الانتصارات أثر السحر فى عقول ونفوس شباب المستعمرات الذين تمتلئ قلوبهم بالحقد على الإمبراطوريات القديمة , فشجعوه غاضين البصر عن مجازره مسلمين آذانهم وأفئدتهم لدعاية جوبلز .. لقد كانت الروح الجديدة تبهرهم فأصبحت هى المصدر الأساسي لثقافتهم وهى النموذج والمثل المحتذى .

وحتى بعد أن تسقط إمبراطورية الرايخ تبقى لعنتها متغلغلة فى نفوس وقلوب شباب المستعمرات منتظرة الفرصة المواتية .

وتجئ هذه الفرصة .. فلقد تغير العالم بعد حربه الثانية .. ورغم انتصار إنجلترا وفرنسا .. إلا أن عالم الإمبراطوريات القديمة أذن بالانتهاء.. ومع حركات التحرر الوطنى .. تتحول دول المستعمرات الى دول العالم الثالث ... دول مستقلة سياسيا.. وتابعة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا.. وتزدهر لعنة الصعود السريع الساحق ويتصور عديد من قادة الشعوب المستقلة حديثا أنهم مبعوثو العناية الإلهية وأن فى قدرتهم أن يحققوا ما فشل الفوهرر عن تحقيقه ... وتصبح السمة الغالبة لحكومات ما بعد الاستقلال فى آسيا وأفريقيا و أمريكا اللاتينية الفاشستية والزعيم الأوحد .

فإذا كانت ظاهرة الحكم النازى قد عمت و أصبحت مثل البثور على وجه الكرة الأرضية .. فلنمعن النظر قليلا فى أسس هذا النظام إذا كنا قد نسينا التاريخ .

كتب وليم شيرر " وصلت الى الرايخ الثالث فى هذا الوقت من أواخر صيف 1934 لأعيش و أعمل فيه .. وكان فى ألمانيا الجديدة الكثير مما يؤثر على المراقبين الأجانب ويزعجهم ويحيرهم .. فلقد بدت الغالبية الساحقة من الألمان وكأنها غير مكترثة بانتزاع حريتها الشخصية منها بتحطم الكثير من ثقافتها لتحل محلها بربرية مجنونة وبأن حياتها وأعمالها غدت منسقة على نحو عسكرى الى حد لم يألفه أى شعب من قبل حتى ولو كان هذا الشعب قد ألف منذ أجيال طويلة حياة التنظيم العسكرى .

ومن المحتمل أن يكون إرهاب الجستابو والخوف من معسكرات الاعتقال كامنا فى النفوس ولا سيما بالنسبة لهؤلاء الذين يخرجون على الصف المنظم أو الذين كانوا فى ماضيهم من الشيوعيين أو الاشتراكيين أو المغالين فى ليبراليتهم أو ميلهم للسلام .. وكانت عملية التطهير الدموية فى 30/6/1934 بمثابة إنذار لما يمكن أن يكون عليه القادة الجدد من قسوة وشدة ".

وفى موقع آخر من الكتاب نجد

" لقد كان الشعب الألمانى يحيا حياة الماشية وقد جثمت على صدره ديكتاتورية متوحشة لا ضمير لها ولا أخلاق ومع ذلك فلقد كان يؤيدها بحماس أصيل فلقد بعثت فى نفوسهم آمالا جديدة وثقة جديدة وإيمانا مدهشا بعظمة بلادهم ومستقبلها " .

ولكن كيف تم هذا ؟

بعد انتهاء الحرب سألوا واحدة من المتحمسات للنازى هذا السؤال فردت " لقد تم كل شىء بسرعة وعلى خطوات بحيث تسربت هذه الأفكار الى دمائنا ببطء يوما بعد يوم .. وكانت الانتصارات

القومية تجعلنا لا نرى الواقع التعس الذى نعيشه وتصبح كل أعمال العنف التى تحيطنا ثمنا مناسبا لعودة الكرامة " .

أجاب آخر – أى حرية تلك التى فقدناها .. حرية الجوع.. لقد كنا سبعة مليون من العاطلين.. عندما تعطينى الخبز حتى ولو كان قليلا فانه أفضل من الجوع .

أجاب ضابط – لقد حقق هتلر أهدافا قومية بإرجاع النمسا والاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا واحتلال الراين بدون أن يطلق طلقة واحدة .. لقد أعاد لى الدبابة والطائرة والغواصة بدون أن يهدر نقطة دم واحدة .

أجاب آخر – أليست فكرة رائعة أن أشعر رغم جوعى بأننى من جنس راق .. بعد كل الذل الذى عانيناه من معاهدة فرساى .

... ألا يستحق هذا التغاضى عن بضعة آلاف من اليهود والشيوعيين والسياسيين القدامى الذين أفسدوا الحياة السياسية وجلبوا لنا الضعف والمهانة والمسكنة .

لقد استطاع هتلر بإطلاق فكر شوفونى مريض عن القومية الألمانية وباستغلال خور وضعف حكومات إنجلترا وفرنسا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا .. تحقيق انتصارات تعتمد على مهارات الكذب والدجل (البلف) تشبه مغامرات لاعبى البوكر .. وبإطلاق أبواق الدعاية المركزة وبإرهاب أصوات المعارضة وبديماجوجية خطابية أن يسرق حلم الحرية والديموقراطية من شعب جائع محطم يعيش أزمة اقتصادية و أزمة ثقة بالنفس .

ولقد كانت أسلحته فى ذلك المناورة المباغتة والكذب .

واستطاع بذلك خطوة .. خطوة أن يستولى على الحكومة وأجهزة الدولة والإعلام والسيطرة ويحركها كلها بمهارة فى سبيل تحقيق حلمه .. وعلينا ألا نستهين بذلك فالشعب الألمانى المثقف المتحضر استطاع هتلر فى النهاية أن يقنعه بأنه مبعوث العناية الإلهية ومحقق رغبتها فى اللحظة – وهذا الغريب – التى لم يكن يحترم فيها دينا أو كنيسة أو ثقافة أو تقاليد ..

لقد أحكم هتلر قبضته على الشعب الألمانى من خلال عدد من الأجهزة والنظم ... فلنستعرضها

1- حزب " وطنى – اشتراكى " وحيد يمتلك الساحة على رأسه زعيم ملهم .

2- نمط ثقافى شوفونى موجه دستوره كتاب " كفاحى " .

3- نظام بوليسى قوى متغلغل له أدواته القمعية وقاعدته من معتقلات وسجون

4- مؤسسات تشريعية ونيابية وقضائية صورية هى دمى فى يد النظام .

5- جهاز إعلامي له قدرة عالية على الخداع والانتشار ينقل وجهة نظر وحيدة

6- جهاز دولة مركزى بيروقراطى يسيطر على كافة الأنشطة الاقتصادية وحياةالناس .

7- جيش له امتيازات خاصة ومعتنى بتدريبه وتسليحه معتاد على الطاعة .

8- تحالف قوى الإنتاج الإقطاعية والرأسمالية مع العمال والفلاحين بقيادةالبيروقراطية المتحكمة فيهم جميعا.

إنها السمات المشتركة لغالبية أنظمة الحكم الفاشستية لم يخترعها هتلر ولكنه طورها منأمثلة تاريخية سابقة و أعطاها ملامحها الحديثة التى وصلت إلينا بها .

1-الحزب " الوطنى الاشتراكى " النازى

عندما استدعى رئيس الجمهورية الألمانية العجوز هندنبرج فى 30يناير 1933 الهر أدولف هتلر ليعينه مستشارا لألمانيا (رئيس وزراء) كان بذلك ينهى تلك المرحلة الطويلة من نضال الحزب للوصول الى السلطة .

حقا لم يكن هذا الحدث يمثل الانتصار الكامل للحزب فلقد كان يشاركه الحكم آخرون .. ولكن سرعان ما استطاع هتلر بالتآمر أن يجعل هذه اللحظة هى لحظة الانتصار النهائى له ولحزبه .

ففى 17 فبراير حرق مجنون هولندى – كما ادعى هتلر – مبنى الرايشستاخ وتولت ميليشيات جيش العاصفة بعد ذلك اعتقال جميع العناصر المناوئة أو اغتيالهم بحجة انه تدبير شيوعى .. ورغم انه قد ظهر بعد ذلك أن أعضاء من الحزب بقيادة وتخطيط جورنج الرجل الثانى هم الذين حرقوا المبنى إلا أن ذلك لم يمنع استمرار سيطرة النازى على الحكم وتصفية الحياة السياسية فى البلد وحل جميع الأحزاب وحظر نشاطها والاستيلاء على مقارها وميزانيتها ومطاردة زعمائها حتى لم يبق فى النهاية الا الحزب الوطنى الاشتراكى .

وكان الحزب منظما بطريقة تشبه الجيش له جهاز حزبى دقيق ومعقد وعلى رأسه هتلر " الزعيم الأعلى للحزب والقائد الأعلى لجيش العاصفة ورئيس منظمة العمال الألمان الاشتراكية الوطنية " .

وبعد الزعيم الأعلى نجد مجلس مديرى الرايخ على اتصال مباشر به يليهم القائد الإقليمى لكل مقاطعة (محافظة) والذى يتم تعيينه بشكل مباشر ثم تنقسم المقاطعات الى حلقات يرأس كل حلقة قائد ثم تنقسم هذه الحلقات الى وحدات أصغر تدعى فئات محلية تنضم كل فئة الى خلايا الشوارع أو الأبنية أو القرى .

وكانت هناك دوائر مركزية للشئون الخارجية والنقابات العمالية والصحافة وتسمى PO 1 ومهمتها الأساسية مهاجمة القوى السياسية الأخرى و أعمال التخريب ومراكز أخرى تسمى PO 2 للزراعة والعدل والاقتصاد الوطنى والداخلية والعمل والثقافة والهندسة ومهمتها تنظيم هذه الأنشطة والسيطرة عليها .

أما الإعلام والدعاية فدائرته مستقلة قائمة بذاتها .. كذلك هناك منظمات نسائية وللشباب والأطفال .

ولقد أولى الحزب اهتماما خاصا بالشباب فكون لهم منظمة شبيبة هتلر للفتيان من 15 – 18 عام كانت مهمتها الاهتمام بثقافتهم والإشراف على مدارسهم وصحافتهم ودعايتهم ورياضة الدفاع عن النفس .

وكان للفتيات أيضا اتحاد الفتيات الألمانيات وللنساء منظمة النساء الوطنيات الاشتراكيات .

كذلك كانت هناك اتحادات الطلاب والمعلمين والموظفين والأطباء والمحامين والقضاة .. ورابطة الثقافة النازية التى تضم المثقفين والفنانين .

وعلى الطرف الآخر كان هناك الجناح العسكرى للحزب ممثلا فى جيش العاصفة وهو قوة تضم مئات الألوف من الرجال .

فى البداية كانت مهمتهم حراسة اجتماعات الحزب وتخريب اجتماعات الأحزاب المعارضة .. ثم تحول ليصبح الوسيلة الأساسية لنشر الإرهاب النازى .

لقد كانت فرق العاصفة بملابسهم البنية إذ كان أعضاؤها يرتدون قمصانا بنية لهم أيضا مكتب سياسى خاص فى الحزب يسمى مكتب الجيش الشعبى .

هذا هو التنظيم أما إدارته فلقد كانت ديكتاتورية فالزعيم الأوحد يصدر التعليمات لمجموعة من الزعماء الأصغر الذين يتولون نقلها للقيادات التالية .. وكانت هذه التعليمات مقدسة ولا تقبل أى مناقشة أو تعديل فيما يسمى بالتوجيهات الحزبية وكلاهما أى التنظيم والإدارة تجسيدا لفكر الزعيم الذى حدده فى كتابه " كفاحى " بالشكل الآتى : -

" عندما تختفى جميع السلطات لا يكون فى وسع أحد إلا إذا كان منبثقا من الشعب أن يعيد تركيز السلطة .. وكلما كانت جذوره أعمق فطريا فى القاعدة الشعبية كان أكثر صلاحا لفهم معاملتها نفسيا وزادت ثقة العمال به واكتسب عددا ضخما من الأنصار بين صفوف الشعب من ذوى الحماسة والحيوية .. وقد لا يشترك هذا الرجل مع الجماهير فى أية خصلة من خصالها اذ يكون – مثل كل العظماء – متفردا ذو شخصية مستقلة بذاتها ولكن عندما يتطلب الأمر لا ينكمش أمام سفك الدماء وكثيرا ما تقرر القضايا العظيمة بالدم والحديد وهو على استعداد ليدوس أقرب أصدقائه ليتمكن من الوصول لهدفه واذا اقتضت الحالة ففى وسعه أن يخطو على الشعب بحذاء الجندى القاذف للقنابل اليدوية " .

وهكذا حدد هتلر صفات الزعيم والحزب ولقد بقى مخلصا لهذا الوصف وحتى الساعات الأخيرة من حياته .

لقد بدأ بتصفية " روهم " فى مذبحة 30/6/34 وانتهى بتجريد هملر وجورنج من كل مناصبهم فى أبريل 45 . لقد كان يعنى ما يقول .. رغم أن الجميع لم يصدقوا أن من الممكن أن يتحقق هذا فى الواقع

2- نمط ثقافى شوفونى موجه

كتب هتلر عام 1924 أى قبل توليه السلطة بحوالى عشر سنوات فى سجنه بعد محاولته عمل انقلاب فى بافاريا كتاب " كفاحى " هذا الكتاب الذى قدر له أن يصبح إنجيل الدولة النازية حقا وليس مجازا فلقد أصدر روزنبرج فى منشوره لتنظيم الكنيسة فى البند التاسع عشر

" يجب أن لا يكون على المذبح كتاب آخر سوى كتاب " كفاحى " فهو أقدس الكتب بالنسبة الى الشعب الألمانى والى الله .. على أن يكون السيف معلقا على يسار المذبح " .

فما الذى كان يحتويه هذا الكتاب .

لقد كان يقص – من وجهة نظره – قصة حياة هتلر منذ ولادته وحتى ذلك التاريخ والعوامل التى – فى تصوره – أثرت على تربيته . وكان يتكلم عن نوع غريب من البشر هو قمة تطور المملكة الحيوانية ومن عداهم يشارك باقى الحيوانات الثديية مرتبة أقل فى سلم التطور .

وكان يبشر بانتصار هذا الجنس الآرى الراقى على باقى الأجناس المنحطة فيستخدمهم فى استغلال الإمكانيات الكامنة لكوكب الأرض .

وكان يعتقد أن الجنس الآرى هذا هو مصدر لكل ثقافة وحضارة العالم منذ ألف عام وأنه سيظل هو المصدر الوحيد لآلاف أخرى حتى يعم البشر نوع متطهر منهم ذو صفات خاصة قوية متخلصة من كل ضعف أو تشوه أو انحراف .

ولذلك فلقد كانت خطته السماح لهذا الجنس بإطلاق كامن طاقته والاستيلاء المبدئى على كميات من الأرض اسماها المجال الحيوى الكافى للسماح لهم بالحياة المناسبة لسموهم . و أن هذا لن يتم إلا بالقوة .. و بإرهاب من عداهم من أجناس منحطة ليتيسر استخدامهم .

لقد كانت مجموعة من الأفكار المريضة التى نتجت عن فهم خاطئ لمبدأ عبادة القوة التى نادى بها نيتشه فى بعض كتبه مثل " هكذا تكلم زرادشت " .

عندما صدر هذا الكتاب لم يؤخذ مأخذ الجد ولكن بمرور الوقت تم تنفيذ كل ما جاء فيه بدقة غريبة تدعو للدهشة وتوارى كل ما عداه.

يقول وليم شيرر " فى العاشر من مايو 1933 أى بعد أربعة أشهر من تولى هتلر الحكم حدث مشهد غريب لم تره أوروبا منذ العصور الوسطى .. فلقد جمع الطلاب نحوا من عشرين ألفا من الكتب وتم حرقها فى احتفال جماعى .. ثم أصدر الطلاب بيانا يقولون فيــه " ان كل كتاب يعمل فى تهديم مستقبلنا أو يضرب بمعاوله جذور ثقافتنا وبيتنا وقوى شعبنا المحركة مصيره الى الحرق " .

أعقب ذلك إنشاء مجلس ثقافة الرايخ حددت أهدافه كالآتى :-

" رغبة فى اتباع سياسة ثقافية ألمانية يصبح من الضرورى جمع الفنانين ذوى الطاقات الخلاقة فى جميع الميادين فى منظمة موحدة تعمل تحت قيادة الرايخ الذى لا يكتفى بتقرير خطوط التقدم العقلى والروحى .. بل عليه توجيه المهام الفنية وتنظيمها " .

و أنشئ فى المجلس الأعلى لثقافة الرايخ سبع لجان فرعية هى لجان الرايخ للفنون الجميلة والموسيقى والمسرح والأدب والصحافة والإذاعة والأشرطة السينمائية " .

وفرض القانون على كل من يعمل فى هذه الحقول أن ينتمى لهذه اللجان التى تحمل توجيهاتها وقراراتها قوة القانون .

وبذلك تحولت الثقافة لخدمة الأهداف الدعائية للعهد الجديد وكل من لا ينتمى.. لن يجد مجالا للحياة .. وانحلت الثقافة العظيمة لشعب جوته وبيتهوفن وشيلر .

كذلك أصبحت الصحف تصدر كلها ولها نفس الطابع نفس العناوين نفس المقالات الافتتاحية.. فلقد كان جوبلز يعقد لمحررى هذه الصحف اجتماعا كل صباح يملى فيه عليهم ماذا سيكتبون ..فهبط توزيع الصحف بعد أن ملها الشعب الألمانى .والإذاعة والأشرطة السينمائية حدث لها نفس الموقف لقد قاطعها الشعب بعد أن تحولت الى الإدارة الرئيسية للدعاية عن طريق دائرة الحزب والمجلس الأعلى للإذاعة والأشرطة السينمائية .

يقول وليم شيرر

" ليس فى وسع إنسان لم يعش مثل ما عشت فى سنوات طويلة فى بلد يحكم بطريقة جماعية أن يدرك بسهولة مدى الصعوبة فى التخلص من النتائج المفزعة للدعاية المخططة والمستمرة لذلك العهد .. وكثيرا ما كنت أجد نفسى وجها لوجه إما فى البيوت أو المكاتب الألمانية أو فى محادثات عرضية مع أناس لا أعرفهم فى مطعم أو مقهى مع تأكيدات غريبة وعجيبة تصدر من أشخاص يبدو عليهم التعلم والذكاء ومن الواضح أنهم كانوا يرددون كالببغاوات بعض التفاهات التى استمعوا إليها فى الإذاعة أو قرءوها فى الصحف .

وكثيرا ما كنت أندفع بالإغراء الباطن المنبثق من داخلى فى قول الحقيقة .. فأجد أمامى فى غالب الحالات تشكيكا فى صحة ما أقول أو صمتا مرعبا وكأننى قد كفرت بالإله الخالق .

و آنذاك أدرك تمام الإدراك أن لا طائل حتى فى محاولة إيجاد اتصال مع عقل غدا مغلقا بإطار سميك وباتت أمامه حقائق الحياة لا تخرج عما يسمعه من هتلر أو جوبلز على الرغم من تجاهلها للحقيقة المجردة .

ولقد شاهد هذا العصر غرائب ليس فى الثقافة والفن فقط ولكن فى التعليم أيضا .. لقد وجدنا من يدرس الفيزياء الألمانية والكيمياء والرياضيات النازية التى أنتجتها العقول الآرية فقط .. أما ما ينتجه باقى العلماء والفلاسفة فهو تعليم منحل خاصة لو كان من يهودى ... بما فى ذلك ألبرت أينشتاين نفسه .

لقد وجه النازى كل إمكانيات التعليم فى اتجاه تنمية الروح العسكرية البروسية والعنصرية الألمانية .

فتحول الألمان وخاصة شبابهم الى بشر ذو بعد واحد محدودى الثقافة مسطحون .. وبذلك توفر له المصدر الدائم والثابت لجيش النازى الفاشيستى الذى غزا به العالم .

لقد كان الديكتاتور فى حاجة الى جنود ولم يكن فى حاجة الى مثقفين فانتحرت الثقافة على أعتابه كما حدث دائما .. وسيحدث مستقبلا .

3- نظام بوليسى قوى

عندما بدأ هتلر نشاطه السياسى كان توجهه الأساسى الى الطبقة المتوسطة تلك التى يستطيع تنظيمها بسهولة فى جهاز بيروقراطى و آخر بوليسى يسيطر بواسطتهما على باقى طبقات الشعب .. وهى فى نفس الوقت أكثر طبقات المجتمع جبنا وترددا فى رأيه وبالتالى فمن السهل السيطرة عليها بواسطة ديكتاتور فرد يتقن طرق إرهابها .. وهى أيضا أكثر الطبقات تأثرا بالأزمة الاقتصادية .

وبالتالى أصبحت خطته فى تنظيم الحكم ترتبط أساسا بتنظيم تلك الطبقة وفى نفس الوقت إرهابها .. وترغيبها. لقد كتب فى " كفاحى " : -

" فهمت الإرهاب الروحى الذى تفرضه هذه الحركة ولا سيما على الطبقة البرجوازية التى ليست أهلا للصمود لا من الناحية الخلقية أو من الناحية العقلية أمام هذه الهجمات .. فهى تنشر عند إعطاء أية إشارة معينة ستارا واقعيا من الأكاذيب والاتهامات ضد أى خصم يبدو منه خطر عليها وتواصل عملها هذا الى اللحظة التى تنهار فيها أعصاب هذا الإنسان الذى تعرض للهجوم ولا ريب فى أن هذا الأسلوب يرتكز على حسابات مدروسة للضعف الإنساني وتؤدى نتائجها الى النجاح بشىء من اليقين الرياضى .

وحصلت على تفهم مماثل لأهمية الإرهاب البدنى ضد الفرد والجماهير .. وبينما يبدو النصر الذى تحقق للمؤيدين وكأنه ظفر لعدالة القضية التى ينتمى إليها يشعر الخصوم فى معظم الحالات باليأس فى إمكان النجاح لأى مقاومة مقبلة " .

هذه المفاهيم التى ظهرت فى الفكر المبكر لهتلر – أى تنظيم البرجوازية وإرهابها نفسيا وبدنيا – أصبحت بعد ذلك دستور الدولة النازية وعلى أساسها تم بناء جهاز بوليسى قوى بدأه منذ اليوم الأول لعمله بالسياسة بعد انضمامه لحزب العمال الوطنى الاشتراكى والذى كان حزبا صغيرا للغاية فى ذلك الوقت .

كانت وظيفة الجهاز فى البداية المحافظة على النظام فى اجتماعات الحزب الجماهيرية ... ثم بعد ذلك إشاعة الإرهاب والفوضى فى مؤتمرات أحزاب المعارضة ..

وكان يضم فى البداية جماعة من المتطوعين المعروفين بالصلابة بدأ تدريبهم تحت قيادة مجرم سابق على أساس أنهم فريق الجمباز بالحزب .. بعد ذلك انضم إليهم عديد من قطاع الطرق والجنود المسرحين وكون منهم فرق العاصفة والتى أصبح لها زى مميز – ملابس بنية - .. ثم انضم لهذه الفرق تنظيمات إرهابية أخرى بكامل تشكيلها .. حتى أصبحت بعد مدة قوة لا يستهان بها فى الشارع السياسى حتى أن هتلر صرح متحدثا عنها

" ان الحركة الاشتراكية الوطنية أصبح لها مخالب وأنياب وستحول دون رحمة فى المستقبل وبالقوة دون عقد أية اجتماعات أو محاضرات قد تضلل عقول إخواننا المواطنين ".

عندما اختار رئيس الجمهورية هتلر للمستشارية .. كانت فرق العاصفة قد أصبحت جيش العاصفة بقيادة " روهم " أخلص معاونى هتلر فى ذلك الوقت ... وفى ليلة الاختيار ظل هذا الجيش

يستعرض فى الشوارع حاملا المشاعل طول الليل فى شكل من أشكال الإرهاب الروحى الذى تكلم عنه الزعيم فيما قبل .

وبعد مؤامرة حريق الرايشستاج المدبرة قاد هذا الجيش حملة إرهاب واعتقالات واسعة النطاق لمعارضى الحزب .

عندما توطدت سلطة الحزب أصبح هذا الجيش يتكون من مليونين الى مليونين ونصف من الشباب المتحمس النشط المسيطر عليه , ولكن ومع استتباب الأمن أصبح هذا الجيش وقيادته يمثلون خطرا على هتلر شخصيا وبدأ بعضهم يتبنون فكرة الثورة الثانية للإطاحة بالرأسماليين الصناعيين .

لذلك فلقد سارع بتكوين جهاز آخر من أجهزة القمع موازيا للعاصفة سمى بفرق الحرس النازى SS وميزهم بأن ارتدى أفراد هذه الفرق الملابس السوداء مثل ملابس الفاشيست الإيطاليين كانت مهمتهم الأولى المحافظة على حياة الفوهرر نفسه .. وكان يمكن ملاحظة تزايد نفوذهم وهم يبعدون الجماهير المجنونة الحماس عن الزعيم أثناء إلقاءه لبعض خطبه الرنانة . وبهذا الجهاز استطاع هتلر أن يقضى على " روهم " وثورته الثانية ويقلم أظافر جهاز إرهابه الأول .

على الطرف الآخر كانت مهمة جورنج إرهاب الشعب فكون جهاز الشرطة الســـرية أو " الجستابو " والذى رأسه السفاح الشهير " هملر " فألقى بواسطته الرعب فى قلوب الألمان ومواطنى أوروبا .

ومع توسع نشاط الإرهاب الروحى والبدنى كان لابد من عد همسات الشعب بما فى ذلك أخلص خلصاء الحزب .. فتكون الجهاز السرى S.D و الذى كانت مهمته فى البداية مراقبة أعضاء الحزب ونقل أخبار أى نشاط مريب ... وتضخم هذا الجهاز كما هى العادة ليصبح مكونا من مائة ألف مخبر مختارين من جميع فئات الشعب بما فى ذلك مثقفيه .. وكان جهازا دقيقا غير معروف أعضاؤه يسترق السمع ويتجسس على كل مواطن .. حتى أن من كان يجرؤ على إبداء رأيه دون أن يتأكد من أنه ليس هناك جهاز للتسجيل أو أن أحدهم لا يسمعه يصبح أحمق.

كان المرء فى تلك الأيام كما يقول شيرر " لا يثق بإنسان ان كان حكيما أو عاقلا .. اذ لا يدرى فقد يكون ولده أو والده زوجته أو ابنة عمه .. صديقه أو رئيسه .. سكرتيرته أو سائقه مخبرا سريا ".

وبذلك أصبحت ألمانيا تحكم بواسطة جيش العاصفة والحرس النازى الذى أصبح منوطا بعد ذلك بالإشراف على المعتقلات .. والجستابو الذى كانت له سلطات استثنائية تجعله فوق القانون وجهاز المخابرات هذا عدا الشرطة والمخابرات الحربية .. وأصبح لكل جهاز عناصر سرية تخترق الأجهزة الأخرى وتتجسس عليها بشكل متنافس بحيث تصب كلها لدى الفوهرر كأداة لفرض الإرهاب الروحى والبدنى .

وانتشرت معسكرات الاعتقال فى جميع أنحاء ألمانيا منذ السنة الأولى للحكم حتى أنها وصلت الى خمسين معسكرا فى نهاية 1933 .. وكان هناك قانون " الاعتقال الاحتياطى " الذى كان بواسطته يمكن تغذية هذه المعتقلات بروادها .. لمجرد الاشتباه فى سلوكه دون أوامر من السلطات القضائية .. وامتلأت المعسكرات بعناصر من السياسيين ورجال الصحافة والمفكرين ورجال الصناعة واليهود جنبا الى جنب مع المجرمين والمظلومين فقد كان من الممكن اعتقال أحدهم وتعذيبه حتى الموت ثم يتضح بعد ذلك أنه كان هناك خطأ فى الاسم ... وكان لرجال السلطة نزواتهم الخاصة

فمن الممكن أن يعتقل أحدهم لأنه ينافس رجلا من رجال السلطة فى غرام سيدة .. أو لأن الآخر يريد أن يزيحه من طريقه ليستولى على قصره أو عزبته.. أو للحصول على فدية من أهل المعتقل أو أصدقاؤه.

ولقد أصبح لهذه المعتقلات دور هام بعد الحرب التوسعية فلقد نظمت وتولاها الحرس النازى .. بل أشد من فيهم قسوة هؤلاء الذين كان يطلق عليهم " رأس الموت " لأنهم يضعون شارة " الجمجمة والعظام " على صدورهم.

لقد قامت مجموعات رأس الموت هذه بإشاعة الذعر فى ثلاثين معسكرا كبيرا كانت لها سمعة عالمية مثل داخاو وبوخنفيلد وساشينهاوزن ورافيتر بروك وكان مخصصا للنساء وتيهاوزن فى النمسا وتربلنيكا فى بولندا .

وكانت لهذه المعسكرات قوانين خاصة أبسطها الحبس الانفرادى والتعذيب .. وكان القتل بأساليب غريبة عمل يومى يتفنن الزبانية بشكل سادى فى تنفيذه سواء بواسطة الغاز أو الدخان أو الضرب حتى الموت أو التبريد حتى التجمد أو القتل بالرصاص ولقد مات فى هذه المعسكرات وتم إهانة وتعذيب و إهدار كرامة الملايين يستوى فى ذلك الألمان والبولنديين والروس واليهود ولقد وصل التلذذ بالتعذيب بهؤلاء الوحوش الى درجة لا يمكن تصورها من إجراء التجارب الطبية على المعتقلين وقياس تأثير العوامل الجوية عليهم من برودة شديدة الى حرارة غير محتملة أو ضغط عالى أو منخفض .. ولقد وصل الإجرام بزوجة أحد قادة المعسكرات أنها كانت تختار بعض المعتقلين الذين لديهم وشم على جلودهم فتأمر بقتلهم وسلخ جلودهم ودبغها لتصنع منها أباجورات تملأ مسكنها ..

ان القصص التى رويت عن هذه المعتقلات تبعث الى التقزز من هذا الانحدار البشرى .. ولكن للأسف إن الإرهاب الروحى الذى اكتشف فاعليته هتلر وطبقه بمهارة .. هو حجر الزاوية لكل حكم فاشيستى .. لذلك فلا تزال هذه الظواهر تجد من يؤيدها ويقوم بتنفيذها .

4- المؤسسات التشريعية والقضائية

رأينا أن هتلر قد وصل الى كرسى الحكم بطرق دستورية بل .. لقد حافظ على النظام الرئاسى حتى موت هندنبرج .. وظل محافظا على الشكل البرلمانى والدستور الى نهاية حكمه ... ولكن فى أول اجتماع لهتلر بأعضاء الرايشستاج فى 24/3/1933 طلب منهم تفويضه بإصدار قرارات لها قوة القانون .. ومنذ ذلك اليوم لم يطرح على المجلس قانون واحد لمناقشته.. ولم يجتمع إلا ليستمع الى خطبة من خطب الزعيم .. وكانت عضوية المجلس تتم عن طريق قائمة يقدمها الحزب ليجرى عليها استفتاء أى بالتعيين .

يصف شيرر إحدى جلسات هذا المجلس عندما استمع أعضاؤه الى رئيسهم وهو يعلن سيطرته على المنطقة المنزوعة السلاح فى حوض الراين فيقول

" ثم يقول فى صوت عميق رنان " يا رجال الرايشستاخ الألمانى " فيعم الصمت مسيطرا على المكان " فى هذه الساعة التاريخية .. الساعة التى تعبر فيها القوات الألمانية مقاطعات الرايخ الغربية نقف جميعا متحدين وراء قسمين مقدسين " .. ويتوقف عن الحديث .. ويبدءون فى القفز صارخين هاتفين وقد ارتفعت رؤوسهم فى تحية كتحية العبيد وبانت فى وجوههم دلائل الجنون واتسعت أشداقهم ذاهلة معبرة يصرخون ويصرخون وقد اتقد لهيب التعصب فى عيونهم يتطلعون الى الاههم الجديد – المسيح الموعود .. ويؤدى هذا المسيح الموعود دوره بروعة تمثيلية فيحنى رأسه وكأنه التواضع مجسدا ويقف صابرا منتظرا منهم الصمت ... " يا لبلاغة الوصف.

أما الاستفتاءات العديدة التى كان يلجأ لها الفوهرر ليظهر أمام العالم أنه ينفذ إرادة الشعب فيكفى أن نطلع على التقرير التالى الذى أرسله أحد عملاء المخابرات لرؤسائه .

" أرفق طيه قائمة بأسماء الأشخاص الذين اقترعوا " بلا " فى استفتاء 10 أبريل 1938 أو قدموا أوراقا غير صالحة فى " كابيل " وقد تمكنا من معرفة هذه الأسماء على النحو التالى.. قام بعض أعضاء اللجان بترقيم أوراق الانتخابات و أعدت قائمة بأسماء المقترعين وكانت الأوراق توزع طبقا لترتيب أرقامها لذا فلقد بات من السهل العثور على الأسماء المقترعة " بلا " فلقد وضعت الأرقام على الأوراق بالحبر السرى " .

وهكذا لابد و أن تصبح نتائج الاستفتاء 99%

كانت هناك مقولة شائعة فى ألمانيا الهتلرية " بأن هتلر هو القانون " .. الكارثة أن من كان يردد هذه المقولة هم نجوم القضاء فى هذا البلد المنكوب .

وقد يعجب البعض لهذا التردى .. ولكن ما حدث بعد محاكمة متهمى حريق الرايشستاج للقضاة كان كافيا لأن يجعل من تبقى منهم يؤمن بصدق بأن " هتلر هو القانون " .

ولقد أيد جورنج تلك الفكرة فى اجتماع عقده لممثلى النيابة العامة " القانون و إرادة الفوهرر شئ واحد " .

أما الدكتور هانز فرانك وزير العدل فقال لجماعة المشرعين

" ان العقيدة الاشتراكية الوطنية هى قاعدة جميع القوانين الأساسية ولا سيما تلك الواضحة فى برنامج الحزب وخطب الفوهرر وليس ثمة من استقلال للقضاء عن الاشتراكية الوطنية .. عليكم دائما أن تسألوا أنفسكم عند اتخاذكم أى قرار " ترى ماذا يكون قرار الفوهرر لو كان مكانى ؟ " .

بعد ذلك أصبح الجستابو تماما كهتلر .. هو القانون مجسدا بعد أن أصدرت المحكمة الإدارية البروسية العليا عام 1935 قرارا باعتبار أوامر الجستابو و أعماله غير خاضعة للاستئناف القضائى .

كذلك صدر القانون الأساسى للجستابو فى فبراير 1936 واضعا المنظمة البوليسية فوق القانون ولم يسمح للمحاكم بأى شكل من الأشكال أن تتدخل فى أعماله أو نشاطه .

" طالما أن الشرطة تتولى تنفيذ إرادة القيادة فإنها تعمل والحالة هذه طبقا للقانون " .

ولقد حافظ هتلر على دستور الجمهورية .. فلم يصدر دستورا جديدا للرايخ ولكنه تجاهله اعتمادا على التفويض الذى صدر من رئيس الجمهورية له بعد حريق الرايشستاخ والمسمى

" مرسوم حماية الشعب والدولة " ... وعلى قانون الصلاحيات الذى أصدره أول مجلس تشريعى وتنازل فيه عن سلطاته التشريعية للحكومة .. والذى كان يتجدد العمل به آليا كل أربع سنوات بمجرد ختم من الرايشستاج .

وهكذا سنجد أن كل الإجراءات التى تمت خلال حكم الرايخ الثالث تمت بواسطة مراسيم شكلت ألوف القوانين الجديدة استنادا الى المرسوم وقانون الصلاحيات السابق ذكرهما .

لقد كان بألمانيا الهتلرية مجلس نيابى .. وكان بها محاكم و دستور .. وقوانين ولكن كل هذا فرغه الزعيم من مضمونه وظل الى آخر لحظة يمسك بجميع الخيوط بين يديه وهكـذا نجد ديموقراطية الفاشيست .

5- جهاز إعلامي وحيد قوى ومنتشر

كتب وليم شيرر فى وصف افتتاح الرايشستاخ الأول بعد تولى هتلر منصب المستشارية يقول

" وكان التاريخ الذى اختاره هتلر للاحتفال بافتتاح أول رايشستاج للرايـــخ الثالث وهو 21 مارس ذا أهمية خاصة اذ صادف الذكرى المئوية لليوم الذى افتتح فيه بسمارك أول رايشستاج فى عهد الرايخ الثانى عام 1871 .

وعندما اجتمع الماريشالات الشيوخ والفرقاء و أمراء البحر الذين خدموا فى العهد الامبراطورى فى ملابسهم العسكرية المتألقة فى كنيسة الحامية – المزار العظيم للبروسية والتى تثير فى النفوس ذكريات الأمجاد والعظمة الإمبراطورية – وفى مقدمتهم ولى العهد والمشير فون ماكنز فى بدلته الرائعة كقائد لحرس الهوسار – سيطرت على القاعة ظلال فريدريك الأكبر والمستشار الحديدى .

وتأثر رئيس الجمهورية العجوز .. ولاحظ جوبلز ... الذى كان يشرف على إخراج المسرحية ويوجه الإذاعة عن الاحتفال للأمة الألمانية – كما ذكر فى مذكراته –أن الدموع قد ترقرقت فى عينى المشير العجوز .

مشى هتلر فى لباس الصباح الرسمى الى جانب المشير الذى ارتدى ملابس الماريشالية الرمادية وقد ظهر على صدره وشاح " النسر الأسود " وحمل فى يمناه خوذة مدببة وفى يسراه عصا الماريشالية فاتجه ببطء عبر الممر فى الكنيسة ثم توقف ليؤدى التحية الى المقعد الخالى الذى كان يحتله القيصر غليوم فى الشرفة الإمبراطورية ومضى بعد ذلك الى المذبح حيث وقف أمامه وتلا خطابا قصيرا شفعه ببركاته لحكومة هتلر الجديدة ثم رد عليه هتلر بكلمة أخرى وفى نهايتها تظاهر بالخضوع العميق والإجلال للرئيس الذى كان قد قرر أن ينتزع منه قبل نهاية الأسبوع سلطانه السياسى .. فخطا الى الأمام باتجاهه ثم أحنى هامته له باحتفاء شديد و أمسك بيده وهناك وتحت أضواء الآت التصوير الخاطفة وبين طقات آلات التصوير السينمائية الخافتة التى أقامها جوبلز فى كل مكان مع مكبرات الصوت التى احتلت مراكز استراتيجية لتسجل للأمة الألمانية وللعالم بأسره الصورة الرائعة التى تمثلت فى يد المشير الألمانى العجوز قابضة على يد العريف النمساوى والتى أظهرت وحدة ألمانيا القديمة والجديدة " .

هذه صورة من صور الدعاية النازية فلنرى صورة أخرى

" أعلنت الحكومة بصورة رسمية أنها تعتبر الأول من مايو " عيدا قوميا للعمال " وإنها تستعد للاحتفال به بصورة تفوق أية احتفالات سابقة فى أعوام خلت .. وقد ذهل الزعماء النقابيون من هذا العرض المفاجئ للصداقة تجاه الطبقة العاملة من النازيين .. فتعاونوا بحماس مع الحكومة والحزب فى إنجاح هذه الاحتفالات وطار زعماء العمال الى برلين من جميع أنحاء ألمانيا وارتفعت ألوف الرايات واللافتات التى تعلن تضامن العهد النازى مع العمال وأعد جوبلز فى ميدان تمبلهوف العدة لإخراج أكبر عرض جماهيرى شهدته ألمانيا حتى ذلك الحين واستقبل الفوهرر قبيل المهرجان ممثلى العمال معلنا لهم " سوف ترون بأنفسكم مدى ما فى الادعاء بأن الثورة موجهة ضد العمال الألمان من كذب وإجحاف " .

ثم ألقى خطاب بعد ذلك أمام مائة ألف عامل ورفع شعاره

" فلنقدس العمل ونحترم العامل " . ثم وعد بأن تحتفل ألمانيا سنويا بأول مايو تكريما للعمال وعلى مدى قرون و أجيال ".

فى صباح اليوم التالى احتلت القوات النازية مكاتب النقابات فى طول البلاد وعرضها وصودرت أموالها وصدر الأمر بحلها واعتقال قادتها .. وقد ضرب عدد منهم ضربا مبرحا و زج بهم فى معسكرات الاعتقال .

بعد ذلك خطب هتلر موجها كلامه الى العمال " أيها العمال إن منظماتكم مقدسة لنا نحن معشر الوطنيين الاشتراكيين فأنا ابن فلاح فقير و أفهم معنى الفقر و أعرف جيدا معنى استغلال الرأسمالية .. أيها العمال أقسم لكم أننا لن نحافظ على كل شئ فحسب بل وسنبنى الحماية والحقوق للعمال أكثر .. و أكثر .. " .

ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى أصدر قانونا وضع حدا للمساومة الجماعية ونص على قيام وكالات عمالية يعين هو أعضاءها وتتولى تنظيم اتفاقات العمل وتحافظ على السلام العمالى .. وضع الإضراب بقوة القانون و أعاد القيادة المطلقة الى زعيم العمل الطبيعى وهو رب العمل .

من هذين المثالين يظهر لنا ما معنى الدعاية الحديثة التى ابتدعها هتلر الظهور تحت الأضواء بمظهر شديد البراءة ثم الطعن من الخلف .. تقديم الوعود .. ثم سحبها ... و أهم شئ الكذب .. والجماهير سريعة النسيان.

لقد كان هتلر يؤمن من البداية بأهمية إقناع الجماهير .. عن طريق الخطابة والملابس والإعلام والتنظيم .. وكان يدقق فى كل شئ شعار الحزب – الصليب المعقوف –وقد استعاره من أباطرة الرومان .. أعلام الدم .. وهى التى تلطخت بدم حامليها أثناء المظاهرات .. القسم الجماعى ..

وكان بارعا فى إخراج المسرحيات العاطفية المؤثرة ومنذ البداية يختار المكان الذى سيخطب فيه – توزيع الإضاءة – توزيع الصوت الألوان المحيطة .. من الذى سيسبقه ومن الذى سيليه .. طرق حفظ الأمن مسرحيات المناقشة المعدة مسبقا مع الجمهور .

وكان يستغل جميع العواطف الإنسانية , الاهتمام بالأطفال و المرضى , مداعبة السيدات والعمال , التعاطف مع الرموز .

بعد ذلك ترك التفاصيل لتلميذه النابغ جوبلز والذى استغل مواهبه الفريدة فى الخطابة وسلاطة اللسان وفن إثارة الجماهير وقدرته على التلون أفضل استغلال لفرض " الإرهاب الروحى " والذى يتلخص فى الآتى : -

- فرض الوصاية على الشعب بحيث لا يصل اليه الا ما يريد الزعيم أن يصل وبذلك منع أجهزة الإعلام الخارجية من التأثير على الشعب عن طريق مراقبة المجلات والكتب والجرائد والأفلام السينمائية والمسرحيات وكل وسائل الثقافة أو الفن .
- تركيز أدوات الإعلام والثقافة فى يد لجان حزبية تقوم بتوجيه العاملين فيها الى أساليب التوجه للشعب .
- السيطرة على التعليم حيث كان هتلر يحتقر المدارس والمدرسين كما ذكر فى " كفاحى " و إبداله بمنظمات الشباب والمنظمات العسكرية التى تربى الأجيال على الطاعة .

• التوجه الجماعى عن طريق الاحتفالات الضخمة التى تفوق فيها سواء كانت مهرجانات رياضية أو أعياد زهور أو احتفالات شباب أو عروض عسكرية .. أو عروض للأسرى وسلاح العدو وكانت كل الأجهزة والوسائل تدعم نجاح هذه المهرجانات .. الموسيقى - البالونات - الملابس - الأعلام - الملصقات -الشعارات .

• احتقار كل إبداع مهما كان إذا كان مبدعه يهودى أو من الأجناس المنحطة .. خصوصا المدارس الحديثة فى الفنون والآداب والمسرح .

• التركيز على تصرفات الفوهرر الإنسانية – كيف يأكل - يلبس – يؤدى واجبات الصداقة – يتصرف فى وقت فراغه ليظهر بشكل إنساني .

• أما على الصعيد الخارجى فلقد كان يهتم بأن تنقل أجهزة الإعلام الخارجية صورة مشرفة للنظام الجديد سواء بواسطة الأحاديث الصحفية العديدة التى كان يدعو فيها الفوهرر الصحفيين الأجانب أو بواسطة رشوة هؤلاء لكتابة ما يطلبه منهم جوبلز.

• إقامة المهرجانات العالمية " الدورة الأولمبية 1936 " فى برلين كانت فرصة ذهبية للنازى ليتركوا انطباعات ضخمة فى العالم عن مدى ما حققه الرايخ الثالث .

ولقد نجح جوبلز فى تسطيح الإنسان الألمانى وجعله ذو بعد واحد متعصب الى درجة عالية لقوميته وزعيمه مما شكل خطرا على الأجيال الصاعدة وجعل نائب المستشار فون باين ولم يكن نازيا أن يوجه له خطابا كان السبب فى طرده من الوزارة .

" ستكون المناقشات الصريحة المكشوفة التى تنطوى على الرجولة أجدى على الشعب الألمانى من هذا الوضع الراهن للصحافة الألمانية وعلى الحكومة أن تأخذ بعين الاعتبار الحكمة الألمانية القديمة القائلة " إن الضعفاء وحدهم الذين لا يستطيعون قبول النقد " . والدعاية لا تخلق عظماء الرجال .. وإذا كانت للإنسان رغبة فى الاتصال بالشعب والوحدة معه فعليه أن لا يقلل من قيمة تفهمه ولا يزدريه , وعلى المرء أن لا يترك الشعب دائما فى حالة من الارتباط بحبال الدعاية فليس فى وسع أى منظمة مهما كانت دعايتها ممتازة أن تحافظ وحدها على ثقة الشعب مدة طويلة والحفاظ على الثقة والإخلاص والولاء لا يكون بالإثارة ولا بالتهديد الذى يستخدم ضد الفئات التى لا حول لها ولا طول من الأمة .. و إنما يكون بمناقشة الأمور بصراحة مع الشعب ولا يملك شعب يعامل أفراده كما يعامل الحمقى المستكينين الثقة ليمنحها وقد حان الوقت لنتحد جميعا فى صداقة أخوية وفى احترام لجميع المواطنين ونبذل الجهد لإسكات المتعصبين المتهوسين " .

يالك من ساذج يا مستر فون باين لم تكن تدرى بعد أن هذه السياسة مقصودة للتحكم فى الشعب بعد أن يتحول بشكل قصدي الى كل الأوصاف التى تفضلت بذكرها . انه حال الفاشيست دائما .

6- جهاز دولة بيروقراطى مركزى

" وقد أحيط عملهم بمختلف القيود – وتحتم أن يملئوا مختلف النماذج مما حدا بالدكتور فونك وزير الاقتصاد عام 1938 الى الاعتراف بأن المراسلات الرسمية غدت تؤلف الآن أكثر من نصف مراسلات أى صناعى ألمانى .. و أن تجارة الصادر فى ألمانيا تضم نحوا من أربعين ألف مراسلة مفردة يوميا مع العلم بأن كل مراسلة تطلب تعبئة حوالى أربعين نموذجا "

" وهكذا وجد رجال الأعمال أنفسهم وقد دفنوا رؤوسهم بين جبال من المراسلات الرسمية المختومة بالشمع الأحمر والتى تحدد لهم الدولة فيها ما يستطيعون إنتاجه وكم يستطيعون وبأى سعر يستطيعون أن يبيعوا إنتاجهم كما وجدوا أن الضرائب قد زادت و أن الدولة تحلبهم طلبا للتبرعات المختلفة والتى لا تنتهى ... للحزب .. لمعونة الشتاء .. لدعم الإنتاج الحربى .. للترفيه .. للتنمية ... للدفاع " ...

" وحافظ النازيون على نظام الاتحادات التجارية والصناعية الكبيرة العدد ولكن أعيد تنظيمها ووضعت تحت سيطرة الدولة وأرغمت جميع المؤسسات على الانضمام الى عضوية الاتحادات التى ترأسها غرفة الرايخ الاقتصادية ويتلوها تنظيم معقد الى درجة كبيرة يصعب فهمه .. والغرفة يعين رئيسها وتقوم بالإشراف على سبع مجموعات اقتصادية قومية وثلاث وعشرين غرفة اقتصادية ومائة غرفة صناعية وتجارية وسبعين غرفة للحرف اليدوية وكان أكثر رجال الأعمال دراية ودربة وفهما يضيع وسط هذا التنظيم العويص المربك وما ينطوى على مئات المكاتب والوكالات التابعة لوزارة الاقتصاد ومشروع السنوات الأربع وشلالات المراسيم الخاصة والقوانين التى تعد بالألوف و أصبح من المحتم على أى مؤسسة إذا أرادت أن تعمل أن تستعين بالمشورة القانونية لأفراد تخصصوا فى هذا العمل وغدت أرقام الأموال التى يدفعها رجل الأعمال للعثور على السبيل المؤدى الى الموظفين المهمين الذين فى وسعهم اتخاذ القرارات التى تعتمد عليها الأوامر أو للتخلص من الأنظمة والقوانين الحكومية التى لا عدد لها ولا حصر وتلك التى تضعها الاتحادات التجارية أقرب الى الأرقام الفلكية وصفها رجل أعمال بأنه " ضرورة اقتصادية " .

ان هذا مثالا لما حدث فى قطاع من قطاعات الدولة ولنا أن نتخيل ما حدث فى مجالات الثقافة والتعليم والخدمات والزراعة والتقاضى ...فالحكومة الفاشيستية لعدم ثقتها فى الجماهير و لإحساسها بأنها الوصى الشرعى عليها .. ولتحملها مسئولية رب العائلة المسئول عن إطعام و إسكان وتدريب وتعليم وتسلية أفراد الأسرة تستبدل كل أجهزة الحكم بموظفين بيروقراطيين تتحكم بواسطتهم وعن طريق مجموعات ضخمة من اللوائح والقوانين فى تحريك البشر حسب خططها .. ونتيجة لأن الدولة الحديثة ليست محلا للبقالة يمكن السيطرة عليه .. و إنما يتطلب إدارتها مشاركة شعبية فعالة ورقابة ذاتية يكتسبها أفرادها من الحرية والديموقراطية لذلك فان الفاشيست عادة ما يواجههم التناقض بين إرادتهم الفردية فى إدارة المجتمع والواقع المركب فيقومون بتعديل القوانين واللوائح مرات عديدة كلما دعت الحالة ثم يعبدونها ويطبقونها بآلية تجعل الحياة والعمل درب من المستحيل بالنسبة للأفراد الطبيعيين .

ان حكم مبعوثى العناية الإلهية هؤلاء فى الدول المستقلة حديثا كارثة لا يمكن تصورها إلا بعد أن تتفشى آثارها من سلبية وتعقيدات مكتبية وما يتبعها من رشوة وفساد و محسوبية ففى غياب المؤسسات الديموقراطية تصبح الوسيلة الوحيدة للحياة هو الانضمام للحزب .. وشروط هذا الانضمام .. الطاعة العمياء.. فلا يتجمع فى هذا التنظيم الا كل من هو مرائى أو خانع أو ذو مصلحة .. من الحزب يمكنه أن يصبح أحد أفراد السلطة البوليسية أو الرقابية أو الحكومية.. ثم تظهر الشللية ومراكز القوى .. جورنج وهملر وجوبلز .. وكل منهم يحاول أن يشترى ولاء رجاله.. فيمنح ثروات .. أو نفوذ يؤدى الى هذه الثروات .. أو ميزات خاصة لهم .. ولكى يستطيع هذا فعليه أن يسلب الآخرين ما يمتلكون أو يستحقون بالمصادرة أو الاعتقال .. أو الابتزاز.

وفى هذا الجو الكابوسى تتضاءل سلطات الحكومة المركزية لقد كان للرايخ الثالث حكومة .. أى مجلس للوزراء .. ولكن نادرا ما كان يجتمع ... و إنما كل وزارة كانت تؤدى دورها منفصلة وبأوامر من الفوهرر شخصيا الذى كان يسير أمور الدولة بواسطة أربعة مكاتب .. مكتب الرئيس .. ومكتب المستشار ومكتب الحزب .. ومكتب مستشارية الفوهرر ومهمة المكتب الأخير رعاية شئون هتلر الشخصية والقيام ببعض المهام الخاصة التى يكلفه بها .

وكان هتلر عادة ما يعتزل لفترات طويلة يفكر فى استراحته " عش النسر " والتى أقامها فوق قمة جبل عال يطل على سهول النمسا .. فى هذا الوقت كان على الدولة أن تتوقف حتى يعود من اعتزاله حتى لو كان الأمر على أعلى درجة من الأهمية كتحريك الفرق المدرعة لصد هجوم الحلفاء فى نورماندى لقد كان روميل القائد ذو الكفاءة الخاصة لا يستطيع أن يتخذ قرارا مثل هذا لتحريك فرق تحت قيادته بدون أوامر الفوهرر المعتزل .

لقد كان هتلر مصرا على أن يحرك جميع الخيوط بواسطة مكاتبه الأربعة .. يصدر عن طريقها أوامره للوزراء ويتابع بنفسه تنفيذ كل الأمور كبيرها وصغيرها حتى لو تطلب الأمر أن يتواجد بنفسه فى كل هذه الأماكن .. لذلك فلقد كانت زيارات هتلر لمواقع العمل جزء من الروتين اليومى لحياته .. سواء كان ذلك الموقع مصنع أو مزرعة أو جمعية شبابية أو وحدة عسكرية أو افتتاح مشروع إستراتيجي... لقد كان هتلر الدينامو الأساسى والذى بدونه تتوقف الحياة وكان يعرف رؤساء الأجهزة بالاسم ويقيم أعمالهم بنفسه وما يترتب على ذلك من مكافأة أو عقاب التى قد تصل الى ربع مليون مارك أو النفى والاعتقال والموت.

يقول شيرر " وهكذا سار الحكم فى الرايخ الثالث يدار من القمة الى القاعدة على أساس ما يسمى بمبدأ القيادة وتقوم على إدارته بيروقراطية واسعة ومنتشرة لا تتمتع بشىء من الكفاءة التى اشتهر بها الألمان ومسممة بالابتزاز ومقيدة بالاضطراب السائد والمنافسة القتالية التى تغذيها تدخلات رجالات الحزب المربكة ويحيلها الى العجز إرهاب الحرس النازى والجستابو ويقوم على قمة هذا التكوم الضخم الأفاق النمساوى سابقا والرجل الذى غدا أقوى ديكتاتور على وجه البسيطة حتى أن الدكتور فرانك قال فى مؤتمر للمحامين عقد فى ربيع 1936

" هناك فى ألمانيا اليوم سلطة واحدة وليس إلا هى سلطة الفوهرر " .

حقا فلقد انتهت السلطة التشريعية الى لا شئ وتم تصفية السلطة التنفيذية الى موظفين ينفذون تعليمات علوية وحتى سلطة الكنيسة الدينية تم مسخها لتصبح هناك كنيسة جديدة هى الكنيسة النازية والتى تعلق الصليب المعقوف بدلا من الصليب العادى كما جاء فى البند 30 من تعليمات

هذه الكنيسة " تقوم الكنيسة فى يوم تأسيسها بإزالة الصلبان المسيحية من جميع الكنائس والكاتدرائيات والمعابد ويجب أن يستعاض عن هذه الصلبان بالرمز الظافر الوحيد وهو الصليب المعقوف " .

ومع ذلك فلقد كان الشعب راضيا فى البداية .. ان جهاز تشغيل القوى العاملة وجد مكانا لكل منهم .. وجهاز تحديد الأسعار سيطر على السوق .. وجهاز الإعلام والثقافة يقدم كل يوم قضية مثيرة تلهيهم.. وخطب الفوهرر تغذى لديهم نزعات التفوق والقوى .. وهكذا كان يعيش الشعب فى الرايخ الثالث ترسم له حياته أجهزة الحكم .

7- جيش له امتيازات خاصة

عندما تولى هتلر الحكم كان الجيش الألمانى محدد حجمه وتسليحه بواسطة معاهدة فرساى – مائة ألف متطوع – بدون دبابة أو طائرة أو غواصة أو أسطول .

وكانت الأصول الطبقية للنواة التى كونت هذا الجيش من الأرستقراطية الإقطاعية .. وقد احتفظت بعنجهيتها وتقاليدها و أسلوبها الذى ورثته من الجيوش القيصرية لذلك فان هتلر مع بداية صعوده لم يصطدم بهذا الجهاز بل حاول أن يضمه الى صفه أثناء صراعه مع القوى الأخرى .

وفى نفس الوقت كان يجهز له دورا خاصا فى مخطط فرض سيطرته على " المجال الحيوى " الذى حدده من قبل وكانت وسيلته لذلك منح امتيازات خاصة مادية ومعنوية لأفراده وفى نفس الوقت تجهيز جيش العاصفة الشعبي كقوة موازنة للجيش النظامى ... ثم التسلل لأجهزة الجيش بواسطة بعض كوادره الحزبية الموثوق فيها .. وأخيرا فرض إرهابه الروحى والبدنى على أفراده بعد أن يستتب له الأمر .

أى استخدام الحكمة القديمة ذهب المعز وسيفه .. الوسيلة التقليدية للحكم المطلق .

بدأ هتلر مخططه بأن أقطع عدد من قادة الجيش النظامى إقطاعيات ضخمة تصل الى آلاف الأفدنة وساعد آخرين على إنقاذ ممتلكاتهم من الديون التى تراكمت على أصحاب المزارع ومنح بعضهم امتيازات مالية وفخرية لا حدود لها .

ثم دعي الى التجنيد الإجباري مطعما الجيش بشباب تم تعليمهم وتدريبهم على الولاء للفوهرر .. وبعده انطلق فى تصنيع الأسلحة وتوسيع الجيش ليصبح 36 فرقة عسكرية .. وما تبع ذلك من زيادة عدد المشيرين والفرقاء واللواءات و أتاح الفرصة للترقى والطموح .

وعندما تأكد أن أسلحته قد بدأت تؤتى ثمارها بدأ المرحلة التالية باغتيال الفريق فون شلانجر والفريق فون بريداو بواسطة الحرس النازى والجستابو .

ثم أزاح قائد الجيش ورئيس أركانه .. عن طريق فضح الأول بعد زواجه من سكرتيرته بأن لفق لها أو أظهر ملفا فى بوليس الآداب على أساس أنها عاهر وترك مرءوسيه يتولون إزالته .. أما الآخر فقد لفق له تهمة كاذبة بأنه شاذ جنسيا.. و أجبره على الاستقالة .

أما جيش العاصفة الذى كونه ليكون قوة موازنة للجيش النظامى فقد ذبح قياداته بعد أن شهر بشذوذهم الجنسى .

وهكذا استقر النظام لقد أصبح الجيش من حيث المبدأ موالى له.. إما طمعا فى مكسب أو ترقى .. أو خوفا من الاغتيال وتلفيق التهم .

وتتالت انتصاراته احتل النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا بدون أن يطلق طلقة واحدة.. وزادت شعبيته فى الجيش مما أفقد مقاوموه قدرتهم على التحرك ضده .

بعدها بدأ تطعيم الجيش بقيادات حزبية .. سلاح الطيران يقوده المشير جورنج والمخابرات العسكرية يتولاها هملر بعد أن يكتشف داخلها مؤامرة . ومؤسساته الأخرى تغذيه بالجنود

والضباط الذين تم " زرع الروح العسكرية فيهم وما يتفرع عنها من شجاعة و إحساس بالواجب والبساطة " . كما حدد وظيفة المدرسة أو " جعل جميع شبان الألمان فى الرايخ منظمين فى شبيبة هتلر مع تدريبهم – بالإضافة الى العناية بهم فى الأسرة والمدرسة – تدريبا بدنيا وعقليا وخلقيا ضمن إطار روح الاشتراكية الوطنية " .

وهكذا كون هتلر أفراد جيشه .. قادة محنكين يرهبهم روحيا ويبتزهم من خلال مكاسبهم.. قادة سياسيين من الحزب.. شباب تم تربيتهم بشكل يتناسب مع أهدافه.... وبقى السلاح .

عندما استلم هتلر الحكم كانت البطالة المشكلة الأساسية .. حيث يوجد أكثر من ستة مليون عاطل .. ولقد بدأ يستخدمهم فى شق الطرق وعمل السكك الحديدية والخدمات اللازمة فى مقابل أن يضمن لهم وجبات ثلاث منتظمة .

وعندما استقر له الأمر وسيطر على الدولة والاقتصاد من خلال شبكته البيروقراطية .. حول جيش العمالة هذا الى الصناعات الحربية ..

" وبدت ألمانيا للمراقبين الأجانب فى أواسط حقبة الثلاثين و كأنها خلية نحل .. فعجلات المصانع تعمل ليل نهار داويه هادرة وكل إنسان يعمل و كأنه فرد من هذه الخلية " .

فى عام 1934 غدا الاقتصاد الألمانى بالكامل يعرف باسم الاقتصاد الحربى وفقا للتعبير النازى.

" وقد استهدف بصورة متعمدة العمل لا فى أوقات الحرب وحدها بل وفى أوقات السلم التى تسبق الحرب أيضا .. وقد بين الجنرال لودندورف فى كتابه " الحرب الجماعية " والذى طبع فى برلين عام 1935 على ضرورة تعبئة الاقتصاد فى البلاد على نفس الأسس الجماعية التى يقوم عليها كل شئ فى ألمانيا وذلك لإعداد الأمة إعدادا صالحا للحرب الجماعية " .

ولكن ما هى مظاهر اقتصاد الحرب ؟

فى البداية استولى على أموال المعارضين خاصة اليهود وبدأ فى استيراد الآلات والأسلحة والتكنولوجيا الحديثة بها .. ثم أصدر سندات حكومية فرضها على كل فئات الشعب بأسماء مختلفة .. سندات الحرب .. والدفاع .. والأمن .. وعن طريق التبرعات الإجبارية لتسليح الجيش والضرائب العالية أعد الجيش للحرب يقول هتلر

" وهكذا فان أسلحتنا ستمول الى حد ما من اعتمادات أعدائنا السياسيين " .

وعن طريق الخطة الرباعية استطاع هتلر أن يخفض الواردات الى أقصى درجة ويستعيض عنها بمنتجات محلية كلها من مواد خام ألمانية .. وتفجرت لذلك عبقريات غريبة استطاعت استخراج البترول من الفحم الحجرى وصناعة الكاوتش الصناعى والملابس الصناعية و إنتاج الفولاذ من الحديد المحلى ذو الخام المنخفض ... " وهكذا تمت تعبئة الاقتصاد الألمانى للحرب وغدا رجال الأعمال على الرغم من صعود أرباحهم الى أرقام خيالية مجرد " أسنان " فى العجلة الحربية " .

وهكذا كون هتلر جيشه النازى قادة .. وجنود .. وسلاح .

8- تحالف قوى الإنتاج بقيادة البيروقراطية

واجه هتلر منذ اليوم الأول لتوليه الحكم مشكلتان اقتصاديتان الأولى تدهور الزراعة بحيث انخفض إجمالي الناتج الزراعى بحوالى ألف مليون مارك عن أدنى مستوى وصل إليه بعد الحرب العالمية الأولى .. والمشكلة الثانية توقف الإنتاج الصناعى لعدم تصريف المنتجات وتعطل ستة مليون عامل .

والتزم هتلر من البداية بالوصول الى إكتفاء ذاتى فى الغذاء وإيجاد عمل لكل مواطن .. وهو الأمر الذى استدعى مركزية شديدة لإدارة الزراعة و الصناعة .. دون الاصطدام بطبقة كبار ملاك الأرض الذين لهم جذور قوية فى الجيش أو بكبار الصناعيين الذين مولوا معارك الحزب الانتخابية فضلا عن أن إعداد الجيش للحرب يتطلب غذاء وسلاح لذلك فلقد ابتكر صيغة التحالف .. بين الإقطاع والفلاحين وبين الرأسماليين والعمال والتى سنوردها بالتفصيل .

1-الزراعة .

كانت الزراعة تتم على الطريقة الإقطاعية إذ أن النبلاء " اليونكرز "كانوا يمتلكون 99% من الأرض الزراعية على هيئة اقطاعات ضخمة يعمل فيها الفلاحون بنفس صيغة العلاقة الممتدة من القرون الوسطى .. فى حين أن مليونان ونصف مليون من صغار الفلاحين كانوا يمتلكون 1 % فقط من الرقعة الزراعية و أدى هذا الوضع الى إهمال النبلاء للأرض وتراخى الفلاحون .

ولهذا .. جمع هتلر إجمالي الأرض الزراعية فى هيئة اقطاعات ومنع تجزئتها أو رهنها أو بيعها .. و تتم انتقال ملكيتها بطريقة الميراث للابن الأكبر بشرط أن يكون دمه آرى ألمانى نقى منذ عام 1800 وحتى ذلك الحين .. ثم ربط هذه الإقطاعات بمنظمة موحدة مركزية ذات صلاحيات واسعة لها قوة القانون وتشرف على جميع فروع الإنتاج الزراعى بما فى ذلك إنتاج الألبان ولحوم الماشية .. والمنظمة لها الحق فى تحديد نوع المحصول وتفاصيل النشاط الإنتاجى وتزود الإقطاعى بمستلزماته الأولية ومعدات الزراعة بالسعر الذى تحدده .. وتحصل على الإنتاج بالكامل لتوزعه بمعرفتها وبالسعر الذى تراه .

ثم ربط الفلاحين بالأرض لا يسمح لهم بالعمل فى مكان آخر وحدد لهم أجورهم والخدمات التى تؤدى لهم ثم أطلق عليهم لقب " الفلاح المشرف " .. وهو ذلك الذى يهتم بعمله و أرضه وينفذ الخطة ويسلم المنظمة المحصول المخطط من قبل فى حالة عدم استطاعته الوفاء بالتزامه تسقط عنه هذه الصفة ويصبح غير جدير بها فيطرد من الأرض وتصادر الإقطاعية وتسلم الى من يستطيع أن يحمل شرف هذا اللقب .

وهكذا تحول الفلاح والإقطاعي الى جزء من الأرض خاضع لخطة الدولة فيما يشبه القن فى العصور الوسطى .. و ارتفعت الأسعار للمنتجات الزراعية فى بادئ الأمر .. ولكن ارتفعت أيضا أسعار الخدمات والاحتياجات والضرائب والرسوم والتبرعات وبمرور الوقت عجز عدد كبير من الإقطاعيين عن إدارة مزارعهم فاستولى عليها رجال الحكم واحدة اثر أخرى بحيث أصبحوا يمثلون شريحة عريضة من الإقطاعيين .. ولعلنا نذكر أن هتلر كان يقطع كبار قواده ومقربيه إقطاعيات ضخمة من تلك التى كان يصادرها ضمانا لولائهم .

2- الصناعة .

أما الصناعة والتى كانت ملكا لمجموعة من الرأسماليين الكبار " ملوك الصناعة " .. فكانت تواجهها عقبتان الأولى تتمثل فى النزاع الحاد بين ملاك المصانع والعمال لزيادة الأجور وتحديد ساعات العمل .. والثانية هو حدة المنافسة فى السوق بحيث لم يعد لهم موقعا لقدم على المستوى المحلى والعالمى .

وكانت المشكلة الثانية هى السبب الذى حدا بملوك الصناعة الى تدبير الأموال اللازمة للحزب النازى كى يستولى على السلطة وكانت خطة الفوهرر لحلها هى أولا اللجوء الى الصناعات الحربية وثانيا فتح المجال الحيوى عن طريق استعمار عدد من الأقطار التى تمثل سوقا مناسبا للمنتجات الألمانية وهو الأمر الذى عبأ هتلر بسببه كل الشعب الألمانى وخاض من أجله حربه العالمية الثانية .

أما العمال فنحن نعلم أنه ومع توليه الحكم ألغى نقاباتهم وصادر أموالها واعتقل قادتها وحظر نشاطها .

ثم أصدر القوانين المانعة للإضراب أو الاحتجاج أو المطالبة بزيادة الأجور .. ومنع حركة العامل من مكان الى آخر إلا بتصريح .. وبذلك تحول الى رقيق صناعى مرتبط بسيده صاحب العمل تماما مثل ما حدث للمزارع .

بعد ذلك كون جبهة العمل .. وهى منظمة تضم تحالف العمال و أصحاب الأعمال .. خاضعة للدولة ووظيفتها تحديد الأجور طبقا للجنة مكونة من موظفيها و أصحاب الأعمال .. وهذه الأجور نهائية لا يمكن زيادتها حتى لو أراد صاحب العمل نفسه لاجتذاب بعض أصحاب المهن الخاصة .

وهذه المنظمة تقوم بتوزيع العمال على الوحدات الإنتاجية بحيث يمنعون من الانتقال لأعمال أخرى إلا بموافقة مكتب العمل الذى يحتفظ لكل منهم بدوسيه خاص وبطاقات عمل هى الشرط الأساسى للحصول على وظيفة .. وفى الدوسيه أو البطاقة بيانات تتضمن مهارات العامل وسابقة خبرته .. ولقد استفادت الدولة من هذه الدوسيهات فى تجنيد العمال لأعمال المجهود الحربى أثناء الحرب .. ومن كان يتغيب كان يجازى بالغرامة والسجن .

وفى ظل هذا الجو الإرهابى كان من الممكن خفض الأجور من 20.4 سنت/ساعة قبل النازى الى 19.5 سنت / ساعة ثم 16.1 ثم 13 .. فى نفس الوقت كانت هذه الأجور تخضع للتبرعات وشراء السندات والضرائب واشتراكات المنظمة والتى وصلت فى مجموعها الى ربع دخل العامل .

أما المنظمة التى تمثل " جبهة العمل " فلقد كانت وسيلة أخرى للترغيب إذ كانت تختار بعض أعضاءها وتمنحهم امتيازات خاصة للترويح والتصييف والاشتراك فى الأندية .. وهؤلاء بالطبع من الصفوة المؤمنة بالعقيدة النازية ..

لقد كانت ميزانية هذه المنظمة من اشتراكات العمال فى عام 1937 160 مليون دولار ثم 200 مليون دولار عندما نشبت الحرب .

ولكن لم يمنع هذا أن تشترك فى عملية نصب يمكن أن يعاقب عليها القانون .. وهى قصة من المناسب ذكرها لمعرفة مدى استهانة سلطات النازى بالأفراد وحقوقهم .

فلقد أصدر هتلر شخصيا أمره بصنع سيارة شعبية تباع للعمال بتسعمائة وتسعين ماركا .. ويقال أنه اشترك شخصيا فى تصميمها وتقرر لذلك بناء مصانع ضخمة لصناعتها ذات طاقة مليون ونصف مليون سيارة فى العام .. وقدمت جبهة العمل رأسمال قدره خمسون مليون مارك وطلبت من العمال دفع أقساط فى برنامج " ادفع قبل أن تأخذ " بمعدل خمس ماركات أو عشرة أو خمسة عشر أسبوعيا .. وعندما تبلغ الحصيلة 750 مارك كان فى وسعه الحصول على رقم يخول له حق استلام السيارة فور إنتاجها .. ورغم أن العمال دفعوا عشرات الملايين من الماركات إلا أنه لم يقدر لأى منهم استلام عربته فلقد تحول المصنع لصناعة سلع أكثر فائدة للجيش.

وهكذا أصبح العمال طوع بنان أصحاب الأعمال لا يجرؤن على الشكوى أو المطالبة بزيادة فى الأجر أو الإضراب أو حتى الانتقال من عمل لعمل .. تحدد لهم الجبهة أجورهم و أماكن عملهم وساعات العمل وتستقطع منهم ما تشاء وتغرر بهم بكل الوسائل الممكنة .

ولكن هل سعد أصحاب الأعمال بذلك .. لقد تحولوا هم أيضا لمجرد رؤساء عمل ينفذون تعليمات الاتحادات الصناعية التى كان يديرها أيضا بيروقراطيو الحكومة يتحكمون فيهم وفى ما ينتجون وفى أسعار المنتجات وتسويقها وموادها الخام ولا يجرؤ أى منهم على الشكوى مثلهم فى ذلك مثل العمال قيادته تماما مع فارق أن أرباحهم كانت تتزايد بصورة مذهلة لتبتلعها سندات الحكومة والضرائب والتأمينات والتبرعات .. لتدفع بها فى اتجاه تمويل الجهاد والدفاع والأمن والجستابو والعاصفة وجيش البيروقراطية ..

لقد حافظ هتلر على الرأسمالية والملكية الفردية لأدوات الإنتاج ولكنه وجهها فى طريق خدمة آلته الجبارة ..

ومع الحرب وأهمية الإنتاج الصناعى مع عجز القوى العاملة الممتصة فى القوات المسلحة رفض هتلر أن يحذو حذو إنجلترا و أمريكا وروسيا بأن يستنفر السيدات للعمل فى المصانع قائلا " إن السيدات الآريات خلقن لإنجاب الأطفال للرايخ ولا يحق لنا تلطيخهن بالعمل " .ولكنه كان لديه ملايين العبيد الذين استجلبهم من الأقطار التى غزاها .. عبأهم بطريقة لا إنسانية فى معسكرات عبودية مرعبة للعمل .. بدون أى رعاية صحية أو طعام كافي أو ملابس مناسبة او مأوى يقى من البرد الشديد .. ومات فى هذه المعسكرات مليون ونصف جوعا أو مرضا أو بردا وقسوة التشغيل .

وفى ظل هذه الظروف من الاستغلال العبودى للإنسان تحول النازيون المقربون الى رجال أعمال لهم مصانعهم الضخمة واستثماراتهم من أمثال جورنج وهملر و آخرين .

وهكذا استطاعت البرجوازية الصغيرة فى ألمانيا عن طريق حزبها النازى من السيطرة على الإقطاع الأرستقراطي والرأسمالية الصناعية والفلاحين والعمال وتسيرهم جميعا فى إطار تحالفات مصطنعة لتحقيق أهدافها التوسعية و الاقتصادية .

خـاتـمـة

وهكذا تحول الشعب الذكى النشط الدؤوب الطموح المثقف الى شعب يحيا حياة الماشية ويؤيد مضطهديه بحماس أصيل .. كما تساءل مندهشا وليم شيرر فى البداية .

و ان كان هذا يخالف الحقيقة ... فرغم طغيان القوة – التى عادة ما تحاول أن تمحوا من ذاكرة التاريخ أى مقاومة لها – إلا أنه حافظ لنا ورغما عن كل ألاعيب جوبلز مجموعة من الانتفاضات التى عارضت ثم رفضت ثم قاومت الحكم النازى .. تجدها متناثرة فى قصة ما أو مسرحية أو حدث تاريخى ...

ورغم أن الأمثلة التى سأوردها قليلة إلا أن ما خفى لابد و أن يكون أعظم .. حتى ولو لم نعرفه أبدا فإننا نشعر به من خلال ردود الفعل المعاصرة ضد الفاشيست الجدد فى طول العالم وعرضه .

- ان حركة الجيش والمثقفين التى تمت فى 20 يوليو 1944 وحاول أعضاؤها اغتيال هتلر بوضع قنبلة فى حقيبة مجاورة له فى غرفة اجتماعه مع هيئة أركان حربه .. وكادت أن تقضى عليه واحدة من هذه الانتفاضات .. أطاح بسببها الطاغية بحوالى ثلاثة آلف ضابط أطلق عليهم القلة المنحرفة .

- انتفاضة أخرى .. قام بها الطلبة فى ميونيخ احتجاجا على صفاقة الجستابو وقمعها هملر بقسوة زائدة و أعدم فيها عدد من زعماء الطلبة .

- كذلك الحركات السرية للمقاومة والتى سميت " بالأنصار " فى فرنسا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا والتى استطاع بواسطتها تيتو من تحرير يوغوسلافيا بدون أى عون خارجى .

- أما الشعب فلقد عبر عن سخطه بالرفض السلبى عن طريق تدمير أدوات الإنتاج وتبطيىء العمل .. والاستسلام الجماعى للقوات وهروب أفراد الجيش رغم تهديدات جورنج وهملر بالانتقام من أسرهم وتعذيبهم .

- كذلك هجرة العقول وتسرب العلماء والفنانين من ألمانيا مع بداية صعود الطاغية و أثناء حكمه كانت وسيلة أخرى .

أما الذين التفوا حول الفوهرر فقادهم الى حرب هلك فيها 55 مليون بشرى منهم 5 مليون من زهرة شباب الجنس الآرى فلقد كانوا إما مضللين أضعف قوة مقاومتهم بتعريضهم لحملات دعائية موجهة ومركزة مع تسطيح تعليمهم وشغلهم بالتفاهات وإثارة أحط نعرات التعصب القومى بينهم فأصبحوا خائفين من الإرهاب والمعتقلات وفقد لقمة العيش التى تحكم فى كل مجالاتها .. ففضلوا السكوت والانتظار .

أو انتهازيين وجدوا الفرصة لتسلق سلم القوة والغنى رغم إمكانياتهم المتواضعة فأحاطوه بالكذب والخيانة والفساد والجبن واستخدمهم أدوات للقهر مسلطا إياهم على الآخرين يرهبونهم.

ولكن ورغم السلطة والسلطان.. ورغم القوة والمال.. ورغم الخداع والمداهنة... ذاق الطاغية من نفس الكأس التى أذاق منها الملايين فلتقرأ ماذا قال فى نهاية الأمر .

" لقد خدعنى الجميع و أخفوا عنى الحقيقة .. لقد كذبت القوات المسلحة على "

" جورنج .. يرسل لى إنذارا نهائيا .. إنذارا وقحا .. الآن لم يبق مصيبة لم تنزل بى .. لم تبق خيبة أمل لم أذق مرارتها .. ولم يبق أحد على ولائه أو شرفه "

" لقد انتهى كل شئ لقد أمرت فورا باعتقال جورنج خائن الرايخ ونزعت منه جميع مناصبه و أقلته من جميع المنظمات التى يرأسها " .

ما أشبه اليوم بالبارحة .. إنها نفس كلمات طاغية الفلبين ماركوس ونفس انطباعات النميرى وعيدى أمين .. ونفس ما سيقوله كل طاغية تصور نفسه مبعوثا للعناية الإلهية.

ومع ذلك فما زالت الحياة تطرح كل يوم طاغية جديدا يتصور لضحالة ثقافته وسطحية أفكاره واغتراره بالقوة أنه قادر على التسلط على شعبه وتحويل شعوبا مثقفة واعية ذات حضارة الى أمة من الأغنام .

ان سقوط العريف النمساوى المحتقر للتعليم ذو الثقافة الضحلة فى ألمانيا علم 1945 بعد أن احتل أوروبا وداس أرقى حضارة بشرية فى ذلك العهد بحذائه العسكرى ... لم يصبح كافيا . فسرعان ما لحق بركبه العشرات من الطغاة الذين ضربوا عرض الحائط بكرامة الإنسان وحريته وحقه فى الحياة والتعبير وداسوا هم أيضا بأحذيتهم الثقيلة كل ما هو أصيل وحضارى وإنساني فى شعوبهم .

وقد يتصور إنسان طيب ذو أخلاق مسيحية متسامحة أن ما حدث خلال الاثنى عشر عاما من حكم هتلر لألمانيا سيكون وازعا كافيا لردع الطغاة , الذى حدث هو العكس فمما يدعو للدهشة أن الأمة التى ذاقت الأمرين على يد هتلر كانت الأمة التى استنسخت وسائله ونظامه القمعى على سكان فلسطين والأقطار المجاورة بعد اغتصابهم لها مكونين اسرائيل .. اليهود الذين كانوا هدفا لهتلر منذ اليوم الأول لعمله بالسياسة وحتى النفس الأخير .. فقد كتب فى وصيته

" و إنى لأطلب قبل كل شئ الى الحكومة والشعب التمسك بالقوانين العنصرية تمام التمسك وأن يقاوما بلا هوادة أو رحمة اليهودية العالمية التى تسمم جميع الأمم " .

ومع ذلك فهذا الذى طاردهم أينما وجدهم وصادر أموالهم واعتقلهم وعذبهم أصبح بعد ذلك مثلهم الأعلى يحذون حذوه فى شتى أنشطتهم السياسية والعسكرية والقهرية .

لقد استولوا على فلسطين بنفس طرق التآمر التى استولى بها على الحكم لقد كونوا عصابتهم الصهيونية على نمط عصابات العاصفة .

استخدموا الإرهاب الروحى والجسدى للسكان الأصليين بنفس أساليب هتلر تحدوا جيرانهم وتوسعوا على حسابهم لزيادة الرقعة المسيطر عليها بنفس طريقة المجال الحيوى النازى .

لقد حرقوا القرى وشردوا سكانها كما فعل هتلر تماما فى روسيا وفرنسا وبولندا .. بل تكاد الوسيلة تتطابق فى خطواتها وتفاصيلها .

حتى إدارة معسكرات الأسر والاعتقال تمت بطريقة الحرس النازى

ولنتذكر

أليست عملية عنتيبى تكاد تكون صورة مكررة من خطف موسولينى بعد أن انقلب عليه خدامه.

أليس الاختراق اليائس لثغرة 73 فى الحد الفاصل بين الجيش الثانى والثالث تطابق الاختراق اليائس فى الحد الفاصل بين الجيوش الإنجليزية والأمريكية عند الأردين فى نهاية الحرب .

المستمع لإذاعة إسرائيل ألا يتصور أن جوبلز هو الذى يقودها المتأمل للاقتصاد الإسرائيلي ألا يتأكد أن الدكتور شافت هو الذى يوجهه .

المتأمل لمحادثات كامب ديفيد ألا تعود به الذاكرة لمحادثات فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا فى ميونيخ والتى تم تسليم النمسا بعدها .

ان هتلر بالتأكيد هو الأستاذ الأول للدبلوماسية الإسرائيلية من حيث الإرهاب الروحى والبدنى والكذب والتضليل وخفض الروح المعنوية والاستهانة بالهيئات الدولية ... ولكننا لا نتعلم من دروس التاريخ .

والآن

فرغم أن هتلر قد رحل عن عالمنا منذ حوالى أربعين عاما الا أنه لا زال بيننا يحكم .. تراه أينما وجهت نظرك .. تراه عندما تجد شعبا مقهورا لا يمتلك روحه أو عقله أو فنه أو ثقافته أو اقتصاده أو قدرته على اتخاذ القرار تراه عندما تجد عيونا ذليلة و أصواتا متبجحة عالية و إنسانا يتلفت حوله وهو يتكلم .. تجده عندما يصبح حماس الشعب أجوف حول قضايا ضيقة .. وعندما تجد الجيوش أفرادها مختالون.. مفرغوا الروح والعقل تراه وتجده عندما تكون روح المقاومة منهزمة مفككة مرتبكة مقتنعة أن لا فائدة أمام سيل الطغيان تتذلل لتجد لنفسها مكانا ما على الأرض و تكتفى بالتآمر فى الحلقات الصغيرة .. تجده عندما يتحكم الجهاز البيروقراطى المتضخم يسوق البشر حسب إرادته ولا راد لها .

ولكن

ورغم كل الزيف.. ورغم كل القهر.. ورغم هتلر ومن صنعهم فلم يحفظ لنا التاريخ أبدا طاغية حتى النهاية ..

فلنقرأ التاريخ ان النازية والفاشستية والديكتاتورية مغرية للعقول المسطحة الضعيفة المنحلة .. وللقوى المغرقة فى الضعف ولكن رغم هذا فالعالم لا زال يمتلئ بمن يستطيع مقاومتها فقط – فلنقرأ الآن الكتاب القديم صعود وسقوط الرايخ الثالث

قراءة حديثة فى كتاب قديم

سيرة حياتى للدكتور - عبد الرحمن بدوى

مقدمة

فى كتاب من جزئين – يتصدر غلافهما صورة للدكتور بدوى تذكرنا بالتمثال الخشبى لشيخ البلد الموجود حاليا بالدور الأرضى للمتحف المصرى – أرخ الدكتور لحياته منذ أن كان فكرة مطمورة داخل والده الذى نجى من الاغتيال عام 1913 مرورا بقدومه الى الدنيا ضمن واحد وعشرين أخا و أختا عام 1917 حتى انتقل من إيران " ما قبل الانقلاب الاسلامى " الى الكويت عام 1975 تاركا خلفه كما هائلا من المخطوطات الفارسية والعربية التى كان يود تحقيقها لولا عرض الكويت السخى الذى يبلغ ثلاثة أضعاف ما كان يتقاضاه من جامعة طهران .

والدكتور بدوى يوحى لنا من سطور كتابه الأولى – وكما يحدث فى قصص الخيال العلمى – أنه بعد النصف الثانى من القرن العشرين أوتى عابث القوة أو الصدفة التى جعلته يلعب فى جينات الشعب المصرى ليحوله من شعب رقيق متحضر مهذب مضياف متعاون الى شعب آخر شرس مدمر مشوه شرير مثلما حدث لفرانكشتين .

ففى بكائية أحيا بها فن الندب المصرى المندثر نجده ينعى الأيام التى " كانت الحرية نعمة ينعم الكل بظلالها الوارفة ويطالب دائما بالمزيد و إذا بها فى العهد الجديد حكرا لفرد تحيطه عصابة"

" وكانت الكرامة من أعز ما يعتز به المصرى فصارت هدفا لكل اضطهاد "

" وكان الأمن على النفس والأموال موفورا لكل شخص فصار الخوف يقض كل فرد وكل أسرة"

" وكان النفاق مقصورا على فئة من الوصوليين وعديمى الضمير فأضحى خصلة لشعب بأسره يتنافس الجميع فى ممارستها ويتباهى بالتفوق فيها " .

وكانت الهزيمة البسيطة فى فلسطين 48 كارثة تزعزعت بسببها الثقة فى الحاكمين واذا بالهزيمة الساحقة الماحقة فى يونيو 67 تحتشد لها جماهير 9 و 10 يونيو للهتاف بحياة من تسببوا فى الهزيمة ويرقص لها ممثلوا الشعب فى مجلس الأمة ابتهاجا باستمرار المسئولين عن الهزيمة للتحضير لهزائم تالية " .

ثم ينشد أبياتا من شعر أحمد شوقى فى مطلع مسرحية مصرع كليوباترا محاولا أن يجد تفسيرا لموقف الشعب المصرى " موقف الخزى والاستسلام والخنوع المفرط "

حابى : اسمع الشعب ديون كيف يوحى إليه

ملأ الجو هتافـــا بحياتى قاتليـه

ياله من ببغـــاء عقله فى أذنيـه

ديون: سمعت كما سمعت وراعنى أن الرميّة تحتفى بالرامى .

هذا التبسيط الخطابى الذى استخدمه الدكتور بدوى للتعبير عن أفكاره يعكس اقترابا رومانسيا قلقا لأحد طلاب الدراسات العليا المجدين الذين يحاولون مراكمة الأسباب التى تخدم نتائج معدة سلفا حتى لو اضطروا للتغاضى عن بعض الحقائق أو لىّ بعضها الآخر .

شخصية الباحث هذه تتجلى فى معظم صفحات الكتاب خصوصا فى الجزء الثانى عندما كتب عن زياراته لفرنسا وإيطاليا وليبيا وإيران فوقف أمام البشر واللغة واللهجة والعادات والكنائس والجوامع والمتاحف واللوحات والتماثيل وفى بعض الأحيان الكتب والدراسات والمقالات الصحفية واصفا وناقلا من المراجع والنشرات السياحية على حد سواء . حتى أثــقل كتابه بما كان من الممكن أن يكون مفيدا لو وضع منفصلا فى مكان آخر أو إصدار آخر.

والدكتور بدوى هجاء شرس يذكرنا بشعراء العصر الأموى عندما كانوا يبالغون فى الذم على نمط ـ من علم العبد المخصى مكرمة .... ـ كما أنه مداح محترف أيضا لكل من تسبب فى استفادته وقد يكون قد مسه ـ بشكل أو آخر ـ ما انتقده فى الشعب المصرى من تشوه نفاقى.

أما الذين عاصروا تلك الفترة التى يتكلم عنها الدكتور بدوى فلم يدهشهم عنف الهجاء أو شدة المدح فقد كان هذا الأسلوب هو أسلوب ضخ الدعاية النازية والفاشستية التى تتلمذ الدكتور بدوى على نهجها منذ نعومة أظافره عندما أرسله الدكتور طه حسين الى إيطاليا الفاشية و ألمانيا النازية لدراسة لغتيهما عندما كان طالبا بكلية الآداب فعاد معجبا بموسيلينى وهتلر وجوبلز وبفلسفة نيتشه و أسلوب فاجنر فى الموسيقى وكل ما هو نازى أو فاشى .

وهكذا عندما يذكر الشاه رضا بهلوى يكتب :

" وفى ابان حكمه كان يستلهم جاره مصطفى كمال أتاتورك مؤسس تركيا العصرية المعاصرة فأراد أن يجعل من إيران دولة عصرية حديثة " ومن مميزات الشاه أنه " عمل على التقارب مع ألمانيا وخصوصا بعد أن تولى هتلر الحكم فى 30 يناير 1933 وصارت ألمانيا ذات المكانة الأولى بين الدول الأجنبية التى تتعامل مع إيران " .

أى حب هذا واعجاب برضا بهلوى ومصطفى كمال أتاتورك وهتلر وموسولينى و أى تأثر بهم بحيث جاء حواره على شاكلة حوارهم ديماجوجى ملئ بالسباب والاتهامات وتلطيخ الآخر بغض النظر عن مكانته السياسية أو الأدبية أو الفلسفية .

عبد الرحمن بدوى نازى فاشستي حتى النخاع وهو يرى فى هذا شرفا وفخارا ويدافع هو وعائلته بضراوة عن دول المحور وتنتابه أحلام يقظة رومانسية تجعله يتصور ما كان يمكن أن يحدث لو أن هتلر أو محوره قد انتصروا فى حربهم على الحلفاء .

الدكتور بدوى أحد أهم الدعاة للفكر النازى و الفاشيستى وعبادة القوة فهو الذى قدم للقارئ المصرى كل ما يتصل بالنظامين وخُطَبْ وكتب كل من قائديهما بالإضافة الى فلسفة نيتشه التى أثرت ـ كما ادعى أن ثروت عكاشة قال له ـ على جمال عبد الناصر و أنور السادات وغيرهما من الضباط .

ويبدو أن عبد الرحمن بدوى كان على وفاق مع الضباط المنقلبين فى 23 يوليو 52 حتى اصطدم بقوات عبد الحكيم عامر التى فرضت الحراسة عليه وعلى أسرته وبقرارات كمال الدين حسين التعليمية فقام بنقد نفسه نقدا ذاتيا وندم على انحيازه الى نظام الحكم الرئاسى معترفا بأن " الحق لا فارق بين النظامين الرئاسى والنازى إلا فى شخص الحاكم فقط " .

وهكذا فهو ضد عبد الناصر وعبد الحكيم ولكنه مع السادات الذى توسط له ليفرج عنه العقيد من محبسه فى ليبيا بعد أن اعتقلته ثورة الفاتح هناك لأسباب غير مفسرة .

الدكتور بدوى يؤيد السادات فى " إرساله لقوات دخلت ليبيا وتوغلت فيها حتى طبرق واستولت على معدات حربية كبيرة تركتها القوات الليبية الهاربة " .

ولكنه يصمت ويتوقف عن البيان ولا يذكر شيئا عن عبور 1973 ومبادرات السلام وذهاب السادات للقدس والاتفاق مع اليهود الذين يكرههم كره هتلر لهم ويتتبع هزائمهم وطردهم من ألمانيا وإيران ومصر حتى الـ 3500 يهودى الذين غادروا ليبيا عام 1966 .. ويفند اتهامهم للنظام النازى بحرقهم وتعذيبهم ويقدم البينات على خطل هذا الاتهام وبعده عن الحقيقة .

ومع ذلك فلعبد الرحمن بدوى بصمات على الفكر الفلسفى المصرى وعلى الساحة الثقافية خلال النصف الثانى من القرن العشرين .. فقد كان الحامل الرئيسى لراية القومية الاشتراكية النازية فى مواجهة الليبرالية التنويرية الوفدية أو الماركسية بكل روافدها أو دعاة الأصولية والعودة للجذور .

وظل أمينا على موقفه هذا حتى اندحرت الفاشية فى أوروبا فتحول الى الوجودية الفرنسية يقدمها الى الوسط الثقافى بمضمونها الفلسفى وينتقد محوليها الى موضة بما فى ذلك سارتر.

مع ظهور البترول وتضخم ثروة من أخرجوه من أرضهم تخصص الدكتور بدوى فى الفلسفة الإسلامية مع ربطها باليونانية والتى فى اعتقاده أن " الفلسفة الإسلامية هى فى الحقيقة فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية " وهكذا نجده فى الجامعات الليبية والإيرانية والكويتية واللبنانية يدرسها وفى المؤتمرات يقدم أوراقا شرحها بالتفصيل تدور دائما عن العلاقة ما بين الفلسفة الإسلامية واليونانية والتى يبدو أنها درت عليه من الأموال ما عوضه عن ما صادره عبد الحكيم عامر فتوقف عن الخوض فى السياسة وانتقاد الحكام والأنظمة الى حين واستبدلها بانتقاد الأساتذة ومنظمى المؤتمرات والمستفيدين .

(1) سنوات التعلم

عندما يكون لأب و أم أبناء وبنات يصلون الى واحد وعشرين فكيف يمكن أن ينشأ هؤلاء الأبناء .. أقصد كيف يستطيع هذا الأب أن يربيهم بمفهومنا اليوم عن التربية فضلا عن توفير أكلهم وشربهم ولبسهم وتعليمهم وسكنهم ونظافتهم حتى لو كان عمدة من الأعيان الذين يمتلكون خمسمائة فدان.

فى الغالب سينشأ هؤلاء الأبناء وقد تعودوا على الصراع الحاد ان لم يكن بسبب الاحتياجات المادية فعلى الأقل بسبب الاحتياجات العاطفية والإنسانية .

الدكتور بدوى الثامن بين اخوته ترك ليتعلم من الطبيعة وكان ذلك سببا فى رومانسيته التى صاحبته حتى سنوات عمره المتقدمة فيفرد لوصف الطبيعة الصفحات تلو الأخرى للتغنى بجمالها وتأثيرها أينما وطئت قدميه الأرض . كذلك هو فى بحث مستمر عن حنان وحب الأنثى ينجح حينا ويفشل غالبا كما حدث له فى إيران وليبيا .. الرومانسية والافتقاد للحنان والحب جعلا منه فنانا محبطا مثيرا للجدل والصراع وهو فى سبيل هذا الجدل قد يتطرف الى أقصى حد .. ولعل سرده لقصة الأرض والإصلاح الزراعى خير مثل على هذا التطرف .

فهو يرى أن شركة النيل الزراعية المؤسسة سنة 1908 لصاحبيها البلجيكى واللبنانى المارونى كانت أكثر حنانا على الفلاح المصرى من ثورة يوليو .." فالشركة نقلت ملكية ألفى فدان الى المصريين بطريقة شرعية قانونية سليمة لم يظلم فيها أحد أحدا بعد أن باعتهم إياها بالتقسيط الطويل المدى فى حين أن الثورة نهبت واغتصبت الأراضى بالمصادرة والحراسة والظلم الفادح الذى ليس بعده ظلم . فهيئة الإصلاح استولت على الأرض و أجهزة الدجل والتهريج والاتجار بالشعارات طمست الحقائق ولم يفعلوا شيئا بل خربوا ما كان قائما من قبل وصبوا سخائمهم المملوءة بالجحود على أعيان الريف وحرموا البلاد من الانتفاع بتجاربهم فانهار الإنتاج الزراعى بسبب ما سمى بالإصلاح الزراعى وانخفضت ـ كما حدد الدكتور عبد الرحمن بدوى ـ ما تغله الأرض من إنتاج ابتدأ من 1952 وحتى اليوم " . " لقد أمر به وخطط له ونفذه من لا تربطهم بالأرض الزراعية أية رابطة فكان ما كان من عواقب وخيمة حلت بالأرض الزراعية ومحصولاتها وانتاجها فى الثلاثين عاما الأخيرة " .

أما الفلاح المصرى فهو أمكر من أى مالك و " أنا أتحدى أى إنسان أن يدلنى على مالك لم يغلبه الفلاح الذى يعمل فى أرضه " وكفى دجلا وتضليلا وكذبا أيها المتجرون بقضية الفلاح طوال هذا القرن " .

التعليم أيضا انحط " والمسئولية عن هذا الانحطاط المدمر الذى أودى بالتعليم فى مصر تقع كلها على عاتق " فرسان التربية " (البيداجوجيا) الذين خربوا بمناهجهم التربوية " العلمية " المزعومة التكوين اللغوى والفكرى للتلميذ المصرى ان الكارثة التى جلبها هؤلاء " البيداجوجيا " على التعليم فى مصر أفظع من كل كارثة أصابت البلاد لأنها دمرت خير ما فيها أعنى عقول أبنائها .

اللغات العربية والأجنبية تدهورت أيضا " وعلى الرغم من الجهود التى بذلت فى مضمار الترجمة فى السنوات الخمسين الأخيرة فان ما تحقق لا يساوى واحدا على الألف مما ينبغى أن يكون قد

تحقق " " وفى الوقت الحاضر ما أتعس ما صارت اليه حال كل المكتبات ذات الكتب الأجنبية فى مصر وهى مقياس دقيق لما صارت اليه حال الثقافة بعامة فى مصر الآن" " أن الوقائع المادية والأرقام تدفع كل مكابر وتفضح أمام الملأ أولئك المسئولين عن هذه المحنة الكبرى التى نعانيها منذ ثلاثين عاما ونيف "

والسبب هو " انهيار تدريس اللغة الإنجليزية انهيارا تاما فى المدارس الثانوية فى مصر " و " انهيار فى تدريس النحو واللغة العربية هى الأخرى " .

أما الإنسان المصرى فلقد اقتنع الدكتور بدوى بعد كل ما حل به من ظلم دون أى ذنب ارتكبه " بسفالة الإنسان وحماقة تصرفاته وولعه الشديد بالقسوة على الأبرياء والخوف من الأقوياء .... ان اللؤم والخسة والنذالة والولع بالأذى " أصبحت صفات مميزة للإنسان فى رأيه .

ويستمر الدكتور بدوى فى صدمنا بآرائه الصاعقة .

فالوفد " رجال يتسمون بالجهل وقلة البضاعة من العلم والثقافة باستثناء عثمان محرم ومكرم عبيد "

والحكومة الوفدية " اقتصر عملها على التهريج السياسى وإغداق المناصب والمكاسب على الأنصار والأصهار و المحاسيب " .

وسعد زغلول له " تاريخ شائنا ينضح بالخيانة والوصولية وممالأة الإنجليز المحتلين " وزوجته صفية " بنت مصطفى فهمى الذى كانت مصر كلها تلعنه " أما أخوه فتحى زغلول فقد كان قاضى دنشواى الذى حكم ضد المصريين ومصطفى النحاس " سار على نفس النهج" واستسلم للمحتل حتى انه " كان يتباهى بصداقته الحميمة لأخس معتمد بريطانى عرفته مصر مايلز لامبسون " وكان يقول " خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز ؟ " .

بطرس غالى باشا ابرم مع كرومر اتفاقا ظالما خاص بالسودان .

أما المفكرين أمثال محمد عبده " مفتى الديار المصرية والمصلح الدينى المزعوم فقد انعقدت بينه وبين اللورد كرومر علاقة حميمة " " والإصلاح الدينى الذى يتكلمون عنه لم ير منه الدكتور إلا أن محمد عبده " حلل لبس القبعة " .

عبد الرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة فى مارس 54 استحق ما حدث له من إهانة وكان عليه " أن يتحمل وزر سلوكه لا أن يصيح مستصرخا لقد اعتدى على حرمة القضاء ".

أما أحمد حسين زعيم مصر الفتاة فهو أحمق أخرق عندما دعا الى تحطيم الحانات عنيد مستبد برأيه عندما أرسل الى هتلر وموسولينى يدعوهما لاعتناق الإسلام العقاد بلطجى سياسى " كان طول حياته مأجورا لحزب من الأحزاب .. الوفد (حتى سنة 1935) وخصوم الوفد (من سنة 35 - 38) والسعديين من (سنة 38 - 50) كما كان مأجورا لبريطانيا (طول مدة الحرب 39 - 45 على الأقل) يستخدم سلاطة لسانه وما يزعمه لنفسه من قوة عارضة فى التطاول على خصوم من يشتغل للدفاع عنهم " وهو أيضا جبان فلقد توقف عن نقده لمصر الفتاة بعد أن انهال عليه بالضرب والصفع والركل اثنان من أعضاء الحزب بناءا على نصيحة الدكتور بدوى.

" الدكتور على ابراهيم باشا كبير الجراحين فيما زعموا كان جبانا هيابا للسلطة أينما كانت ولم يكن له أى مبدأ فى السياسة بل كان انتهازيا يأكل على كل مائدة من موائد مختلف الأحزاب السياسية والسلطات البريطانية " .

الدكتور بدوى نفسه كان أيضا هيابا يعانى من " القلق النفسى العقيم المنبعث من الخوف من بطش السلطات البوليسية " بسبب انتمائه الى حزب مصر الفتاة و " من بلادة الشرطة فى مصر أنها إذا سجلت لشخص أنه ينتسب الى جماعة ما فى وقت ما فإنها تتصور أنه معها أبدا مهما تغيرت الأوضاع بالشخص " .

وهو لديه تفسيرا غريبا لشهرة زعماء ورموز البلاد العربية والإسلامية " الأمر فى كثير من أمور الشهرة فى مصر والبلاد العربية والإسلامية لقب يطلقه مخدوع أو خادع فيتردد بين الناس فى عصره وينتقل من جيل الى جيل ولا يتحقق أحد من صواب إطلاق هذا اللقب وخلع هذه الشهرة " .

آراء الدكتور بدوى الغريبة الآن لم تكن غريبة هكذا منذ نصف قرن عندما كان الدكتور لازال شابا وكان فى استطاعة أى فرد أن يناقش ويحلل وينتقد ويدين ويمجد ويتعصب دون خوف قبل أن تقوم أجهزة الإعلام الموجهة بخرط العقل المصرى وصبه فى قالب واحد ذو اتجاه محسوب لا يعرف إلا التصفيق والهتاف عن التضحية بالروح والدم وفداء القادة .

فى ذلك الزمن لم تكن التابوهات المعوقة قد تغلغلت وكان من الممكن أن يوجد تيارا يدين الوفد ورجاله وكل من أيده ـ متناسيا أى إيجابيات لهذا الحزب خلال رحلته من 1919 حتى 1952 ـ ولا يضار أصحابه أو يتم تعقبهم حتى أثناء حكم الوفد ... لذلك فلقد كان من الممكن انتقاد سعد زغلول أو مصطفى النحاس وفضح تعبيد طريق يصل الى مدخل عزبة زوجته زينب هانم دون وجل أو خوف .

بمعنى أن ليس كل ما أورده الدكتور كان صحيحا بل هو يمثل تيارا ما كان له رواده فى ذلك الزمن . أما الحقائق فلها طريق آخر لمعرفتها .

فلنتابع انطباعات الدكتور .. شيوخ الأزهر عنده " بطبعهم حاقدون يأكل الحسد قلوبهم وفى سبيل نيل أى منصب ذى شأن لا يتورعون عن استخدام أخس الوسائل من وقيعة ودس ووشاية واختراع الأكاذيب " .

وهم السبب فى وفاة سنده فى كلية الآداب الشيخ مصطفى عبد الرازق " فى أصيل يوم من فبراير 1947 بعد جلسة عاصفة لمجلس الأزهر ظهر ذلك اليوم عانى فيها الكثير من تطاول هؤلاء المشايخ عليه وسفالاتهم " .

امتدادا لهذا فان الفلسفة الإسلامية " هى فى الحقيقة فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية على حد تعبير رينان أى انه لم يكن عند الفلاسفة المسلمين إبداع حقيقى فى الفلسفة " " فهيهات هيهات أن يصل الى ما يصل اليه العقل الفلسفى الحر من كل قيد الا ما يقتضيه المنطق الفعلى المطلق من كل أساس قد يفرضه عليه أى نص " .

من الواضح أن الدكتور بدوى قد تجاوز عديد من مسلمات بيئته الأولى ويبدو أنه قد أصل فلسفة عقلانية فى مواجهة العقل الإيماني فهو يرى أن ميلاد أى كائن إنما جاء وليدا لصدفة " صدفة فى الالتقاء بين الحيوان المنوى فى الرجل والبويضة فى الأنثى " و أن من يتصور غير هذا " واهم

إذن من يظن أن ثم ترتيبا أو عناية أو غاية إنما هى أسباب عارضه يدفع بعضها بعضا فتؤدى الى إيجاد من يوجد وإعدام من يعد م " .

هذه النزعة العقلانية لديه كانت موجودة أيضا " عند طائفة من المصريين المثقفين فى فترة ما بين الحربين والفترة السابقة عليها مباشرة وتمثل أوج النزعة الليبرالية فى السياسة والدين والفكر بوجه عام " .

على الجانب الآخر افتتن الدكتور بدوى بدراسة الكتب القديمة وتحقيقها وتقديم الدراسات والبحوث عنها " لقد آليت على نفسى أن أجمع بين كلتا الطريقتين أتعمق ما استطعت فى فهم النص القديم أو الحديث و أحفره حتى أعمق أعماقه وفى الوقت نفسه أتحرر مما فيه من آراء فلا أسمح لها بأن تعوق انطلاق تفكيرى المستقل " .

والدكتور بدوى " نشأ فى وسط شديد الإعجاب بألمانيا " .وكان أهله يتمنون لها الانتصار فى الحرب العالمية الأولى ويتغنوا بانتصاراتها فى السنوات الأولى من هذه الحرب .

أما هو فيرى " أن المصريين بعامة كانوا يبتهجون لانتصارات ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ويتمنون لها النصر الأخير ".

فهو فى اعتقاده أن انتصار ألمانيا كان " السبيل الوحيد لطرد المستعمر البريطانى من مصر ولتكوين دولة قوية ذات مستوى حضارى رفيع يعيد الى مصر مكانتها الأولى من عهد الفراعنة " .

فهو قد سافر الى ميونيخ عام 1937 وتلقى محاضرات عن النازية ودرس نظام الدول فى هذا المذهب وأن اختلاط الأجناس تفسد العقول أو كما قرأ فى " أمانى القرن التاسع عشر " " إن الأجناس هى حملة تاريخ الإنسانية و أن الجنس الآرى هو المدعو لزعامة بنى الإنسان وان الألمان هم أبرز و أصلح فروع الجنس الآرى " .

كذلك قد تمعن فى " دراسة الفلسفة التى يقوم عليها هذا المذهب دراسة عميقة بدأت بكتاب " كفاحى " وتلاه كتاب أسطورة القرن العشرين " ثم حصل على النشرات الرئيسية للحزب النازى وحملها معه ليقرأها بهدوء حين عودته لمصر " .

حصيلة دراسته لهذه الفلسفة ومعايشته لنظامها وبعد أن " شاهد أدولف هتلر وهو واقف يخطب على مسافة لا تزيد عن خمسين مترا " وتأثره " بقوة الصوت وجليل الأداء " توصله الى أن ما أشاعه الغرب عن أعمال العنف ضد اليهود إنما هى أكاذيب " أذيعت فى شتى أنحاء العالم خصوصا فى أمريكا وفرنسا وإنجلترا وانه لم يكن هناك اضطهاد لليهود فى ألمانيا حتى سنة 1937 على أقل تقدير " و أن " حملات النازية على اليهود كانت جزءا من حملات النازية على من كانوا خصوم النازية فى الفترة السابقة على توليها الحكم فى 30/1/1933 فكانت اذن عملا سياسيا محضا لا تفرق بين يهودى وغير يهودى " كذلك أن " معاملة الشعب الألمانى غاية فى الأدب وحسن المعاملة والرغبة فى المساعدة ولم أشك فى أى لحظة من أى تصرف يصدر عن الألمان " .

وهو يعجب " كل العجب من وقاحة الافتراء (على الألمان) ومن غفلة من يصدقونهم ! ولكنها الوقاحة فى الكذب والسيطرة على وسائل الإعلام هما السبب الأول فى هذا الأمر العجيب "

الأخبار الخاصة باضطهاد اليهود فى اعتقاده " كلها مشوشة مبالغ فيها كل المبالغة و 99% منها ملفق مخترع لأغراض فى نفوس من اخترعها ولفقها وماذا يستطيع شعب مهزوم مغلوب على أمره ضد ما يلفق ضده ! وويل للمغلوب !! " .

منطق الدكتور عبد الرحمن بدوى الصادم الصاعق هذا كتبه فى سلسلة من المقالات فى مجلة " مصر الفتاة " فى صيف 1938 وما تلاه .. لم يكن هذا عن شجاعة فقد كان أسلوب العصر نجده فى خطب أحاديث أحمد حسين وفتحى رضوان كذلك فى كتب خالد محمد خالد " مواطنون لا رعايا "و " من هنا نبدأ " أو كتيبات سلامة موسى عن داروين ونيتشه وفرويد وانجلز وبرنارد شو .. أو مقالات أحمد بهاء الدين والتابعى و إحسان عبد القدوس أو مضابط برلمانات ذلك الزمن والتى أدت حواراتها لسجن العقاد بتهمة العيب فى الذات الملكية أو مؤتمرات أحزاب المعارضة التى كانت ذات تأثير تثقيفى شديد أو حوارات حسن البنا وتعاليمه لشباب الإخوان المسلمين ..

أقصد أن الدكتور عبد الرحمن بأحاديثه الخارجة عن أطر تفكير الجيل المعاصر هذا أعاد بعد نصف قرن إحياء منهجا نساه من صبغت أفئدتهم أجهزة إعلام السلطة فلم تعد صدورهم تتسع لمناقشة المنطق بالمنطق أو قبول الآخر.

وفى الحق لا يستطيع كاتب هذه السطور التعاطف أو تأييد ما قدمه فيلسوفنا المهاجر الا من ناحية الشكل أى حقه فى أن يقول ما لديه ويدلى بشهادته ويدافع عن رأيه مهما كان غريبا وحق الآخرين فى معرفتها ودراستها وتحليلها واعتناقها أو تعديلها أو رفضها .

والدكتور بدوى عندما سافر الى الخارج ووضع قدميه لأول مرة فى أوروبا وشاهد البارثيون اليونانى كتب " أيها البارثيون (فى اليونانية غرفة الفتيات) كم من فتيات نبيلات رائعات الجمال أقمن فيك لأداء الشعائر فى عيد الآلهة أثينا ! ولكم وددت أن أعيش فى ذلك العهد الذى مزج بين الجمال والقداسة بين الإنسانية والألوهية بين الشهوة والتقوى آنذاك كانت تستمتع كل نوازع الإنسان وتقتات كل الحواس ويتوافر على التكوين جماع العواطف والارادات .. فلا تحريمات تحد من تطلعات الجسد ولا قيود على انطلاق الغرائز " .

وهو عندما ركب القطار من روما للنمسا و " صعد فلاح يلبس حلة خضراء نظيفة ومحياه جميل جدا ببياضه وحمرته ورأيته يحمل على كتفه منجلا كبيرا - وهذا ما جعلنى أعتقد أنه فلاح - فرحت أقارن بين هذا الفلاح الفائق الجمال النظيف الثياب وبين الفلاح المصرى بوجهه المعوج وثوبه الأغبر الممزق وقلت لنفسى ان بين الفلاح النمساوى والفلاح المصرى ألف سنة من الحضارة فأنى للثانى أن يقطعها " .

علماء الاجتماع يسمون هذا بالإغمائة الحضارية التى تصيب من يرتحلون من دول العالم الثالث لأوروبا و أمريكا .. وفى الغالب هذا ما حدث للدكتور الذى كان فى دور المراهقة الفكرية والإنسانية فارتبط ارتباطا وثيقا بألمانيا النازية المبهرة لشباب ذلك الزمن لهذا فهو عندما سمع عن " أنباء الغارات الوحشية التى قامت بها الطائرات الأمريكية على ميونيخ " وكان له بها صديقة عرفها و أحبها لمدة يومين فانه كتب يناجيها من بعيد قائلا " رحماك يا يوهنا جابلر (صديقته) وكان الله معك فى هذه المحنة الرهيبة إن برابرة هذا العصر هؤلاء الأمريكيين الذى خلوا من كل وازع إنساني وخلقى يصبون على بلدك الجميل نار عذاب دونه نار الجحيم وليس فى إجرامهم هذا

أية شجاعة لأن الدفاع الجوى عن ميونيخ لم يعد له وجود وهؤلاء الجبناء قد استغلوا ذلك لتدمير ميونيخ بوصفها عاصمة الحركة النازية لا لارتباط ذلك بأى نصر عسكرى .

بودى لو كنت بجانبك أشاركك بعض هذه المحنة لكن هيهات .. هيهات ! " .

حصيلة الشاب الصغير من زيارته لألمانيا الهتلرية كانت :-

1- الاتصال بالثقافة الألمانية والطبيعة الألمانية والروح الألمانية والسياسة الألمانية اتصالا حيا عميقا جعلنى أنفذ الى الحضارة الألمانية من الباطن و أتعاطف معها عن إدراك واع و أتفاعل مع تياراتها على طول تاريخها .(أذكر القارئ أنه كان فى ألمانيا الهتلرية) .

2- عاينت أول تجربة حية للحضارة الأوربية .

3- شاهدت الغابات الكثيفة الواسعة و الجبال الشاهقة .

4- أصبحت مولعا بالموسيقى الألمانية وموسيقى رتشارد فاجنر خاصة .

5- تبلورت أفكارى السياسية حول معان أساسية هى : الوطنية النابعة من صميم الشعور بمصر ومكانتها فى الماضى وما آمله من استعادة هذه المكانة فى المستقبل القريب وكان النموذج العينى الذى ينبغى استلهامه هو ما تحاول النازية تحقيقه لوطنها ألمانيا .

ما لم يذكره فيلسوفنا فى نقاطه الخمس

أنه " تعجب من جهل نائب قنصل مصر بلغة بلد يعمل فيها منذ أكثر من عامين ومن سذاجة وتفاهة تفكيره - وهى نفس الصفات التى سترشحه ليكون ممثلا لمصر فى هيئة الأمم وسفيرا لها فى موسكو وفيما بعد سأعرف أنه لا عجب فى هذا .. فتلك حال كل من نالوا أرفع المناصب فى الخارجية المصرية " .

أما فى ايطاليا الفاشستية والتى درس فى " جامعة الأجانب " بها اللغة الايطالية و آدابها والثقافة العليا فى الشئون الايطالية . فان ما بهره هناك كان الفن والثقافة (الموسيقى والرسم والنحت والعمارة والأدب)والنساء حيث كان له مغامرات رومانتيكية ذات " سذاجة مقدسة !! " واستدعى اعجابه بالموسيقى الدينية هناك مقارنتها بالموسيقى الاسلامية فتساءل " ما أروع هذه الموسيقى ! ولماذا لم يكن للاسلام موسيقى من هذا الطراز ؟ لماذا اقتصرنا فى هذا الباب على تجويد القرآن ... " ثم يرد بعد ذلك على أسئلته قائلا " السبب فى عدم تطور الموسيقى الدينية عند الصوفية المسلمين هو نفس السبب الذى جعل الموسيقى الدنيوية فى الدول الإسلامية بدائية أعنى عدم ظهور عبقرى فى الموسيقى فى العالم الاسلامى فالحال فى الموسيقى كالحال فى الفلسفة الإسلامية : نضوب فى الإبداع " .

احتفالات الفاشيست فى المدينة التى بها جامعة الأجانب " مدينة بيروجا " والتى كان أهلها من غلاة المؤيدين للنظام ثم ما صارت إليه مدينتهم بعد ذلك عندما دخلها الحلفاء عام 1944 حيث أصبحت " مدينة حمراء أعنى شيوعية متحمسة للماركسية بنفس القدر من حماستها القديمة للفاشستية .. بل سمعت بعض أهل بيروجا يتباهون بدورهم فى المقاومة فى حين أنه لم تحدث هناك أى مقاومة " .

تكرر هذا فى فرنسا " إذ وجدت كل الفرنسيين يتباهون باشتراكهم فى المقاومة التى لم يشارك فيها فى الواقع إلا القليلون جدا جعله يرى .. " ان هذا شأن الناس فى كل مكان فى مثل هذه الظروف " .. ثم ينصح بأنه " واهم اذن كل زعيم يدعى " الشعبية " أو يصدق ما تتصيح به الجماهير نفسها التى ستصب عليه ـ أو على ذكراه ـ أبشع اللعنات حين يزول عنه هذا السلطان " .

سفرة الدكتور بدوى الأولى لأوروبا و التى " أعدها منعطفا محوريا " فى حياته صاغت اللبنات الأولى لفكره وثقافته ولاتجاهاته الفلسفية فيما بعد وأدت الى أن ينضم الى معسكر مصر الفتاة ويقوم بكتابة عدة مقالات عن " النازية مبادئها والفلسفة السياسية التى تقوم عليها وتنظيماتها الحزبية " وشرح برنامج الحزب النازى مستعينا بكتب الفريد روزنبرج وكتاب كفاحى لهتلر ورسائل صغيرة من مطبوعات الحزب .. أما الفاشستية فلقد اكتفى بترجمة مقاله طويلة لموسولينى أصبحت بعد ذلك كتاب بعنوان مذهبى .

ويفخر الدكتور بدوى فيقول " كل هذه المقالات بتوقيعى و باسمى بالكامل "

هذه المقالات وغيرها من الأفكار والفلسفات التى كانت شائعة شكلت جانبا من وعى الطبقة الوسطى لهذا الزمان وكان لصعود النازى والفاشيست السريع أثره فى أن تحذوا بعض الأحزاب حذوهما فتؤلف ميليشياتها من " القمصان الخضر " والقمصان الزرق " وجماعات الحرس الحديدى وتشكيلات الأخوان المسلمين وما شابهه حتى ما حدث ليلة 23 يوليو 52.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى أن أول إنتاج فلسفى له كان كتابه عن " نيتشه " الذى ظهر فى أكتوبر 1939 .. هذا الكتاب لاقى رواجا شديدا .. السر فى هذا الرواج " هو الحرارة والجمال فى أسلوبه والحماسة فى عرض آراء نيتشه وملائمة الظروف آنذاك ـ ظروف الانتصارات الكاسحة للجيش الألمانى ـ لقبول الفكر الألمانى الرامى الى القوة والحرب والانتصار " .

" ومن الفئات التى أقبلت بشدة على قراءة هذا الكتاب فئة ضباط الجيش الذين كانوا ذوى تطلعات سياسية ومنهم جمال عبد الناصر و أنور السادات كما صرحا مرارا لكن أشد هؤلاء الضباط حماسة للكتاب كان الضابط البطل أحمد عبد العزيز الذى فرض على طلابه فى كلية أركان حرب قراءته و أوصى أن يكتب على قبره عبارة نيتشه " لكى تجنى من الوجود أسمى ما فيه عش فى خطر " " .

عودة الى مسلسل الحقد والحاقدين على الدكتور عبد الرحمن نجد عميد كلية الآداب أحمد أمين " رجلا حقودا ضيق الأفق تأكل قلبه الغيرة من كل متفوق ومن كل متقن للغات الأجنبية لأنه كان لا يعرف لغة أجنبية فيما عدا قشور تافهة من أوليات اللغة الإنجليزية " .

ثم جميع المبعوثين لفرنسا من كلية الآداب الذين كانوا قليلى الذكاء المقرون بالكسل وعدم الرغبة فى العلم والتحصيل " وتقع مسئولية إيفادهم على عاتق من لم يحسنوا اختيار الموفدين فى البعثات ومع الأسف البالغ أن سوء الاختيار سيكون هو الطابع العام لكل من سيوفدون بعد ذلك فى بعثات الى الخارج " .

ثم أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب الذين " لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل الناس " " فتحولت هيئة التدريس الى عش للأفاعى ينهش بعضها بعضا " .

" فكان لا ينال الدرجات الشاغرة إلا من هم أخس تملقا و أدنى درجة فى العلم و أشد عجزا عن الإنتاج " .

الحقد طارده حتى عندما ذهب الى بيروت لالقاء المحاضرات سواء من اليسوعيين وعميلهم فؤاد افرام أو من " كيد الأزهريين المسلمين " فقد كانوا يقومون بالتدريس فى الكلية الشرعية " فبارت تجارتهم " ولم " يجدوا وسيلة للتخلص منه الا بالوشاية بى عند مفتى لبنان " وهم فى رأيه " أجهل من أقلتهم الأرض ؟! " كذلك فان تقارير الشرطة السرية " الكاذبة الظالمة دون تحرى الحقيقة " كادت أن توقع به الأذى .

يجمل الدكتور عبد الرحمن بدوى ما واجهه فى بيروت كاتبا :

" وهكذا أخفقت وشايات الأزهريين المصريين لدى المفتى خالد و أكاذيب تقرير الشرطة المقدم الى رياض الصلح ... "

لماذا كل هذا الحقد ؟ الأستاذ كوبريه فسره له " هذا جزاؤك لأنك ألفت كتبا ونشرتها !! إلا فلتعلم أن كل كتاب تصدره هو خنجر فى قلوب الحاسدين والحاقدين " .

وهكذا " رأيت أن الأمثل هو أن أسلك طريقى غير عابئ بأحد متخذا من الترفع بل الازدراء جهاز دفاع فعال فى هذا المحيط الوبيل وجعلت قاعدة سلوكى فى الحياة هى : امتلىء ثقة بنفسك وازدراء للحاقدين " .

(2) الدكتوراه ومذهبه الوجودى

الدكتور عبد الرحمن بدوى تجاوزت كتبه المائة والعشرين وهذا يدعوه لأن يقول " بكل فخر واعتزاز أننى حققت هذه الخطة تحقيقا كاملا "

أما هذه الخطة !! فكانت " وضعت خطة فيما استقبل من عمرى ورسمت هذه الخطة على أساس أن تسير فى ثلاثة اتجاهات الأول هو المؤلفات المبتكرة التى أعبر فيها عن مذهبى فى الفلسفة والثانى هو عرض الفكر الأوروبى على القارئ العربى والثالث هو الإسهام فى دراسة الفلسفة الإسلامية "

الدافع الى تقديم الفكر الأوروبى الى القارئ العربى هو " إحداث ثورة روحية فى الفكر العربى بالاطلاع على الفكر الأوروبى الذى استطاع أن يحقق تقدما عظيما فى الفكر الانسانى فيما تخلف العقل العربى ـ الاسلامى عن متابعة الفكر الانسانى منذ القرن الثانى عشر " .. " الدواء الناجع لتخلف العرب الفكرى هو الاستفادة من الفكر الأوروبى " .

وهكذا عندما ناقش الدكتور طه حسين رسالة الدكتوراه المقدمة من الدكتور عبد الرحمن بدوى 30 مايو 1944 قال " لأول مرة نشاهد فيلسوفا مصريا " أما باول كراوس المناقش الثانى فقال " ان الرسالة تجتاز القرون لتلحق بكبار الفلاسفة والمتكلمين فى القرون الثالث والرابع والخامس والسادس للهجرة " .

" مما زاد فى إيغار صدور الحاقدين والحاسدين "

" وهيهات أن يؤثر طنين هؤلاء الذباب فى جبل شامخ "

هذه الرسالة عن " الزمان الوجودى " وفيها " عرضت مذهبى الوجودى " و " بفضل ما كتبت عن الوجودية .. صارت الوجودية رافدا أساسيا فى تكوين غالبية المثقفين العرب على تفاوت بينهم فى مقدار فهم كل واحد منهم لها وفى تحديد موقف منها " .

بمعنى أنه مع نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط النازى والفاشيست انقلب الدكتور عبد الرحمن بدوى من الداعية لفكر نيتشه وهتلر وموسولينى الى الوجودية كما قدمها "هيدجر" ويعد إكمالا لمذهبه من عدة نواح :

أولا : تفسير الوجود على أساس الزمانية

ثانيا : وضع لوحة مقولات وفقا لها يتبقى تفسير أحوال الوجود .... يهب الفهم تفسيرا ديناميكيا للوجود القائم على ديالكتيك عاطفى و إرادي

ثالثا : فهم أحداث التاريخ فهما كيفيا

رابعا : تفسير العدم بأنه " الهوات القائمة بين الذرات ولأن الوجود منفصل وليس متصلا " .

والدكتور بدوى يفخر بأنه قد اهتم بنشر كل التراث اليونانى الفلسفى المترجم الى العربية " فحققت كل ما لأرسطو و أفلاطون ... وقمت فى هذا الباب بما لم يستطع العشرات من المستشرقين الأوروبيين مجتمعين القيام ولا بعشره " .

و أنه كتب دراسات فى الوجودية بين فيها رأيه عن :

1- أوجه التلاقى بين التصوف الاسلامى والمذهب الوجودى .

2- هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟ والتى توصل أنه من الصعب حدوث هذا لأن الوجودية تقوم على الحركة والديناميكية وهو ما يتنافى مع الثبات اللازم للقواعد .

3- فن الشعر الوجودى .

4- دراسات فى الفلسفة الوجودية وهو كتاب يشتمل على دراسات صغيرة مبسطة عن كل الفلاسفة الوجوديين .

أما سارتر فقد جعل من الوجودية اسما لموضة من الموضات الأدبية والاجتماعية فى فرنسا غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية ... " و أصابنى الغثيان من الحال الفكرية التى انحدر إليها الناس فى فرنسا " .

سارتر بالنسبة للدكتور بدوى " لم أشعر بأى تقدير (له) من الناحية الفلسفية وعددته مجرد أديب وباحث نفسى يستند الى منهج الظاهريات ولم أعتبره أبدا فيلسوفا وجوديا قد أسهم بأى إسهام يذكر فى تكوين المذهب الوجودى " .

والدكتور بدوى مصدوم فى فهم المثقفين المصريين للوجودية " فالمصرى بطبعه لا يتمعن فى أى شئ يقرأه أو يسمعه بل يصدق أي شئ ما دام الأمر لا يتعلق بمصلحته الشخصية والعجيب فى أمره أنه إذا وقر فى ذهنه أي شئ حتى أكذب الأكاذيب فانه لا يتخلى عنه بعد ذلك مهما أتيت إليه على عكسه بألف دليل ودليل ولهذا كان من المحزن حقا أن تسمع من أفواه المستشارين فى القضاء وكبار المحامين والأطباء والمهندسين نفس هذا الجهل الفاضح عن الوجودية الذى تلقاه من كتابات الصحفيين الموغلين فى أحط درجات الجهل وذلك لأنهم لا يكلفون أنفسهم عناء قراءة أي كتاب جاد فى أي موضوع خارج مهنتهم .. وهذا فى نظرى أعضل داء أصيبت به عقول المصريين فما بالك إذا انضاف الى هذا الجهل المركب العنيد الحقد الأزرق المدمر ! " .

بل هو مصدوم أيضا فى نتائج الانقلابات العسكرية التى شهدتها البلاد العربية وعلى رأسها مصر .. ان نظم الحكم الجديدة وما تسببت فيه للمثقفين وحاملى الدكتوراه تجعله يردد بيت الشعر القائل .

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه .

ان غالبية الحاصلين على الدكتوراه " اتسمت بالتطلع الى المناصب القيادية لهذا فشت فيهم نزعة قوية الى الانتهازية والنفاق السياسى ولهذا صار عدد كبير منهم وزراء أو أشباه وزراء فى العهد الأسود الذى ابتدأ خصوصا من سنة 1962 وما تلاها ولعبوا دورا قذرا لدى المخابرات ومراكز السلطة بدءا من اللجنة التحضيرية فى يناير 1962 ثم المؤتمر العام ثم السنوات التسع التى تلت ذلك والتى فيها عانت مصر من أبشع استبداد عرفته فى كل تاريخها " .

وهو يرى أن انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية كان كارثة ووبالا على مصر والعرب نفس تصوره أن انتصار النازية الفاشستية والذى " كان المصريون جميعا ـ باستثناء الخونة من أذناب الإنجليز وعملاء الشيوعية يتمنونه " .كان من الممكن " أن يخلص سوريا ولبنان من الانتداب الفرنسى وتستقل تونس والجزائر ومراكش استقلالا تاما وتتخلص مصر والعراق ودول الخليج من

الاستعمار البريطانى باختلاف أشكاله وتقتلع الصهيونية من جذورها وتمحى من الوجود وتصبح فلسطين عربية خالصة لأهلها العرب وحدهم " .

عندما يتخيل ابتسامة المتلقى من سذاجة هذه التصورات يكمل تصوره " أى مكابر يستطيع أن يجادل فى هذا ؟ " ويعدد محاسن انتصار النازى قائلا " كانت البلاد العربية قد وفرت مئات الآلاف من الأرواح وآلاف الملايين من الدولارات وحينئذ لن يجد الطغاة أية فرصة لفرض طغيانهم فكم من حكومة طاغية لم تجد ذريعة لقيامها غير الاتجار بالقضية الفلسطينية ".

ثم يوصمنا نحن القراء إذا حاولنا أن نشكك فى سلامة تصوراته قائلا " سيقول الخونة والأذناب والعملاء ببريطانيا و أمريكا وروسيا وفرنسا لكن ألمانيا كانت ستحل محل هؤلاء وسيستبدل استعمار باستعمار " .

" هذه الدعوى داحضة مضللة لأن ألمانيا كانت ستكتفى بسيطرتها على دول أوروبا ولن تحتاج الى غيرها من الدول لبسط نفوذها عليها " .

من أين لك كل هذا اليقين يا دكتور عبد الرحمن ؟

استمرارا لهذا المنطق يعزى إنشاء الأمم المتحدة الى أنها وسيلة من أجل تخدير الشعور القومى لدى الشعوب ومنعها من الكفاح العملى " بتلك المناقشات العقيمة والقرارات الهزلية التى لن ينفذ منها شئ يتعارض مع مصالح الدول الكبرى " .

وهو يعطى لذلك العديد من الأمثلة أهمها أن الحكومة البريطانية لم تجلو عن مصر إلا فى اليوم الذى حددته معاهدة سنة 1936 أى 16 يونيو 1956 رغم كل المحاولات فى الأمم المتحدة وغيرها لتقريب هذا اليوم .

عموما هذا هو منطق الفاشيست و أسلوبهم فى النقاش والعمل السياسى التركيز على نقطة واحدة من المشكلة و إصدار قرارات ... فعندما أعلن أحمد ماهر الحرب على دول المحور فى نهاية الحرب العالمية الثانية اغتاله فاشستي ثم وقف يعترف " بكل شجاعة ورباطة جأش انه هو القاتل و أنه هو وحده المسئول و أنه قام بهذا العمل دفاعا عن شرف مصر .. لأنه شعر أن إعلان مصر الحرب على ألمانيا عمل دنئ يلوث كرامة مصر .... " .

أمين عثمان أيضا عندما قال " إن العلاقة بين بريطانيا ومصر هى علاقة زواج كاثوليكي " اغتالوه .

لقد كان الشباب المصرى " خصوصا طلاب الجامعات موزعا بين تيارين التيار الدينى مجسدا فى حركة الإخوان والتيار اليسارى المتعدد الألوان .. أما التيار الليبرالى الذى كان قويا فى فترة ما بين الحربين فقد انحسر ... " وحل الفاشيست مكانه تمهيدا لأحداث يوليو 52 .

(3) يوليو 1952 وعبد الناصر

فى ربيع 1950 أنشأ الدكتور طه حسين جامعة جديدة أطلق عليها " ابراهيم باشا الكبير" ونظرا لأن جامعة فؤاد الأول فى ذلك الزمن " أضحت عشا للأفاعى وموئلا للمنافقين ومرتعا خصبا للجهال والدساسين " لذلك رحب الدكتور عبد الرحمن أن يصبح رئيسا لقسم الفلسفة والاجتماع بالجامعة الوليدة .

بعد سنوات قام ضباط من القوات المسلحة بانقلاب عسكرى وفى أوائل سبتمبر 1954 " عين كمال الدين حسين عضو مجلس الثورة وزيرا للمعارف فأحدث تغييرات واسعة المدى منها فصل سبعة وثلاثين عضوا من هيئة التدريس فى الجامعة " اشتبه أن كان لهم موقفا مؤيدا لمحمد نجيب خلال شهرى فبراير ومارس 1954 كذلك تم " وضع قانون جديد للجامعات " .

فى بداية الثورة يبدو أنه لم يكن هناك تناقضا بين الدكتور وقادة الانقلاب فقد ترقى الى درجة أستاذ كرسى رغم منافسة كل من أحمد فؤاد الأهوانى وذكى نجيب محمود له وكل منهما فى رأيه لا يرقى الى درجة المنافسة فالأهوانى كان مدرس ثانوى ثم تملق عميد كلية الآداب ببعض مقالات كافأه على إثرها بتعيينه فى قسم الفلسفة " رغم أن رسالته للدكتوراه لا شأن لها بالفلسفة بل هى فى التربية " . وذكى نجيب محمود تخرج من مدرسة المعلمين حيث لم يدرس هناك فلسفة وكل إنتاجه الأدبى " مجموعة من مقالات بسيطة فى المجلات الأدبية - تماما كما كان يفعل فى صحيفة الأهرام - مستواها لا يزيد على مستوى طالب فى المرحلة الإعدادية " . وكذلك هو عضو لجنة الدستور فى يناير 1953 (الحقوق والواجبات) . و كان عضوا فى لجنة تعديل قانون الجامعات فى مصر عام 1953 وعضوا فى لجنة الترشيح لجائزة الدولة التقديرية على الأقل حتى عام 1962. عندما رشح الدكتور محمد ثابت الفندى - وكان يطمع فى إدارة جامعة الإسكندرية - الرئيس جمال عبد الناصر لنيل الجائزة فنهر الدكتور بدوى اللجنة قائلا " كيف يتجرأ صاحب الاقتراح على أن يتطاول على رئيس الجمهورية فيزج به فى التنافس على هذه الجائزة ؟ إن هذا تطاول على مركز رئيس الجمهورية " .

وكان مستشارا ثقافيا ورئيسا للبعثة التعليمية فى سويسرا من عام 1956حتى نوفمبر 1958

ولكن بمرور الوقت بدأ التناقض بينه وبين الأجهزة البيروقراطية

" فوا عجبا لما يجرى فى الإدارات الحكومية فى مصر ! انه الإبقاء على التافه الهزيل و إبعاد المجتهد الكفء ومن هنا كانت سوق الجهل والتفاهة فى الحكومة المصرية رائجة بينما ألو الاجتهاد والعلم والكفاءة مبعدون مخذولون " .

" ولما وصل بعضهم الى كرسى الوزارة بعد ثورة يوليو نسوا كل ما نادوا به من مبادىء من قبل وتورطوا فى كل المظالم وصنوف الاستبداد وتدمير الكرامة للإنسان المصرى ولم يرتفع لواحد منهم صوت طوال تلك السنوات الرهيبة رغم ما تعرضوا له فى كرامتهم من امتهان منقطع النظير " .

" أما كيف يترقى فى المناصب الإدارية فهذا أمر ميسور فى مصر لكل من يتخذ النفاق والوصولية وسائر أساليب الاتصالات الشخصية الدنيئة وسائل له فى السلوك الاجتماعى".

وزير خارجية مصر محمود فوزى " ازددت يقينا من بلاهة هذا الرجل ... وما هو الا رجل معتوه جهول لا يدرى فى السياسة شيئا .... ثم سمعته بعد ذلك يخطب فى مجلس الأمن فسمعت شخصا عيًا غبيا لا يستطيع أن ينطق بحجة فضلا عن صوته الذى كان يموء به مواء القط المخنوق "

" وقد أطلت أكثر مما ينبغى بالنسبة لمحمود فوزى لأنه نموذج صارخ إذ ظل وزيرا للخارجية من ديسمبر 1952 حتى توليه رئاسة الوزارة فى أخريات سنة 1970 فهو أطول الوزراء عمرا فى تولى وزارة فى تاريخ مصر ـ رغم ضعفه ـ وهو ما يفسر أسباب ضعف الأداة الحكومية وضعف مركز مصر الدولى " .

سفير مصر فى باريس كمال عبد النبى ورجاله " كانوا يحلمون بهزيمة مصر (عام 56) فى بضع ساعات واعادة العلاقات مع فرنسا خلال أيام وعودتهم هم بكامل أفرادهم .. ولو خربت مصر خرابا تاما... "

ثم أن تأميم قناة السويس وحرب 56 كان لهما بالغ الأثر فى زوال " الغشاوة عن عينى وزال ما تبقى من حماسة عندى لثورة 23 يوليو و أصبحت أوقن كل الإيقان أن هذه الثورة هى أكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثمانى سنة 1517 " .

أسباب ذلك يوجزها الدكتور بدوى فى أن التأميم نفسه لا غبار عليه ولكن الطريقة التى تم بها " لقد كان امتياز شركة قناة السويس سينتهى فى 1967 فماذا كان علينا لو انتظرنا هذه الأعوام الأحد عشر ؟ " .

" لكن جمال عبد الناصر لم يكن يهمه من الأمر أية منافع اقتصادية بل كان يريد عملا سياسيا مفاجئا مثيرا يكفل له " الشهرة والدوى الأجوف العقيم حتى لو جر على مصر الخراب " .

" وقد قام بعمله هذا بمفرده دون أن يستشير أحدا من زملائه أو وزرائه ".

"وهكذا كانت وستكون كل تصرفات جمال عبد الناصر خارجيا وداخليا تصرفات حمقاء طائشة لا تحسب حسابا لأى شئ غير الدوى الأجوف العقيم حول شخصه مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر وشعب مصر ومكانة مصر فى المجتمع الدولى " .

بريطانيا وفرنسا كانا يحركان قواتهما " دون أن يعلم الملحق العسكرى فى كل من سفارتى باريس ولندن بأى شئ عن هذه التحركات لأنه مشغول فقط بالتجسس الرخيص التافه على المصريين المساكين المقيمين فى فرنسا وإنجلترا ليعرف من جلس مع من فى المقهى ومن يصاحب من من الفتيات ومن ينتقد أى شئ يجرى فى مصر الى آخر هذه الترهات التى أنفق عليها جمال عبد الناصر وزبانيته فى المخابرات الشطر الأكبر من العملة الصعبة التى فى حوزة الخزانة المصرية " .

أما أثناء المعركة فان بلاغات وزارة الحربية كانت كلها كاذبة بحيث رفضت الجرائد السويسرية نشرها " تناقض كل المناقضة تلك البرقيات الواردة " من وكالات الأنباء " فلن نضلل أحد بل سنصير أضحوكة فى نظر الناس ..."

ولقد كان الدكتور بدوى يتجرع " الغصص مرارة و أنا أشاهد فى السينما السويسرية نشرة أنباء القتال وكلها حافلة بمخازى القوات المسلحة المطارات المصرية تدمر عن آخرها بما فيها من

طائرات والضباط والجنود وهم يهربون مجردين من الملابس العسكرية و أقدامهم حافية وقائد حامية بورسعيد وهو يسلم المدينة بعد

ثلاث ساعات فقط من الهجوم ...... والقوات الإسرائيلية بقيادة موشى ديان تجتاح شبه جزيرة سيناء فى 36 ساعة فقط " .

على الجانب الآخر كانت الإذاعة المصرية تذيع أناشيد النصر " الله أكبر فوق رأس المعتدى " وكأن مصر فى عالم آخر لا تدرى شيئا عما جرى على أرضها فى سيناء و منطقة شمالى القناة " .

ويبحث الدكتور بدوى عن الأسباب فيعرف " انه بصراحة لا قبل لنا بمواجهة هذا العدوان لا فى الجو ولا على الأرض " رغم ما صرح به " قائد سلاح الطيران صدقى محمود من أن سلاح الطيران المصرى لا يزال سليما و أنه مستعد ـ وكان ذلك بعد وقف القتال ـ للقضاء على كل من تسوله نفسه العدوان على مصر ... ثم علق متى تكف عن هذه الأكاذيب الصبيانية .. " .

ويصل الفيلسوف المصرى الى أن " الهزيمة هزيمتان هزيمة مادية عسكرية و أخرى معنوية مدمرة لكياننا المعنوى والثانية أشد و أنكى لأن معناها هو أننا سنواصل التضليل والكذب على أنفسنا وعلى الشعب المصرى ولن نسعى لتلافى ما وقعنا فيه من أخطاء بل سنظل فرائس للخداع والوهم " ... " وليس ثم عامل أكثر تدميرا لمعنوية أمة من الأمم أشد من الأكاذيب لكن هذه ستكون الوسيلة التى سيعتمدها الحكام فى مصر طوال السنوات التالية " .

وبدأت القطيعة بين الدكتور و ثورة الضباط الأحرار بعد أن عاصر " النتيجة حين يجد الجد ويتوجب على القوات المسلحة المسيطرة على كل مقادير الأمور فى البلاد أن تقوم بواجبها ؟ " .

واستمر العذاب

فى مناخة طويلة عن الإنسان مهدر الحقوق والاقتصاد المتدهور والإسكان المنهار على الرؤوس والعلاقات مع البلاد العربية والإسلامية التى تحكمها القطيعة والعداوة و أدوات الثقافة الممنوعة من الدخول إلا بموافقة الرقيب مما جعل المصرى فى الخارج " هدفا لكل مظنة فاسدة ومدعاة للحذر والاحتقار " . يؤرخ الدكتور بدوى للثورة ويعلن نفوره من قراراتها خصوصا تلك التى جاءت خلال عقد الستينات . وهو موقن أن الصدفة وحدها كانت وراء نجاحها .

" لقد كانوا ثمانون ضابطا موزعين بين مختلف الأسلحة بين أكثر من عشرة آلاف ضابط... ولو أن فاروق قد حرك الحرس الملكى لكان وحده كافيا للقضاء على الحركة فى مهدها و لأنفض عن القائمين بها كل من انتسب فى الخفاء إليها .. فما بالك بالعشرة آلاف ضابط وجنودهم الذين لم يتلقوا أى أوامر بالتحرك " .

و أن هذه الثورة لم تكن فى صالح مصر رغم أنه

" كان يحكم مصر ملك فاسد ذو حاشية من الأفاقين والمتملقين والسماسرة و أن الأحزاب السياسية الرئيسية دب فيها الفساد والجبن والوصولية والنفعية بحيث لم تعد تمثل الا المنتفعين بها والقاهرة كان يحرقها الغوغاء بالجلابيب أو البنطلونات القذرة طمعا فى النهب وسلب المحلات بالإضافة الى فضائح الفساد والرشوة والمحسوبية والمعاملات الاحتيالية وعمليات النصب التى شملت كل الوزراء وكل الأحزاب " .

فساد ما قبل الثورة هذا جعل الدكتور بدوى يرحب بها ويحاول بنشاط أن يفيد بعلمه و اطلاعه رجالها متغاضيا عن بعض الهنات فبذل جهدا فى لجنة الدستور لإقرار مواد خاصة بالحقوق والحريات تجاهلها " عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة فى دستورهم الاستبدادى الذى أصدروه فى يناير 1956 " .

وأيد النظام الرئاسى " خوفا من عودة الأحزاب القديمة بمفاسدها الفاحشة فى الحكم " ولكن ما رآه من عبد الناصر وسلطاته شبه المطلقة بحيث أصبح طاغية يزيد فى طغيانه بشاعة وهولا عن أعتى الديكتاتوريين لأنه يمارس طغيانه بطريقة قانونية " جعله يندم على موقفه هذا وينقد نفسه نقدا ذاتيا وهو يضيف " وما من مستبد طاغية فى العصر الحاضر إلا و ادعى أن ما يصدره من قرارات وقوانين انما هى لـ " مصلحة الشعب " .

فباسم مصلحة الشعب صادر عبد الناصر الأموال والعقارات الزراعية والعمائر المشيدة والأسهم والسندات ثم بدد هذا كله على " مخابراته " ومغامراته المخفقة فى اليمن وسائر البلاد العربية .

وباسم مصلحة الشعب صادر حريات الناس جميعا و أنزل بهم شتى صنوف العذاب واعتقل عشرات الآلاف من الأبرياء .

وباسم مصلحة الشعب جر البلاد الى حربين مدمرتين فى 56 و 67 بسبب حماقته وخرقة تصرفاته واندفاعه الأهوج دون تبصر .

وباسم مصلحة الشعب أغلق حدود مصر على أهلها فمنع المصريين من الخروج من مصر طلبا للرزق.

والقائمة طويلة تستغرق عدة صفحات "

" فى وسط هذا الظلم والظلام الذى خيم على مصر فى عهد جمال عبد الناصر لم يكن أمامى غير البحث العلمى والإنتاج الفكرى أكب عليهما واستغرق نشاطى فيهما "

بعض هذه الكتب قصدت منها مقاومة المد اليسارى الذى فرضه عبد الناصر ومن ورائه الاتحاد السوفييتى .

فكتابى عن " المثالية الألمانية " هدفت منه مقاومة " المادية الجدلية " وكتاب " دراسات فى الفلسفة الوجودية " استهدفت منه تبسيط الوجودية حتى يفهمها عامة المثقفين ... خصوصا الحرية والفردية وهما المعنيان اللذان تحاربهما الماركسية "

" ومقالاتى عن الفلاسفة والسلام كان المقصود بها تفنيد دعوى الشيوعية فى السلام ".

" لقد استخدمت أسلوب الحكيم كما يقال فى البلاغة أو الخطاب غير المباشر إذ لم يكن فى وسعى أن أنشر فى الصحف أو أصدر كتبا تتناول الرد على المد القرمزى (الشيوعى) " .

والمد القرمزى هذا شمل جميع المرافق الثقافية ومنها جوائز الدولة التقديرية " وما صاحبها من العبث الذى نراه مهيمنا فى مصر منذ عشرات السنين وتولى المناصب العالية واقتسام العضوية فى الهيئات العلمية مما أهدر قيمة كل جائزة أو عضوية وجعل من العار على صاحب الفضل أن ينالها .... فقد صارت وسيلة وفرصة للتزلف والنفاق والعمل فى خدمة مخابرات الدولة وفى خدمة السلطة الحاكمة الظالمة وتأييد مظالمها وجرائمها ومخازيها " .

" سنة 64 وما يليها كان كفيلا بالقضاء على كل صاحب قلم يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والاشتراكية (العلمية) وما تفرع عنها من اتجاهات إذ فى سنة 64 استولى الشيوعيون على كل أدوات الإعلام فى مصر من صحافة وإذاعة ومسرح وسينما ومطابع تنتسب الى القطاع العام والهيئة العامة للكتاب وراحوا يتوزعون فيما بينهم رئاسات تحرير الصحف ....بل وزعوا مكافآت التأليف والترجمة على أنفسهم عن كتب لم يشرعوا فيها ولن يشرعوا أبدا "

أما فى التعليم فان كمال الدين حسين وزير المعارف " قرر عقد مؤتمر للمستشارين والملحقين الثقافيين ومديرى البعثات التعليمية فى سبتمبر 58 وكان من المفروض أن يكون القصد من هذا المؤتمر تبادل الرأى فى المشاكل الثقافية بين مصر والبلاد الأخرى والكشف عن النقائص واقتراح العلاج .. لكن نتيجة المؤتمر كانت على العكس تماما فالذين أوضحوا المشاكل و اقترحوا وسائل العلاج قرر وزير المعارف إعادتهم الى مصر بينما الذين لم ينطقوا بكلمة واحدة طوال عشرين يوما هم الذين أبقى عليهم فى أماكنهم بالخارج فهل هناك عبث أكبر من هذا العبث ؟ ... فيم اذن كان استدعاؤهم وتحمل تكاليف أسفارهم واقامتهم وبدلات سفرهم إذا كانت هذه هى النتيجة ؟ ان المرء ليحار كل الحيرة فى فهم تصرفات القائمين على تسيير الحكم فى مصر ان الهوى و اللا معقول والاستبداد الأحمق هى التى تحكم تصرفاتهم " .

أما فى الجامعة " كان الجو فى السنوات السبع 60 ـ 66 قد فسد فسادا لا علاج له أبدا اذ تنافس الأساتذة فى العمل بالمخابرات وكتابة التقريرات لمكتب الأمن وللمخابرات العامة و العسكرية وصارت المناصب الإدارية مدير الجامعة وكيل الجامعة عميد الكلية وكيل الكلية وفقا على عملاء المخابرات هؤلاء " .

واعتبارا من 1962 كان هناك " التنظيم السرى الذى يشرف عليه الجهاز السرى وهذا الجهاز السرى كان يشرف عليه أستاذ فى كل جامعة صار يستعين بنفر آخر من أعضاء هيئة التدريس فى كل كلية ليحكم الرقابة فى كل المواقع " .

" وبالجملة كان الجو فى الجامعة جو الجاسوسية الشاملة والارهاب المتربص والوشاية المتحفزة " .

" وكان رئيس المجلس الأعلى للجامعات وزير التعليم العالى عبد العزيز السيد جاهلا مهرجا لا مؤهل له عند صاحب السلطان إلا سرد النكات والفكاهات " .

" وكما ينهال الزوج الجريح فى عمله المفلس مما كان فى يده على أهل بيته بالتنكيل والركل والتصرفات الحمقاء الطائشة انهال جمال عبد الناصر على أهل مصر بالحراسات والاعتقالات والعزل السياسى " .

" الدكتور رشوان فهمى أول من أيد الثورة نيابة عن جمعية هيئة التدريس فى جامعة الإسكندرية يوم 23 يوليو 52 فرضت الحراسة عليه واعتقلته الشرطة لنقد خفى لجمال عبد الناصر سأل الدكتور عبد الرحمن بدوى سؤالا مباشرا .. " لكن أنت أيضا كنت مؤيدا للثورة فى بدايتها "

فرد الدكتور بدوى " كنت مؤيدا لكن بتحفظ شديد ويأس تام من أن تستقيم الأمور ... أنا يا سيدى أعرف تواريخ الثورات جيدا بحيث لا أنخدع أبدا بألفاظ رجالها ودعاواهم".

ولم ينخدع الدكتور بدوى وتفرغ للبحث العلمى وتعليم الطلاب ثم هاجر مع أول فرصة سنحت له بعد أن رأى " الفزع الهلع الجبن الخور والتملق والنفاق لدى الطبقات المثقفة فى مصر فى عهد عبد الناصر " .

القشة التى قسمت ظهر البعير و أظهرت نفور الدكتور بدوى من حكم عبد الناصر هو ما تعرض و أسرته له من ظلم على يد لجان تصفية الإقطاع وعبد الحكيم عامر وبطانته ثم يتحفنا بحكم محكمة الجنايات فى قضية تعويض عائلة الفقى عن ما حدث لهم فى كمشيش

" ان محكمة الجنايات تسجل للتاريخ ان الفترة التى جرت فيها أحداث هذه القضية المثيرة هى أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث ففيها ذبحت الحريات وديست كرامة الإنسان المصرى " .

ويصر الدكتور بدوى أن يقص علينا فى شرح واف ما كان يفعله الجلادون " فى السجن الحربى وسجن إدارة المخابرات المجاورة لقصر القبة من إطلاق الكلاب المتوحشة على المسجونين والمتهمين والنفخ فى استاهم وتوصيل خصيهم ومذاكيرهم بتيار كهربائى وصب المياه فوق رؤوسهم وتسليط الأضواء الشديدة حتى لا يغمض لهم جفن طول الليل والضرب بالسياط على ظهورهم ووجوههم وكل موضع حساس "

" حمزة البسيونى وصلاح نصر وحمزة عليش والصول روبى " أفراد من جيش إرهاب " ارتكبوا أبشع جرائم التعذيب فى حق الأبراء طول عهد حكم عبد الناصر " .

لهذا لبى الدعوة للهروب من السجن عندما دعته جامعة باريس ضمن التبادل الثقافى مع الحكومة المصرية لإلقاء محاضرات على طلاب الدراسات العليا فى قسم الفلسفة فى فبراير 67 " ووجدت فى هذه الدعوة وسيلة النجاة من هذا الكابوس الرهيب الذى كنت أعيش فيه فى مصر وعزمت على أن يكون سفرى هو الهجرة "

ومن باريس الى ليبيا ومن ليبيا الى إيران فالكويت حرص الدكتور أن يكون بعيدا عن بلده .. رغم أنه وبعد شهور قليلة

" يشاء ربك بهؤلاء الأبطال البواسل قادة معركة تصفية الإقطاع أن يصابوا بأبشع هزيمة فى تاريخ مصر أمام دويلة صغيرة طالما وصفوها بأنها عصابة من شذاذ الأفاق"

خاتمة

فى نهاية الجزء الثانى من كتابه يقدم لنا الدكتور بدوى سيرة حياة روزبهان البقلى (1129 - 1209 م) كما جاءت فى كتابه " كشف الأسرار " .

ورزبهان هذا فارسى ولد بمدينة (فسا بإقليم فارس) وتوفى فى شيراز حيث أقيم له ضريح زاره الدكتور بدوى .

روزبهان هذا يدعى أنه قد شاهد الله " بصنعه القدرة والجلال فبدا له الكون كأنه نور ساطع فياض شامل ومن مركز هذا النور جاءه نداء باللغة الفارسية سبع مرات أى روزبهان لقد اخترتك للولاية اخترتك للحب أنت ولى أنت حبيبى لا تستسلم للخوف ولا للحزن لأنى أنا ربك وسأعنى بك فى كل ما تصنع " .

ويستطرد الدكتور بدوى بطول ثلاث صفحات من سيرته الذاتية يعيرها لسيرة روزبهان الذاتية حتى يصل الى " ويختتم روزبهان كتابه بصفحة رائعة يقول فيها ما معناه ثم شاهدته .. ثم شاهدته .. ثم شاهدته عددا من المرات يستحيل على أن أحصيها.. لقد جعلنى أتجول فى الملكوت كاشفا لى الأعماق الأزلية وهى فى حالة التنزيه وكشف لى عن الجمال والجلال ثم تجلى لى بصفات الالتباس وكان كل الملائكة الكروبيين عند مقدم سرادقات الجلال وصورهم هى صور اللطف والجمال وغدائر شعورهم مثل غدائر النساء والحوريات فى ثياب أهل الجنة يفترقون ويجتمعون .... "

بمثل تلك الدراسات أثقل الدكتور بدوى كتابه متمثلا نفسه حكاء يجلس أمام ركية نار فى ليلة من ليالى شتاء عمره يسرد ما يطرأ على فكره من أخبار الزمان التى قد تترابط وقد لا تترابط الا فى كونها جزء من فلسفة حاول الدكتور بدوى تقديمها لنا ملخصا مشواره ببيت شعر من تأليفه " لم أتقنع فى حياتى مطلقا .... غير ساعات قليلات خلسة"

قراءة حديثة فى كتاب قديم

مأزق حيدر حيدر وروايته " وليمة لأعشاب البحر "

بطول سبعمائة صفحة يكشف لنا حيدر حيدر - كما كشف من قبله الطاهر وطار فى روايتيه " اللاز " و " عرس بغل " - الستار عما حدث لثورة الجزائر بعد أن انتصرت وهزمت " قوات حلف الأطلنطى " وطردت جنرالات فرنسا ليرثها من بعدهم " هؤلاء الغاصبين الذين اجتاحوا البلاد بدماء الضحايا فاقتسموا لحم الوطن وشحمه وجماله و أفراحه ورموا للفقراء وأبناء الشهداء النفايات والعظام والقبح والمـرارة ".

فالثورة الجزائرية التى ضحت بمليون شهيد " بعد أن حلمت " بامتلاك اخضرار البحر لم تقبض سوى الريح العاصف " ذلك الريح الذى أطاح بالاستقرار و أهدر دماء مئات بل آلاف الضحايا بعد ذلك أى بعد أن أنهى حيدر حيدر روايته عام 1983 فى استقراء مذهل للمستقبل كما عرفناه فيما بعد .

وليمة لأعشاب البحر رغم ما أثارته من تداعيات لا دخل لها فيها - فالغالب أن معظم من ثار عليها لم يقرأها وأن أغلب من هاجمها لم يفهمها - تظل واحدة من الروايات الحديثة التى تجاوز كاتبها فى بناءها أمراض الرواية العربية المسطحة مستكملا مسيرة بدأها حنا مينا ومن بعده جيل الستينات الجسور فى الرواية المصرية حتى صنع الله ابراهيم وفتحى امبابى .. أى مزج الحلم بالواقع وخلط الزمن للكشف من خلال اللامعقول قسوة الكابوس الجاثم على بلاد العرب سواء فى ذلك من كانوا من أهل المشرق أو من أهل المغرب .

والرواية إن كانت قد أهاجت البعض بسبب عبارات متناثرة فى صفحاتها استخرجها بعضهم عن سياقها وسلط عليها الضوء متجاهلا أن كاتبها حاول بها إظهار مدى الخبل الذى أصاب قائلها إلا أنها تطرح مسألة هامة كنا دائما ما نتغافل عنها على أمل عدم تفجير الصراع فازدادت تعقيدا .. أقصد قضية الوصاية على المبدع وحدود السقف المسموح به فى المجتمعات التى تقرأ اللغة العربية .

و لا أريد أن أقفز بالحكم و أقول أن اللوم يقع على من استخرج هذه الكلمات لمرض فى نفسه و إنما أترك هذا لما بعد العرض التالى للرواية .

انتهت الحرب العالمية الثانية وقد كان الشرق الأوسط من إيران شرقا حتى الجزائر غربا يرزح تحت ثقل استعمار أوروبى عسكرى حرص على إزاحة الهوية المحلية ليحل محلها قهر واستلاب جعل " العرب ينهشون لحم بعضهم البعض " ويغرقون فى صراعات عرقية ودينية تفرق بين مسلم سنى و آخر شيعى وبين كردى وعربى وبربرى أو قبطى شرقى ومسيحى غربى .

أو كما يذكر المؤلف على لسان بطلة روايته آسيا " قالت أسيا شيئا قابضا حول عبارة مالك حداد عن منفى اللغة .. كانت تتحدث عن الاستعمار الثقافى الأقسى والأضرى من السياسى والاقتصادى .. غرسوا فى ذاكرتنا أن المسلمين و العرب كانوا غزاة فاتحين استعمروا أسبانيا وصقلية ووصلوا

الى بواتييه .. كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ عن الإنجيل والتوراة واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم وهذا سبب تخلف العرب فى العلوم والحضارة الحديثة "

ثم يرد المؤلف على لسان بطل الرواية " هذا طبيعى انهم منطقيون ومنسجمون مع غاياتهم .. الاستعمار فى النهاية ليس العنف فقط إنما التزوير والاستلاب والقطيعة مع الأنا الجماعى " .

وهكذا مع حالة الخواء الثقافى والاستلاب الفكرى التى فرضها الاستعمار الأوروبى تميز على الساحة من إيران الى المحيط عرضا ومن البحر المتوسط الى أعماق أفريقيا طولا تيارات ثقافة ما بعد الحرب العالمية الثانية الأربعة .. بمعنى الماركسية المنتصرة بفروعها المختلفة لينينية وجيفارية وأوروبية جنبا الى جنب مع القومية الاشتراكية الفاشستية أو النازية المنهزمة فى مواجهة الأصولية الدينية بكل تنويعاتها والليبرالية الأوروبية المبنية على الديموقراطية البرلمانية .

هذه التيارات الأربعة هى المحور الأساسى الذى شكل بناء الرواية التى نحن بصددها فحيدر حيدر شأنه فى ذلك مثل كل من عانى من عذاب السجن السياسى أبى إلا أن يكشف عن ذلك الوجه القبيح الذى فرضته " فرق من الحرس القومى واستخبارات الجيش والمباحث التى بدأت فى مداهمة الأوكار والبيوت والأحياء التى تتركز داخلها خلايا الحزب .. دمهم اليوم مباح من يستسلم ينجو بالاعتقال ومن يقاوم يقتل وبالمنشورات والإذاعة ترتفع الكلمات : العراق للقومية العربية وليس لعملاء موسكو .. فليأخذ حذرا كل من يلجئ إرهابيا أحمر " .

كأننا نقرأ لفخرى لبيب فى مصر أو لكاتب آخر فى إيران أو السودان أو أى بقعة نختارها عشوائيا فى شرقنا الأوسط .

حيدر حيدر اختار أن يكون بطل روايته شيوعيا عراقيا فى اللحظة التى انهار فيها الحزب الشيوعى العراقى وقد كان هو وزميله حزب السودان من أقوى الأحزاب الشيوعية فى العالم العربى تأثيرا وتنظيما فأضاعهما التنظير الخروشوتشيفى والخاص " بضرورة الاعتماد على نظام عبد السلام عارف وغض الطرف عن طبيعته وتكوينه السياسى " ... " كما سيصف التقرير نظام عبد الناصر فى مصر بأنه حركة تقدمية تاريخية وهذه الحركة ستشمل العالم العربى بأسره ولابد لها أن تشمل العراق بتيارها الجارف " .

ومن موسكو حرض الأب الروحى خروشوف العزيز قيادة الحزب على حل الحزب الشيوعى العراقى أسوة بالحزب فى مصر والدخول فى الاتحاد الاشتراكى العربى مركز جذب القوى الثورية كما سيسميه بوجكاريف فى النيوتايمس السوفيتانية " .

وينقسم الشيوعيون فى العراق الى فرق متنافرة ترمى واحدة منهم بتسعة مناضلين الى الأهوار فيختلط لدى الكاتب الواقع بالأسطورة بالمثل العليا فى علاقة سريالية تربط بين اللاجئين الى الأهوار تقليدا لجيفارا وهوشي منه وبين نضال " الخوارج والشيعة ثم الزنج والقرامطة وثورة العشرين " فى مواجهة قهر الخلفاء فالملوك فرجال السلطة المدججين بالمدفعية وطائرات الهليكوبتر المسلحة .. علاقة تذكرنا " بالمسيح يصلب من جديد " ونقاء كزانزاكى وحلمه بالمثل العليا المهدرة دائما أمام واقع إغراء السلطة والقوة .

فى معركة الأهوار يسقط ثمانية رجال ويفر التاسع الى بلد المليون شهيد عسى أن يجد العزاء ..

ولكنه هناك يقابل بطل القصة " مهدى جواد " الذى غير اسمه وزور جواز سفره وارتمى منهكا على الشاطئ الصخرى لمدينة " جميلة مطوقة بالبحر والغابات ولكنها كأى مدينة عربية كانت متوحشة محكومة بالإرهاب والجوع والسمسرة والدين والحقد والجهل والقسوة والقتل " .

فى المدينة الجزائرية " بونه " التى تكره الغرباء " يواجه الماركسيان الأنماط الثقافية التى خلفها الاستعمار الغربى فى أشكالها البدائية والمركبة فصاحبة الدار التى يسكن لديها الهارب الأول " مهيار الباهلى " كان لها ثلاثة وجوه " الوجه الأول وجه المناضلة والثانى وجه العاهرة والثالث وجه الأم " .

صاحبة الدار فلة بوعناب التى اغتال عفافها الفرنسيون انضمت للثوار فى الجبل ليستخدمها الهاربون فى تسكين غرائزهم .. ثم تسافر الى سوريا ومصر مع وفد لجبهة التحرير فيغرر بها مخرجا سينمائيا واعدا إياها ببطولة فيلمه جميلة بوحريد من أجل إعادة اغتيال عفافها .. ثم تدمن الشرقيين فتستضيف دائما فى منزلها الذى اشتراه لها عشيقها الوزير أحد الغرباء فلسطيني - سورى - مصرى - عراقى تضاجعه و تطعمه وتغويه فى بعض الأحيان من أجل إيجار تعيش منه .

فله بوعناب " من مناضلة مفعمة بالحيوية والأمل الى مومس خط أحمر موشى بلون النار يصب فى الأسود : الوطن وخارج مشيئتها وقعت فى فخ جسدها تلك هى الموهبة المركزية بعد أن تتحرر البلاد من غاصبيها غير أن فلة بوعناب تتوهم أنها مسكونة بمواهب أخرى غير موهبة فتح ساقيها تقول : هم قتلوا مواهبى الأخرى وركزوا على موهبة التأوه والصراخ الجنسى أليس هذا هو الاستعمار الحقيقى ؟ ثم تستطرد ما الذى فعله الكولون الفرنسى إلا هذا ... قتل كل مواهب الجزائر ووضعها عبده بين فخذيه لخدمة نزواته "

بمرارة تتحدث عن الوطن الذى امتهن بعد الثورة " وطن الوزراء والضباط والعائلات والمراتب الحزبية العليا والمخابرات والحلاليف والتجار واللصوص " .

هل يرمز حيدر حيدر بفله بوعناب لجبهة التحرير التى قادت الثورة أم هو إحباط الزمن الردىء الذى أنبت بعد ذلك قوى الفاشيست التى عاثت فسادا فى الجزائر بالإرهاب والاغتيال " لثورة المليون شهيد التى اغتالها العسكر والتجار فى النهاية".

النموذج الثانى هو عائلة " لالافضيلة " وزوجها الشهيد سى العربى ثم يزيد ولد الحاج وابنتهما أسيا بالخضر والصغرى منار .

ولالافضيلة رغم أنها غير متعلمة إلا أنها تريد لبناتها أن يكن متعلمات لذا فهى ليبرالية وكان لها صمودها الوطنى أيام الاحتلال عندما جاء جنوده للتفتيش عن سى العربى فضللتهم لاخفاء أعلام جبهة التحرير التى تعدها تحت أمها المقعدة الجالسة على كرسى متحرك . كذلك هى تقص ما حدث لأخيها الذى هرب ثلاث مرات من معتقليه وقتل خمسة منهم و استولى على بنادقهم لصالح الجبهة ... لهذا فهى تشعر بأنها شاركت فى حرب التحرير وقدمت زوجها سى العربى فداء وهى بهذا تشعر بالقوة التى تجعلها لا تجد مشكلة فى أن تمارس بنتيها حياتهما بالتعلم والسباحة ومصادقة الرجال والنزهة بالقوارب وان كانت تعانى من تمزق بين حياتها مع سى العربى ثم حياتها مع يزيد المتزوج غيرها ويمتلك تجارة واسعة وله علاقات برجال السلطة ولديه أموال جمعها من السوق السوداء ولم يشارك بدينار منها لدعم الجبهة أو الثورة .

يزيد هذا ضد الاشتراكية التى يقدمها بومدين ويكره بن بيلا الأحمر ويخاف على أمواله من العمال والأجراء .. ويحافظ على شرفه بأن يجبر البنات على عدم التأخر ليلا .

لالافضيلة تردد كل هذا بإيمان يوازى إيمانها بالثورة أيام كانت زوجة لسى العربى فيما عدا ما يتصل ببنتيها فهى تحاول تخفيف سلطته عليهما .

منار التى لا تتقن اللغة العربية ولا تريد أن تتعلمها وتنتمى قلبا وقالبا لجدتها الفرنسية الجيل الجديد من الليبرالية فهى " تصهل فى السهوب بلا حواجز فى البيت أو المدينة وفى ملاعب التنس مع صديقاتها اللاتى أطلقن عليها اسم المهرة البرية " " تكسر القواعد فتتأخر فى العودة وتتدرب على الرقص وتمارس الرياضة والزوارق الشراعية .. وتحلم باليوم الذى تنهى فيه دراستها الثانوية لتهاجر الى باريس قاذفة بهذه " البونة" العربية الموبوءة الى الجحيم " .

الفتاة الأخرى عكس أختها ترغب فى تعلم اللغة العربية وإجادتها وهى لذلك تلتقى ببطل الرواية الهارب من العراق ليعمل مدرسا للغة العربية من أجل أن تتقن لغة الأجداد ـ بنى هلال ـ الذين استوطنوا " البونة " حتى جاء الفرنسيون فمسحوا اللغة والهوية .

أسيا بالخضر كانت من الجماعة التى اختارت التعريب طريقا للمستقبل والانتماء للعرب بالرغم من نفورها من سلوكياتهم وممارستهم اليومية .. فهى ترغب أيضا مثل أختها أن تتعلم وتعمل وتمارس حقوقها وان كانت تصبو دائما للاستقرار والبيت والعائلة والهجرة بعيدا عن مدينتهم ... الغريب القادم من الشرق كان له دور " فعلى هامش الدرس الخاص كانت الفتاة تطرح أسئلة عامة ذكية حينا وطفولية حينا آخر أسئلة تتراوح بين الشخصى والعام بين العقل والفطرة سيول من الأسئلة الغريبة .. ما الفرق بين العرب والإسلام ؟ هل الأنبياء مرسلون حقا من الآلهة أم خرجوا من الأرض ؟ كيف كلم الله موسى ؟ هل عرج محمد فعلا الى السماء ؟ .. ما رأيك بتحرير المرأة !! .. هل تهوى المغامرة فى الحياة ؟ .

أسئلة قدمها المؤلف كما لو كان التى يعلمها فتاة باريسية تتحسس خطاها فى طريقها الى الإيمان بالله وبرسالة الإسلام وليست فتاة جزائرية عربية من أحفاد بنى هلال .. فالمسلمة فى أى مكان لن تسأل مثل هذه الأسئلة لأنها جزء من نسيجها الفكرى والثقافى تتعلمها منذ نعومة أظافرها ... أما أسيا بالخضر " فالفرنسية كانت منفانا جميعا نحن العرب الجزائريين " وهى بتحرر الجزائر تعود من المنفى .

" لقد أقبلت أسيا بالخضر فى العصور المندحرة وهاهى ذى تغرب أسيرة هذه العصور كغيرها تجتاحها الرياح السوداء تخطف روحها البيضاء البروق السحرية التى تشق الأبناء من الآباء والزوجات عن الأزواج والرفاق من رفاقهم والبحر عن شواطئه ..

ولكن لماذا خلعت هذه الأرض الملعونة غزاتها الخارجين ليغطى جلدها الغزاة الداخليون ؟ " .

هكذا يقول " مهيار الباهلى " الهارب من جحيم الأهوار بالعراق .. " ذو الجسد النحيل والوجه الحاد المحروق والمقطب موج من الأعصاب المتوترة قيد الإطلاق ".

مهيار هذا كما يقدمه حيدر حيدر أحد الرومانسيين الشيوعيين الذى قاوم انهيار الحزب العراقى باللجوء الى الأهوار ... ثم الهرب الى الجزائر على أمل أن يجد هناك نسخ لتجربة جيفارا فى جبال السيرامستيرا ولكنه وجد فله بوعناب فأصابته لوثة جعلته يجدف بكل المسلمات .. العروبة الدين ..

الشيوعية .. إمكانية خلاص الإنسان .. جدوى القيم العليا .. هذا البائس هو السبب فى العبارات التى اجتزئها من لم يفهم سبب وجودها وبات يشعل الفتن حول العمل الفنى ومن أصدره أو وزعه أو كان سببا فى انتشاره .

ولن استطرد فى طرح ما قاله هذا الملتاث ـ أقصد مهيار الباهلى ـ كما حرص المؤلف دائما على وصفه " وكان أن ابتدأ الباهلى أراجيفه الذكريات والتحليلات و أحلام العظمة ووهم قيادة التاريخ خرجت من سقف التأمل وكهوف الكتب المتراصة فى أدراج تلافيف دماغه " .

فقد انتهى به الأمر الى الجنون المطلق .

الشيوعى الآخر الفار من قهر سلطات العراق " مهدى جواد " كان دائما ما يحدث نفسه أو يكتب فى مذكراته " ستنفق أيها السيد التافه كما تنفق الحشرات الضارة قبل أن تنتقل الى وضع الهجوم المعاكس " .

" وآنذاك على الجسر وفى الساحة ومنذ هبط من الرحم جاءته الأشباح السوداء والزمان الأسود والقلب الأسود والكلاب السوداء ولم يأت القتل الجميل الأبيض " .

وذهب الى حجرته لينتحر يقطع شرايينه عسى أن يقابل الموت الجميل الأبيض يأس ما بعده يأس يذكرنا بصنع الله إبراهيم وقصصه الأولى .. تحول الشاب الذى كان دائما ما يحتفظ فى جيبه بموسى يفتح نصلها بمهارة ويستخدمها فى القتال الى بائس يستخدم نفس الموسى للتخلص من حياته .. ما الذى أحدث هذا الانقلاب .. هل هو التعذيب بالضرب والكى واطلاق الكهرباء فى أعضاءه التناسلية .. أم الغربة التى تسبب فيها زبانية الحكم العسكرى العراقى واضطرته للهرب الى الجزائر أم الغربة الداخلية وعدم القدرة على التواصل مع الآخرين أم هو حب يائس لزهرة نضرة فى بداية تفتحها وجدها فى تلك المدينة الكئيبة ويخاف عليها من هول ما يحيطها " الرقابة الخرقاء على السلوك ومن فظاظة التخلف وانحطاط العلاقات المضادة لرغائب الانسان المشروعة " .

فالحاج محمد الذى زار قبر النبى ثلاث مرات افتعل معه صراعا كادت أن تكون هى ضحيته بسبب دروس اللغة العربية الى كان يدرسها لها فى حجرته وحاول تلطيخها لدى البوليس حتى يجد المبرر لطرده من المكان فيؤجره لفرنسى بثلاثة أضعاف الأجر.

والبوليس الوطنى " تعمقت كراهيته أكثر من وحشيته إزاء البشر الذين لم يكن ليرى فيهم أكثر من عصاه أو حيوانات شرسة خارجة عن القانون ومنتهكة لحرمة الأخلاق .

والغيلان فى الشوارع يمنعونهما بألسنتهم والقيل والقال من إعلان ما بينهما من علاقات وهى مترددة من الاجهار مراعاة لما سوف يصيب لالافضيلة أمها من يزيد زوجها الجديد .

أسيا نفسها ترى أن " الرجال ماتوا والخنازير تأكل الوطن هذه بلادنا " فماذا يفعل غريب لاجئ ضعيف مسحوق إلا أن يغادر .

" فى العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لا يوجد غير النهب والقتل والأكاذيب الحكام العرب يا خالة لالا حلاليف وطغاة وأعداء لشعوبهم هؤلاء يتحدثون عن الاشتراكية كما يتحدث الحاج محمد عن الدين ولكن كما الدين برئ من الحاج كذلك الاشتراكية بريئة من حكامنا " .

هكذا رد على سؤال لالافضيلة عندما سألته عن الاشتراكية فى العراق بعد أن سودها لها زوجها يزيد خوفا على أمواله من التأميم .

وفى " كثرة الفهم كثرة الغم " ومع كثرة الغم تصبح الحياة لا قيمة لها ولا تستحق أن تعاش .. هل استمر مهدى جواد على هذا الغم ؟

ان التقاءه الحميم بأسيا بالخضر غيره تماما .. فهو بعد أن أنقذوه من الموت وعرفت بذلك فاتنته التقيا

" وبعيدا عن الاتساق الجنسى كان يبدو عليها من خلال العطب الداخلى أنهما غريبان عن عالم " بونة " الراسى فى مرافئ السكينة والاسترخاء والماضى " .

لذلك هو يحدثها " عن تحطيم الأوثان التى أقامها الأباء والأجداد وضرورة الانفصال عن الدين والله والأخلاق والتقاليد والأزمنة الموحلة والجنة والجحيم الخرافيين وطاعة أولى الأمر والوالدين والزواج المبارك بالشرع وسائر الأكاذيب والطقوس التى رسمها دهور الكذب " .

وهكذا يتحول الماركسى المناضل فى أهوار العراق الى وجودى أوروبى تالف من أنصار كولن ولسن و " أنظر خلفك بغضب وابصق " يحطم كل ما هو قائم من أجل أن يبنى على الأنقاض عالم جديد أكثر صدقا .. لتكن صدمته التالية خيبة " حصان أتعبه الركض ليحوز قصب السبق فإذا به فى مؤخرة الجياد " .

ويغنى ثم يرقص ويسكر حتى الثمالة .. ويخرج مع أصدقائه للسباحة ليلا بعد شرب النبيذ والبيرة وتبادل ألفاظا سوقية ما أنزل الله بها من سلطان.. إن حيدر حيدر يقدم لنا بالصوت والصورة ما حدث للمناضلين الماركسيين المحبطين فى طول المنطقة وعرضها فى إيران والعراق وسوريا ومصر والسودان والجزائر وسائر البلاد التى كان بها ماركسيون ... أنبهار .. انبهار بالنظرية انبهار انبهار بتطبيقاتها اللينينيه والمادية ثم هوشى منه وجيفارا وانتهاء بالأحزاب الشيوعية فى إيطاليا وفرنسا وعندما لا تعمل التميمة سحرها بفعل جنرالات الانقلابات العسكرية يتحول الماركسي الى عدمى والبداية دائما أن يقنع امرأة مسكينة تعانى من الاضطهاد المزدوج بأن النضال هو تحطيم الأوثان .. لتكتشف أنها ما حطمت إلا نفسها عندما يعود ليراجع كل نظرياته ويهجرها.

القومية الاشتراكية الفاشية تتبدى فى فصلى نشيد الموت وظهور اللوياثان .. وفى فقرات من الفصل الأخير .

أما تلك القطعة الأدبية المذهلة فى جمالها والتى أعتقد أنها كتبت خارج سياق الرواية ثم أضيفت لها .. فهى لوحة من لوحات كاندنسكى السريالية ذات التعبير الذى لا ينسى عن ذلك العقل الشرقى " الذى استوطنته الأساطير والخرافات البدائية " فى رأيه " القادر على خلق وتطوير وإنشاء الطاغية فى محاولة دائمة من الشرق " لتجديد أساطيره وحكاياته السحرية " .

والطاغية الذى يقدمه لنا حيدر حيدر سماه عبيد الله بن أبى ضبيعة الكلى تبدأ " أسطورته فى التكوين والتبلور والامتداد على مدى ربع قرن من الزمن يتداول الناس خلالها معجزات وخوارق هذه الهبة السماوية التى لا تولد إلا مرة واحدة كل ألف من الأعوام " .

ويحكى أنه قد نسجت حوله القصص والحكايات عن يوم مولده وكيف نكست أعلام ملوك الدنيا فى ذلك اليوم وكيف جاءه من نقاه أو عمده وقال له " أنت خير البشر فطوبى لمن اتبعك والويل لمن تخلف عنك ... "

وكيف أشيع فى بدايات حكمه أنه " وريثا لقوة وسطوة البارى فى الأرض الى أن يقضى الله بك أمرا كان مكتوبا " .

ثم كيف دارت الأيام وأتت أزمنة مهلكة وكان قد ألقى " فى روعه من خلال أحلام الجنون الوردية أنه وريث الفرسان القدامى الذين انتصروا فى القادسية وحطين ودقوا أبواب بواتييه " .. ثم كيف هزم جنوده أمام الأعداء فى أول تجربة حرب " وسيعود جنوده الناجون مشتتين محطمين ومعفرين بالغبار والدم والعار " فتأتى " سنوات عجاف سنوات الظلمة والمسوخية والهوان والجوع والجرب والجراد والجنون سنوات المقتلة " .

عن من يتكلم حيدر حيدر هل يصف ما حدث لموسولينى ثم هتلر أم يقصد نابليون أو ستالين .. فى الغالب يقصد ملوك المغول والتتار انه اللوياثان كما جاء فى الكتب القديمة والحديثة .

و أخيرا ... بطل رواية حيدر حيدر يقول عن نفسه " لكننى ملحد كما تعرفين الشرف والبكارة و أخلاق المسلمين فى مؤخرتى من عشرات الأعوام " .

أخص .. أخص .. أخص يا مهدى ..

عندما بدأنا نكتب حذرنا الذين تعاطوا هذه الحرفة قبلنا من التابوهات الثلاثة الجنس .. السياسة .. الدين وبترتيب خطورتهم بمعنى أنه يمكن التسامح فى الجنس جزئيا فى السياسة ولكن لا تسامح مع الدين .

ولكن عندما نضجنا أكثر واستطعنا أن نتخطى عقبة اللغة وقرأنا ديستيوفسكى و أندريه جيد وجابرييل جارسيا ماركيز صدمنا بالكسر المثلث للتابوه ولم نتأثر أو تتغير مفاهيمنا .. وعندما جاءتنا روايات محمد شكرى وحنان الشيخ والماغوط .. ثم عبد الرحمن منيف وغالب هلسا وجدنا أن كل منهم قد كسر تابوه ما فإذا أضفنا الطاهر وطار وعبد الوهاب البياتى وصنع الله إبراهيم نجد أن هناك رواية حديثة تشكلت بعد أن طرد كل منهم الرقيب من عقله ليبدع .. أما حيدر حيدر فلسوء حظه أنه تعدى الخط الأحمر لقد ضرب التابوهات الثلاث وكان من الممكن أن يظل سرا بين المثقفين كعادتهم يقرءون لبعضهم بعضا ولا يزيد .. ولكن لسبب بنفس يعقوب أشعلت النار ونفخ فى الكور لتزيد التهابا والآن لقد وضعنا حيدر حيدر أمام معضلة طالما التففنا حولها متجاهلين هل نترك للكاتب حرية مطلقة يعبر فيها عن رأيه أو حتى هواجسه وكوابيسه أم نضع فى رأسه رقيبا يمنع ويزجر ويوقف أى تدفق يمس التابوهات الثلاث .

اين تقف ؟ مع حرية التعبير حتى لو اختلفنا مع صاحبه أو مع الضوابط والسدود .

فى الغرب لم يحد هناك إلا المحدود من السدود سواء فى الكتابة أو السينما أو المسرح أو وسائل الإبداع الأخرى فانطلقت الأفكار السوية والمريضة المبهرة الأصيلة والمقلدة الممجوجة وعلى الإنسان أن يختار أما فى الشرق فلازال طائر الإبداع فى قفصه يرتعد من ترسانة القوانين ثم نعجب لماذا لم نحصل إلا على جائزة " نوبل " وحيدة .

رواية وليمة لأعشاب البحر عمل فنى من النوع الحديث الذى يستخدم فيه المؤلف كل الأدوات الممكنة بما فى ذلك الخطب السياسية والمنشورات المحرضة لأشخاص بؤساء يعيشون محنة الشرق العربى والمغرب العربى من أقصاه فى العراق الى أقصاه فى الجزائر وهم أمام الظلم والطغيان واللامعقول يتصرفون فى بعض الأحيان بشكل سريالي

حتى أثناء أفراحهم واحتفالهم ولكن لازال هناك من يحاول اختراق الطبقات الصلبة المحبطة يتبدى فى الأجيال الحديثة التى لم تشهد مأساة البداية وتحتار بين العروبة والغرب .

قد نتفق أو نختلف مع أفكار المؤلف وبالتأكيد سوف نختلف مع بعض التحليلات أو النتائج ولكن يبقى للمؤلف شرف المحاولة و أمانة التسجيل.

قراءة حديثة فى كتاب قديم

سمير مرقص " الحماية والعقاب "الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط

التقيت بالأستاذ سمير مرقص عدة مرات فى مركز الفسطاط للدراسات حيث كان يشارك فى الندوات أو الدراسات التى يقوم بها المركز .. ولفت نظرى أنه كان دائما ما يغلب عليه الصمت يستمع بعمق وفهم للآخرين وإذا تكلم فليغير دفة الحديث بملحوظة ذكية أو تعليق يظهر جانبا خفيا من المشكلة فيكسب الحوار حيوية ودفئا .

وكنت أعجب من هذا الصمت وتلك النظرة الحزينة حتى قرأت له كتاب " الحماية والعقاب "الصادر من ميريت للنشر والمعلومات " فى بدايات عام 2000 فجاء كأبلغ تعبير عن هموم مواطن مصرى عاشق لوطنه يرى المخاطر محيطة به من الخارج والداخل ولا يملك إلا أن يصمت .

" وهكذا يجد الأقباط أنفسهم أمام واقع متناقض.. تناقض بين ما يقال ومعلن وبين ما يمارس عمليا.. تناقض بين ما هو منصوص عليه ويتضمن قيما إيجابية اختبرت تاريخيا وبين تطبيقات مخالفة حاليا .. تناقض بين توقعاته فى ضوء الخبرة التاريخية والتراث المصرى لوحدة الجماعة المصرية وبين ما يراه أمامه على أرض الواقع . ان الأقباط يصبحون فى النهاية أمام أمرين .. إما التواجد والمشاركة واستكمال المسيرة الوطنية مما يعنى الاصطدام وبين الانسحاب حفاظا على وحدة الجماعة وسلامتها فنجده يؤثر الانسحاب " .

و آثر سمير مرقص الصمت .. !! ولا أقول الانسحاب .

إن الذكاء والشجاعة التى يواجه بهما المؤلف واقعنا الغير مفهوم تهمنا جميعا , تهم المسلم والقبطى تهم الأصولى أو العلمانى بمعنى آخر كيف يحدث هذا بيننا ولا نتحرك لمواجهته كما سنتابع من خلال الكتاب الهام الذى بين أيدينا .

من هم الأقباط ؟ سؤال يطرحه المؤلف ثم يجيب عليه

" انه بمراجعة مضمون ما يثار حول الأقباط نكتشف أن هناك إخفاقا فى فهم الأقباط ومن ثم الطروحات التى تبنى على الفهم الخاطئ ... فنجد من ينطلق فى تناوله لهم من أرضية أنهم

(ذمة ـ ملة) وعليه يعيد طرح قانونية وضعهم السياسى (الطائفيون) وهناك من يقترب منهم مدافعا عن حقوقهم مطالبا بأشكال عدة لحمايتهم باعتبارهم أقلية (الأقليون) .

ثم يصيح المؤلف بأعلى صوته .

" ان تعبير أقباط يعادل كلمة مصريون والراجح أن كلمة قبط هى تحريف عن الكلمة اليونانية ايجيبتوس " .

" الأقباط حسب عزيز سوريال ينحدرون من المصريين القدماء وهم حسب تعبير ليدر أبناء الفراعنة المحدثون فهم يمثلون النموذج الأقرب الى قدماء المصريين فى ملامحهم وصفاتهم الجسمية " .

" إن الأقباط ليسوا ساميين أو حاميين بل بحر متوسطيين " .

لماذا يصيح سمير هكذا لتوصيل معلومة أصبحت منذ زمن بعيد حقيقة لا جدال فيها ؟

لأن هناك من يدعو للجهاد ضدهم مثل الأستاذ عبد الجواد ياسين فى كتابه " مقدمة فى فقه الجاهلية المعاصرة " فهو يكتب كما أورد سمير " إن المجتمع المصرى اليوم فى حقيقة أمره مجتمع جاهلى محصنا و أن الدعوة اليوم بصدد التوجه الى هذا الشعب بالإسلام من جديد .. و أن على الدعوة أن تنهض لفتح فى مصر جديد .. الجهاد والفتح هما وسيلة الإسلام لإبلاغ الناس ودعوتهم ... (أما القبط) .. فينبغى أن يشعروا بقوة الإسلام وعظمته وسموه وبره وخيره وكرمه وسماحته أى وضعهم فى حالة تدفعهم على الجملة للدخول فيــه اختيارا ".

أى فكر مدمر هذا الذى يكتبه الأستاذ عبد الجواد فى القرن الحادى والعشرين وماذا قد يحدث إذا اندفع خلفه من ينادى بالجهاد لقصر إنسان على ترك دينه والدخول فى دين آخر مهما كانت أساليبه مقنعة .

لهذا يسرد علينا المؤلف فى جزء كبير من كتابه تاريخ الأقباط فى مصر فى محاولة لاقناعنا أنهم مواطنون مصريون لهم كافة الحقوق وعليهم كافة التزامات المواطنة مثلهم فى ذلك مثل باقى أفراد هذا الوطن .

" كان الثلث الأخير من القرن الأول الميلادى حين وجدت البلاد تتردى فى هاوية الحروب الأهلية ولم يلبث أن ظهر عامل جديد فى الأفق حول الشعب المصرى من شعب وديع مسالم الى شعب عنيد مقاوم ذلك العامل هو ظهور المسيحية فى مصر وانتشارها فيها " .

لقد حدث هذا فجميع المراجع التاريخية تؤكد أن غالبية المصريين كانوا فى ذلك الزمن مسيحيين وبالتالى أسسوا كنيستهم " كانت كنيسة الشعب فهى لم تتأسس بقرار فوقى ولم تدعم من حاكم قط " " ومنذ بداية تأسيس الكنيسة حدث تطابق بين الموقف الدينى والنزعة القومية".

" ظلت الكنيسة المصرية تلعب دور القيادة الوطنية والإطار الحامى للشخصية الوطنية المصرية والمدافع عن مصالح المصريين " " وجاء وقت كانت الكنيسة فيه مرادفا لمصر " " وعبر القرون الطويلة كانت مصر ولاية مستعمرة تابعة لدولة عظمى ولكن لها كنيسة مستقلة فأصبحت رمزا للاستقلال القومى فى غياب استقلال سياسى حقيقى " .

الأقباط المصريون خلال هذا الزمن لاقوا ما لم يلاقيه بشر " ضربت أعناق ما يقرب من مليون مسيحى مصرى وقابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة وعناد وقد تولدت من تلك المقاومة حركة قومية أخذت فى النمو " " أغلب الأباطرة الرومان اتخذوا سياسة دينية مناوئة لمعتقدات المسيحيين فى مصر وذلك بدعمهم للهراطقة " " و أطلقوا على الكنيسة القبطية الكنيسة الأرثوذكسية وعلى أقباط مصر الأرثوذكس أى مستقيمى الرأى " .

أى فخر يشعر به مصرى وهو يتصفح كتاب كفاح أجداده القبط ضد الاستعمار الرومانى وضد المحاولات المستميتة للاحتواء التى حاول الأباطرة فرضها عليهم .. فتمسكوا بقوميتهم ودينهم فى مواجهة اضطهاد أودى بحياة الملايين .

صفحات من التاريخ المصرى المشرف التى لا يعرفها إلا القليلون ومن حقنا وحق الأجداد أن نخرجها الى النور وهكذا عندما يكتب سمير فى ختام كتابه تحت عنوان " نحو رؤية استراتيجية وطنية ذاتية لتأكيد المواطنة " " البدء فى وضع خطة إعلامية وتعليمية مدروسة تعنى بما يلى :

- الترويج لقيمتى المواطنة والإعلاء من شأن الآخر وبثهما فى شتى الأشكال الإعلامية .
- إنعاش الذاكرة الوطنية بالمواقف الإيجابية التى كان لها دور كبير فى نهوض الجماعة الوطنية .
- التأكيد على وحدة تاريخ مصر والاستمرارية الحضارية عبر العصور.

فهو بذلك قد أصاب كبد الحقيقة لأنه وبمعرفة تاريخ كفاحنا ستسقط دعاوى " الطائفيون " و " الأقليون " وستتأكد حقيقة أن الأقباط مواطنون مصريون وليسوا ذمة أو ملة أو أقلية .

أنصار حصر الأقباط كأقلية يفضحهم سمير مرقص فى الفصل الأول من الكتاب " الغرب والمسألة الدينية فى مصر " فى جهد كبير للغاية ودراسة مستفيضة واطلاع واسع لخص المؤلف محاولات فصل الأقباط عن المسيرة الوطنية بواسطة الغرب ابتداء من الدولة العثمانية والامتيازات التى حصل عليها الغرب ثم الإرساليات التبشيرية والتى كان هدفها الاقتناص للأقباط وخلق التفكيك بينهم وعزلهم عن باقى أبناء الوطن .

" خلاصة القول فلقد كانت الهجمة التبشيرية على مصر مرحلة من مراحل الإلحاق والتجزئة هدفت الى أمرين :

- النفاذ الى داخل الكنيسة الوطنية ومحاولة تفكيكها من الداخل واقتناص أعضائها .
- ضرب العلاقة بين المسلمين والأقباط من خلال إثارة الجدل الدينى بينهما " .

ثم الاحتلال الإنجليزي وما ادعاه من حماية الأقليات وتدويل مصر . ويورد سمير فى كتابه مقتطفات من أقوال وفكر كرومر معلقا " إن فكرة كرومر إنما تعكس خبث السياسة البريطانية فهى من جانب تعمل على صهر الرعايا الأجانب القاطنين فى مصر فى مجموعة سكانية منعزلة على نحو ما فى دولهم الأم و أوطانهم الأصلية ومرتبطة فى مصر بسلطة الاحتلال ومن جانب آخر

إنما تفتت الجماعة المصرية بإقحام أجسام غريبة تشوه تجانسها وتطمس خصوصيتها وتقف حائلا دون وحدتها . فلديه أى كرومر ـ أن مصر ليست أمة أو جماعة سياسية متميزة بل هى " جماعة دولية " تتكون من مجموعات شتى من السكان لا تضمهم وحدة (المسلمين والمسيحيين والأوروبيون والآسيويون والبدو ...) " " والمصريين ليسوا أمة وانه بقدر ما يستطيع المرء الآن أن يتنبأ فلا يبدو أنهم سيكونون أمة فى أية ظروف خلال مدى حياة أى شخص يعيش الآن إنما هم تراكم عشوائى " .

ويرى سمير مرقص أن هذا دليل على خطة " الاحتلال البريطانى لعمل تعميق للتجزئة بين مكونى الجماعة الوطنية المصرية " و أن هذا المنهج استمر كسياسة غربية مستديمة تجلت بعد " غرس الكيان الصهيونى فى المنطقة " الذى هدفه يدور حول " أن أمن إسرائيل لا يتحقق إلا إذا أحاطت نفسها بحزام من الدويلات الصغيرة .. وذلك بتحويل المنطقة الى ساحة للصراعات الطائفية فيحتدم الصراع فيها بين المسلمين والمسيحيين وبين مسلمين ومسلمين وبين مسيحيين ومسيحيين " و " تجزئة مصر على الأساس الطائفى والدينى هو المدخل لتجزئة المنطقة ككل " .

وان إسرائيل ترى " أن حلما صهيونيا قديما تحدث عنه تيودور هرتزل سيتحقق عن طريق العبقرية الإسرائيلية + المال الخليجى + اليد العاملة العربية الرخيصة وسيؤدى الى إقامة كومنولث عربى يهودى , أى بين إسرائيل وكيانات عربية مفتتة يسهل قيادتها " .

ثم ينشط سمير مرقص ذاكرتنا بالأحداث التاريخية المتتالية منذ نشأة إسرائيل مرورا بفراغ أيزنهاور ومحاربة القومية العربية والصراع مع الكنيسة القبطية ويخلص الى أن " إستراتيجيتي التفتيت والغزو من الداخل تعد امتدادا للمخطط الغربى القديم الإلحاق ـ التجزئة الذى حكم علاقة الغرب بنا " .

يختتم سمير مرقص هذا الفصل بالهيمنة الأمريكية واستخدامها حديثا لمظلة حقوق الإنسان والدفاع عن الأقليات " لقد عادت الولايات المتحدة الأمريكية لتمارس الدور نفسه الذى كانت تمارسه القوى الاستعمارية التقليدية منذ قرنين من الزمان ولكن بآليات و أساليب و أدوات جديدة تتخذ من الديموقراطية وحقوق الإنسان ثم الأقليات فيما بعد مبررات للتدخل " .

ثم يستعين بدراسة لرزق الله هيلان صدرت فى مايو 1994 فيقتبس منها " تتعرض الدولة ذاتها الى تآكل سيادتها الوطنية التقليدية وذلك فى المستويين الأعلى والأدنى .. من فوق أولا أو على المستوى الدولى حيث تفقد الدول جزءا من حقوق السيادة لصالح المنظمات العالمية وبخاصة صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومنظمة الجات ثانيا حيث تنمو المناطق (المحافظات أو الأقاليم) عن إطار الدولة المركزية ذاتها الى المطالبة ببعض حقوق السيادة الذاتية يضاف الى هذا كله قيام الشركات العملاقة عالمية النشاط باختراق سيادة الدولة (الرخوة) والتأثير على سيادتها عن طريق التكنولوجيا وتنفيذ المشاريع الكبرى والقروض والاغراءات ..... " .

يسلمنا هذا الفصل الى الفصل التالى الخاص بالقانون الأمريكى للتحرر من الاضطهاد الدينى وفيه يعتب سمير على من سبقه وتصدى لمناقشة هذا القانون " ان المواجهة المصرية لم ترق الى مستوى المواجهة الاستراتيجية المدروسة فهى لم تزد عن كونها رد فعل لواقع فرض نفسه " وفى عرفه أن سبب ذلك يعود الى ...

- نقص المعلومات فى عصر المعلومات

- عدم الاطلاع على الوثائق الأساسية
- عدم معرفة الأطراف الفاعلة الرئيسية "

ولهذا فلقد بذل المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب جهدا خارقا لمحو أميتنا الثقافية الخاصة بهذا الموضوع والتى تجعلنا نلهو والخطر يتهددنا جميعا كمصريين أقباط ومسلمين .

بدأت الدعوى لهذا الموضوع بعد تحالف تاريخى بين اليهود والبروتستانت الأمريكان وهم فى عرفه (أى البروتستانت) أصوليون مسيحيون أو صهاينة غير يهود أو مسيحيون متهودون فالبروتستانتية تقوم على الرجوع الى التوراة أو العهد القديم لذلك وجدت دعما دائما من اليهودية .. ثم أوضح مدى نفوذ البروتستانت على الأمريكان فهم أول الطوائف المسيحية التى وصلت أمريكا (البيوريتانيين) الذين جاءت منهم الطائفة الإنجيلية ثم شرح تأثير اللوبى الصهيونى المتحالف مع البروتستانت على السياسة الأمريكية التى مركزها النابض هو الكونجرس بفرعيه والذى تحركه الأصوات والتبرعات .

فصل جاد وهام حاول فيه المؤلف تبسيط مكونات السياسة الأمريكية وشرح الكثير من المغاليق.

ما يهمنا أن هذا التحالف اليهودى الانجيلى البروتستانتى توصل بضغوطه المختلفة الى إصدار قانون جديد شرح لنا المؤلف بالتفصيل كيف خرج من (ماكينة التشريع الأمريكى) وكيف اعتمد بأغلبية ساحقة من كلا الحزبين .

قراءة سمير مرقص المتأنية للقانون أوصلته للآتى

• غلبة الجانب العقابى فى روحه ونصوصه .

• جعل أمريكا حارسا ومفتشا عاما على الانتهاكات العالمية لحقوق الإنسان ومزاولة الأديان واضطهاد المسيحيين.

• استبعاد الشرعية الدولية بالإجمال من التعاطى مع هذا الموضوع المرجعية الفكرية العليا للقانون هى التراث الأمريكى للحرية الدينية والذى بات يمثل أيضا مرجعية عليا للمواثيق الدولية .

• اعتراض الكنيستان الروسية والمصرية " لا ترحب الكنيستان بجهود البعثات التبشيرية الغربية لكسب أنصار جدد على حسابهما والرأى السائد الآن هو أن المجتمعات الإسلامية التى توجد بها كنائس مسيحية شرقية ستقع أكثر فأكثر تحت ضغط سياسى واقتصادى هائل لكى تسمح بحرية الأجانب فى ممارسة التبشير بين المسيحيين الوطنيين لصالح كنائس غربية " .

• تعد لجنة خاصة منبثقة عن الكونجرس تقرير دينى كل ستة شهور صدر التقرير الأول فى سبتمبر 1999 التقرير الأول الذى قدمته الخارجية الأمريكية الى الكونجرس قسم دول العالم الى :

" ** دول سلطوية وشمولية تمارس اعتداءات على المعتقد الدينى وحرية ممارسته (أفغانستان ـ بورما ـ الصين ـ كوبا ـ إيران ـ العراق ـ فيتنام) .

** دول معادية للأقلية أو لأديان غير معترف بها (باكستان ـ السعودية ـ صربيا ـ السودان) .

** دول تهمل (التمييز أو الاضطهاد) الذى يمارس ضد الأقلية (مصر ـ الهند ـ إندونيسيا) .

** دول بها تشريعات تمييزية أو تمارس سياسات ضد الأديان (روسيا ـ تركيا) .

ولقد ذكر التقرير عن مصر " ان معاداة السامية تمثل توجها فى الصحف المصرية الحكومية والغير رسمية " .

وهكذا يتضح الأسباب التى أدت الى اهتمام وهموم المؤلف لقد شعر بالخطر الزاحف من الخارج على بلده منتهزا فرصة التخلخل الداخلى الذى صاحبه تعديلات فى مفاهيم المواطنة والتى أفرد لتطورها جزءا هاما فى كتابه يرصد فيه مراحل تطور هذه المفاهيم منذ محمد على حتى اليوم ..

ـ بزوغ المواطنة واقرارها من فوق " مشروع محمد على "

ـ تبلور المواطنة " 1919 دستور 1923 برلمانات ما قبل الثورة "

ـ المواطنة المبتسرة " ثورة يوليو حكم عبد الناصر حيث تجاهل الجانب السياسى

للمواطنة وضعفت المشاركة السياسية " .

ـ تغيب المواطنة " حكم السادات وتديين الحركة السياسية "

ـ المواطنة المستعادة " الفترة الحالية حيث لا ديكتاتورية ولا ديمقراطية " .

نحن بصدد كتاب هام يجب قراءته بتأني يوازى الجهد المبذول فى كتابته وتفهم المحاذير التى يسلط مؤلفه الضوء عليها واستيعاب المشاكل التى يعانى منها شريحة هامة من أفراد المجتمع اختاروا أن يكون دينهم القبطية وولاؤهم لمصر ولا يسعنى إلا أن أحيى الأخ سمير مرقص على صبره وجديته فى البحث واختتم عرضى هذا بعبارة من العبارات التى وردت فى كتابه " إن التعامل مع الظاهرة الطائفية ينبغى أن يتم فى إطار أن لكل ظاهرة أسبابها التى تؤدى الى حدوثها واستمرارها بالدرجة التى تجعل منها ظاهرة ومن المهم عند التعامل مع الظواهر وخصوصا إذا كانت ظواهر مرتبطة بالكائن الاجتماعى ـ الإنسان ـ وبالجماعات البشرية إلا نتعامل معها منفصلة عن سياقها التاريخي العام وعليه فانه يمكن أن نضع مقولة تصل الى حد القانون حكمت وضع الأقباط فى مصر وعلاقتهم بالمسلمين وعكست حالة الجماعة الوطنية المصرية صعودا وهبوطا عبر العصور ذلك أن درجة التكامل / الاندماج بين مكونى الجماعة الوطنية تزداد مع فترات النهوض والتقدم والعكس صحيح فان التكامل والاندماج تتراجع لصالح التجزئة / الشقاق فى فترات السقوط والتخلف بسبب الأزمات المجتمعية الحادة والتغييرات المركبة .

الله يفتح عليك يا أستاذ سمير ... هى كده .

قراءة حديثة فى كتاب قديم

المثلث الإيرانى أو " ما لم يقال عن دور إسرائيل فى مسألة إيران كونترا "

الكابتن صمويل سيجاف Somuel Segev ضابط المخابرات العسكرية الإسرائيلية أصابته حمى نادرة من " الرغى " فاقت كل ما سمعنا عنه من " رغى " عجائز الأرياف ـ قبل انتشار الإرسال التليفزيونى ـ فاستفرد بنا يضخ فى رؤوسنا عبر حوالى 315 صفحة من صفحات كتابه " المثلث الإيراني " حكايته مع " ما لم يقال عن دور إسرائيل فى مسألة إيران ـ كونترا " .

الكتاب أصدرته مؤسسة تسمى بالصحافة الحرة يقال أنها واحدة من مؤسسات ماكملين بنيويورك عام 1988 فى طباعة أنيقة محلاة بصور تاريخية لأبطال الحدوتة وبغلاف سميك يحافظ عليها .

والمؤلف نظرا لطبيعته .. أو مهنته .. أو لرغبة ماكرة فى أن يجذبنا ـ ويضمن استمرار متابعتنا " لرغيه " ـ اختار لكتابه نمط الأعمال البوليسية التى لا يحل لغزها إلا مع آخر سطر فى آخر صفحة من الكتاب . لنكتشف مدى خيبة الأمل التى منيت بها أقوى دولة فى التاريخ ـ كما يحلو للبعض أن يدعو ـ الولايات المتحدة الأمريكية .

أول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب أن المؤلف تعمد أن يحشر فيه ـ حشرا ـ كما هائلا من الأسماء المعروف منها والمجهول لرؤساء دول وزعماء شعوب جنبا الى جنب مع رجال مخابرات وحثالة بشرية من تجار سلاح يتحركون بسهولة ويسر ـ بواسطة باسبورتات مزورة ـ بين واشنطن ولندن وباريس ... بين روما والقدس وطهران أو ألمانيا والسعودية والبرتغال والسودان وبلاد واق الواق .. يلعبون بملايين الدولارات ومصائر الخلق.

ولكن .. وبالرغم من هذه المظاهرة وبالرغم من تكاتف المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية وبقايا السفاك الإيرانى واهتمام الرئيس ريجان ونائبه بوش وثلاثى رؤساء الوزارة الإسرائيلية شيمون بيريز وإسحاق شامير ورابين .. وبالرغم من جيوش العملاء والأقمار الصناعية والاتصالات الإلكترونية وأجهزة التجسس فان جماعة صغيرة من شيعة لبنان تطلق على نفسها حزب الله و أخرى معروفة باسم منظمة الجهاد .. " دوختا " هذه الآلة العظمى وابتزتاها وأخذتا منها ما تريدان واحتفظتا ـ رغم ذلك ـ بما فى أيديهما من رهائن أمريكية وإسرائيلية و أوروبية حتى نهاية الكتاب ... بل وحتى الآن .

والمؤلف .. الكابتن صمويل سجاف .. يحاول ـ من خلال إخراج كتابه ـ أن يوحى لنا بأننا نقرأ نصا علميا تاريخيا موثق " أمين " يبعد عن الهوى ولا يبغى إلا وجه الحقيقة كاملة من أجل التاريخ وذلك بالتشبه بالدراسات العلمية عن طريق عمل ملاحظات واحالات الى مراجع بعينها واهما إيانا أن أحداثه موثقة .

وفى الحقيقة .. سنجد أن بعض ما جاء بكتابه من أحداث قد تم توثيقها ـ فعلا ـ من خلال جلسات استماع لجان الكونجرس الأمريكى لمسئولى البيت الأبيض ورجال المخابرات المركزية .

وسنجد أن البعض الآخر حقائق تاريخية لا جدال حولها وظفها المؤلف ـ وهذا من حقه ـ فى الإطار الذى يناسبه .

أما أغلب الأحداث فهى عبارة عن " أسرار " انتزعها مؤلفنا رجل المخابرات الإسرائيلية " بطريقة ما " من وثائق لم تنشر بعد لحكومته الإسرائيلية ـ هذا ما يقوله ـ ... وهنا مربط الفرس .

فالقصة تبدأ وتنتهى مع الإعلان على الملأ للدور السرى الذى لعبته الولايات المتحدة وإسرائيل فيما يخص تزويدهما لإيران الخومينية خلال حربها مع العراق بأسلحة دفاعية وقطع غيار أمريكية فضلا عن معلومات " مخابراتية " عن وضع القوات المعادية على الجبهة .

وقد نجد من يسأل .. وما الغريب فى هذا ؟ فالولايات المتحدة وإسرائيل هما دائما من أهم موردى السلاح لدول العالم الثالث المتنازعة .

الغريب ـ كما جاء فى الكتاب ـ ان الولايات المتحدة بعد أن اختطف لها ست من الرهائن فى لبنان دمغت إيران بالإرهاب الدولى لتشجيعها ومساندتها جماعات الشيعة اللبنانية الخاطفة للرهائن و أصدرت فرمانا بمقاطعتها وحرمانها من السلاح أجبرت حلفائها على الالتزام به !!

والغريب أيضا ـ كما جاء فى الكتاب ـ أن العلاقة بين القيادة الإسرائيلية وملل و آيات إيران هى علاقة سب متصل ـ من طرف واحد ـ وصل الى درجة نعت الولايات المتحدة بأنها بؤرة الفساد و أن صنيعتها إسرائيل وكر الشيطان !!

ولكن الأغرب .. أن أرباح صفقات السلاح أو جزء منها ذهب فى اتجاه دعم ثوار الكونترا بأمريكا اللاتينية .. وبعلم الرئيس ريجان رغم رفض الكونجرس الأمريكى الواضح لتقديم أى مساعدة لهم .

عندما أعلنت القصة وتكشفت الحقائق حاول مسئولى البيت الأبيض التملص من الموضوع بإلقاء اللوم على إسرائيل حتى أن بعض رجال الصحافة الأمريكية كتبوا يستنكرون جر إسرائيل للولايات المتحدة فى مغامراتها الإيرانية المشبوهة ومع ذلك ـ يقول مؤلفنا ـ ضبطت إسرائيل أعصابها مجاملة للرئيس ريجان ورجاله أسبوع تلو أسبوع حتى حاولوا ـ أى رجال الرئيس ـ إلصاق تهمة تحويل أرباح السلاح للكونترا بإسرائيل ... هنا هاج شيمون بيريز وبعد استشارة شامير ورابين اتصل بالمدعى العام الأمريكى " أدوين ميس " منكرا علاقتهم بالكونترا .. ولكى تستكمل إسرائيل تمريغ أنف البيت الأبيض ورجال البيت الأبيض .. ولكى توحى باستقلاليتها .. وقدرتها وكفاءتها ونديتها قامت المخابرات الإسرائيلية بتأليف هذا الكتاب ولصق الكابتن سجاف اسمه عليه.

يبدأ الكتاب بتساؤل .. ماذا سيحدث لو أن العراق هزمت إيران فى حرب الخليج ؟ .. والإجابة ستنقلب علينا العراق القوية والتى تبلغ قوتها العسكرية مجموع ما لدى سوريا والأردن ومصر مجتمعين والتى تدربت جيدا من خلال حرب طويلة واكتسبت مهارات عسكرية يتعذر وجودها فى الجيوش الأخرى المحيطة فتتضاعف قوات الجبهة الشرقية مما يمثل خطرا حقيقيا على إسرائيل ... الله أكبر ... أما إذا هزمت إيران العراق فستنقلب إيران أيضا علينا ولكن مع فارق أن الجيوش الإيرانية مهلهلة سيئة التسليح تفتقد الى قطع الغيار والتنظيم وتبعد عنا كثيرا بحيث لكى تصل إلينا لابد لها من عبور أنهار واجتياز صحارى مع افتقادها لغطاء جوى وعدم ثقة النظام السورى أو

الأردنى فيها ـ أى فى الثورة الإسلامية ـ بحيث لن يسمحا لقواتها بالعبور من خلال أراضيهما .. وبالتالى فإيران برغم صوتها العالى لن تكون قوة مؤثرة فى الصراع .

والنتيجة .. علينا مساعدة إيران للدرجة التى لا تسمح للعراق بالانتصار وفى نفس الوقت لا تسمح لإيران بتحقيق تفوق يخل بالميزان العسكرى .

بكلمات أخرى .. على النمرين أن يصفى كل منهما الآخر.. وهكذا تقرر القيادة الإسرائيلية مساعدة النظام الخومينى .. ولكن كيف ؟ .. وكل قادة هذا النظام لا يملون من سب إسرائيل والعدوان ـ اللفظى ـ عليها بمناسبة وبدون مناسبة .

هنا يبدأ المؤلف الكابتن صمويل يستعرض العلاقات التاريخية بين بلاده وإيران الشاه رضا بهلوى ... ذلك الحاكم الفرد الديكتاتور شديد الذكاء .. شديد التقلب والغدر والذى بدأ بإعلان عداءه السافر لإسرائيل .. حتى .. حازت الجيوش الإسرائيلية على إعجابه بعد معركتها الظافرة عام 56 هنا سمح الشاه للقادة العسكريين الإسرائيليين بزيارة إيران و إلقاء المحاضرات لاكتساب خبرتهم العسكرية .. ثم توجت هذه الزيارات باستقباله لموشى ديان والتعامل معه على أساس أنه بطلا قوميا عظيما قاد جيشا فائق القوة والمقدرة يمتلك أفضل ما فى العصر من علم وتكنولوجيا وتفوق .

وفى " رغى " مستمر لا ينقطع عدد المؤلف أنواع الزيارات وتواريخها و أسماء الزائرين وصفاتهم وماذا قيل ؟ وماذا لم يقال ؟ ... وانبهار القادة الإيرانيون بالتقدم والعلم الإسرائيلي .. و أيادى إسرائيل البيضاء خاصة عندما هدمت الزلازل مجموعة من القرى الإيرانية وساعدت إسرائيل فى الإغاثة و إعادة التعمير ... يقول مؤلفنا .. حتى انه لم يعد هناك ضابطا واحدا من هيئة أركان البلدين أو قادة أسلحتهما لم يذهب لزيارة البلد الآخر عدة مرات.

ولكن ماذا جمّع شاه إيران.. على زعماء إسرائيل ؟

فى رأى سيادة الكابتن أنها أهداف (أسباب) ثلاثة .. أهمها و أولها عدائهم المشترك لعبد الناصر ورغبتهم فى تدميره ومنعه من توحيد العرب فى جبهة مشتركة تضم الهلال الخصيب ومصر مناوئه لإسرائيل و إيران . ولقد حرص سيادته ـ أى الكابتن صمويل ـ على أن يظهر بوضوح فى أكثر من موقع مدى حقد الشاه على عبد الناصر واعتباره عدوه الأول ـ وقد يكون الأخير ـ حتى أنه لم يكن قد تبق لدى المؤلف الا أن يضع خطوطا سوداء ثقيلة أسفل العبارات الدالة على كراهية الشاه لعبد الناصر ليضمن استيعاب القارئ لها تماما .

وهكذا نجد أن بعد حرب 67 أرسل الشاه و قادته لمثلائهم الإسرائيليين باقات الزهور وخطابات الإعجاب والتشجيع التى أورد بعض نصوصها .

أما الهدف الثانى فقد كان الدفاع ـ مع الدول العربية الموالية للغرب خاصة السعودية ـ ضد امتداد النفوذ السوفيتى فى المنطقة ووقف العدوى التى انتشرت كالنار فى الهشيم خاصة أن الشاه كان يعانى من نشاط حزب " تودا " الشيوعى الإيرانى ومنظمة مجاهدى خلق الإسلامية الشيوعية .. بعد فشل حلف بغداد ومخططات أيزنهاور لملئ الفراغ فى المنطقة و إدانتهم للشاه العميل الأمريكى .

الهدف الثالث كان التبادل الاقتصادى والتكنولوجى فإسرائيل يحيطها العرب بطوق المقاطعة وهى لكى تكسر هذا الطوق كان عليها خلق علاقات حسنة مع الدول المحيطة بالكيان العربى .. أى تركيا و إيران و أثيوبيا هيلاسلاسى فضلا عن حاجتها الماسة للبترول الإيراني أقرب مصدر متوفر ـ غير عربى ـ لها .

على الجانب الآخر كانت إيران تعانى من فتور العلاقة مع الولايات المتحدة لانتهاك الشاه الدائم والمستمر لحقوق الإنسان خاصة فى الفترة " الكارترية " وهكذا كانت فى حاجة لمن يتوسط لها لدى القادة فى الولايات المتحدة وليس هناك أفضل من اللوبى الصهيونى كما أنها كانت فى حاجة الى الدعم الإسرائيلي لها فى مجال التكنولوجيا والتسليح والعلم العسكرى والصناعة .

هذه هى الأسباب ـ فى رأى سيادة الكابتن ـ التى أدت الى أن تلتقى قيادات البلدين لقاءا حميما دافئا بالرغم من أن إيران الشاه و إسرائيل لم يتبادلا أبدا أى تمثيل دبلوماسى علنى .. وكانت العلاقة بينهما كما يقول ـ سيادة الكابتن ـ تشبه علاقة الرجل المتزوج ـ الذى يخشى زوجته ـ بعشيقته التى يهواها ومع ذلك يقابلها فى الخفاء .

كان نتيجة هذا الحب الحرام طفلين أحدهما ما يسمى " بالسفاك Savak " أى المخابرات الإيرانية التى قامت الموساد بتشكيلها وتدريبها ودعمها .ـ لا أعرف مدى صحة هذا ـ والطفل الآخر الذى ولد ناقصا فوضع فى حضانة ولم تتاح له فرصة الحياة كان التعاون المشترك فى إنتاج الأسلحة الاستراتيجية والصواريخ المضادة للغواصات والأسلحة البحرية ... وهو الموضوع الذى سنناقشة فيما بعد .

ما يهمنا الآن فى كتاب المخابرات الإسرائيلية هو مرحلة الاقتراب الإيراني المصرى وتأثيره على فتور العواطف مع إسرائيل

فأنور السادات نائب رئيس الجمهورية الذى حضر مؤتمر القمة الإسلامي الذى عقد فى الرباط بعد حريق المسجد الأقصى بدلا عن عبد الناصر الذى كان يعانى أزمة قلبية (هكذا يقول !!) ... التقى هناك بالشاه .. فحدث حب من أول نظرة .. السادات سحر الشاه بشخصيته الجذابة بعد أن تلى عليه بالفارسية أبيات من شعر لشاعر ايرانى يتكلم فيها عن الأخوة الإنسانية والمحبة بين البشر فنشأت صداقة قدر لها أن تزدهر وتنمو بعد وفاة عبد الناصر وتولى نائبه الحكم .

والسادات الذى سحر الشاه من أول نظرة كان يواجه ـ فى رأى رجل المخابرات الإسرائيلية ـ نفورا سوفيتيا من أول نظرة ـ قد يكون لعدم حفظه أشعار بوشكين بالروسية !! ـ حتى أنه فى آخر زيارة له للاتحاد السوفيتى رُفضت جميع طلباته وتجاهل برجينيف ـ على غير العادة ـ توديعه فى المطار .. أى غادر الاتحاد السوفيتى شبه مطرودا .

والذى أثر فى نفسية السادات أن السوفيت فى هذا الوقت أجذلوا العطاء لسوريا والعراق ... كان نتيجة هذا أن مر السادات فى طريق عودته على صديقه الشاه و اتفق معه على أن يمهد له الطريق لدى أمريكا لينضم الى المنظومة الموالية للغرب .. و أن يضغط أيضا على إسرائيل حتى تجلو عن الأراضى المحتلة .

ولكن يبدو أن القوم قد تلكأوا فطرد السادات الخبراء السوفيت إظهارا لجديته .. ولم يغير هذا .. الموقف.. فاندفع بجيوشه ليعبر القناة فيكتسب احترام ومحبة الشاه .. وتخسر إسرائيل بجوار خط بارليفها بعض نفوذها فى إيران مع اشتعال الموجات الشعبية الإيرانية المعضدة للعرب والمعارضة للتواجد الإسرائيلي فى بلدها .

ومع ذلك يتفق الشاه ـ خطوة خطوة ـ مع القيادة الإسرائيلية على إنشاء خط أنابيب لنقل البترول الايرانى من ايلات حتى ميناء أشكلون على البحر الأبيض .

ثم تأتى كامب دافيد ويتفق السادات وبيجين فى أمريكا ويختلف السادات وبيجين فى الإسماعيلية ويتدخل الشاه ويطلب من إسرائيل الانسحاب من سيناء وتبكى إسرائيل على بترول سيناء الذى أصبح مصدرها الرئيسى فيعوضها الشاه ببترول إيراني رخيص .

" ويرغى " ضابط المخابرات و " يرغى " لنفهم من خلال مواقف مصطنعة أن إسرائيل قد طورت صواريخها لتصل الى 350 كم وتحمل رؤوس نووية ويطلق نكتة على صواريخ عبد الناصر " القاهر " و " الظافر " الى لم تنطلق أبدا .. ونفهم أن إسرائيل تمتلك قاعدة تكنولوجية وعلمية تجعل الولايات المتحدة تلجأ لها فى بعض الأحيان فى برامج تطوير صواريخها المضادة للصواريخ و أن صواريخها المضادة للغواصات تحفة فنية و أنها طورت الصواريخ TOW المضادة للدبابات ... و أن إيران كادت أن تشاركها هذا المجد عن طريق تمويلها لمراكز البحث التطويرية لولا أن قامت الثورة الإسلامية الخومينية هناك .

وهكذا تنتهى الافتتاحية بعد أن استغرقت خمسة فصول لتبدأ مرحلة الوسط وتأزم المشكلة بسلسلة من المغامرات التى قامت بها الموساد لتأمين وترحيل رعاياها وبعض يهود إيران بعيدا عن الآتون الملتهب ويقص باستفاضة مقدار الخدمات التى قدمتها هذه المخابرات لنظيرتها الأمريكية التى " ضربت لخمة " .. ثم .. يفقد كلاهما جميع خيوط اتصالهما مع الجمهورية الإسلامية الوليدة.

ويصدعنا المؤلف بعد ذلك بسرده لتفاصيل تفاصيل محاولاتهما الفاشلة لاختراق الحائط " الهمجى " الذى يجاهر بالعداء لأمريكا و إسرائيل والذى تحتل جماهيره مكان البعثة الإسرائيلية غير الرسمية لترفع عليه العلم الفلسطينى .

ويؤكد المؤلف على كوادر جيش الثورة " الحرس الثورى " Pasderan قد تم تدريبها فى معسكرات " الإرهاب " الفلسطينية بما فى ذلك " مجاهدى خلق " الشيوعية و أن المنظمات اليسارية الفلسطينية دربت كوادر خرب " تودا " الشيوعى . ثم تكتمل الدراما بمشهد زيارة ياسر عرفات لإيران الثورة كأول مسئول عربى والاستقبال الحماسى الذى أعد له و أنه قال وهو يهبط فى مطار طهران بأنه يشعر أنه يهبط فى وطنه الثانى و أن تحرير إيران من حكم الشاه بداية لتحرير فلسطين من النير الإسرائيلي .

ويبدأ تعاون الإرهاب الدولى .. إيران الخومينى مع شيعة لبنان .. وسريا الأسد مع جناح آخر من شيعة لبنان .. وليبيا القذافى .. والمنظمات الفلسطينية على اختلاف توجهاتها .. ثم يذكرنا سيادة الكابتن بكل الحوادث الإرهابية .. مطار روما .. ألمانيا.. اختطاف الطائرة TWA واختطاف باخرة الركاب " أشيلى لورو " بعد مغادرتها للإسكندرية فى طريقها لإسرائيل .. ويقطع قلبنا على هؤلاء المساكين الذين اغتيلوا بواسطة فصائل الإرهاب العربى الإيرانى " الإسلامي " ثم ينفرنا بسرد تفاصيل اختطاف الرهائن الأمريكيين والأوروبيين والإسرائيليين فى لبنان عن طريق حزب الله الموالى لإيران ومنظمة الجهاد الشيعية الموالية لسوريا .

فى هذه الأثناء تأتى انتخابات الولايات المتحدة " بكاوبوى " المعروف باسم مستر رونالد ريجان .. فيهجم على ليبيا بطائراته (التى قدم لها الموساد المعلومات الأرضية) ويقتل ابنة القذافى بالتبنى .. ثم يهجم على الطائرة المصرية حاملة الطاقم المستسلم الذى خطف الباخرة " أشيلى " ويضرب بيد من حديد فى لبنان عن طريق تشجيع إسرائيل على تصفية قواعد الإرهاب ويوقف تصدير الأسلحة لإيران ويدور ويلف حول قرارات الكونجرس الأمريكى .. ويأمر كل من هب ودب ليجد له وسيلة ما لتحرير الرهائن الأمريكيين الست فى لبنان .

من ضمن من " ترجاهم " الكاوبوى ليحل له معضلة الرهائن كانت إسرائيل

وهكذا بعد أن شرحت المخابرات الإسرائيلية وجهة نظرها فى التاريخ المعاصر فى أكثر من نصف الكتاب تبدأ وقائع " ما لم يقال عن دور إسرائيل فى مسألة إيران ـ كونترا".

إسرائيل كان لها صلة وحيدة داخل إيران عن طريق تاجر أسلحة أفاق ـ هذا هو رأى المؤلف ـ اسمه جوربا نيفار Gorbanifar عرض نفسه من قبل على المخابرات المركزية الأمريكية ولكنه رُفض هناك لأنه " مفبرك بارع للأخبار " .. ومع ذلك فلقد تحركت الموساد ورجال الرئيس ريجان من خلاله !! لقد كان قدرهم وان كان يخفف من واقع هذا القدر أن فى الموساد رجال لديهم القدرة على تطويعه والحد من أكاذيبه وسوء خلقه وشراهته ـ هذا أيضا رأى المؤلف ـ تاجر الأسلحة الإيرانى الأفاق كان على صلة حميمة وعلاقة ودودة قوية بتاجر أسلحة آخر سعودى وان كان يختلف عن نظيره الإيرانى فى كونه مليارديرا له يخوته وغوانيه وطائراته الخاصة وصلاته الوثيقة فى كل مكان .

التاجران كانا يتعاونان مع عناصر مضادة للحكم الخومينى تلتف حول الشاه الصغير الذى توج فى القاهرة بعد وفاة والده المدفون هناك ـ أي فى القاهرة ـ من أجل تزويد هذه العناصر بالسلاح

الإسرائيلي ـ الذى يثق فيه وفى فاعليته التاجر السعودى ـ كذلك يتفاوضان مع نميرى السودان ليمنحهما قطعة أرض فى سودانه بتكاليف باهظة ليدربا فيها قوات الغزو توطئة لخلع الخومينى .

فى النهاية ـ وطبقا لما جاء فى الكتاب ـ يسلم الأفاق الإيراني خطط المعارضة للجانب الآخر و أسماء كوادرهم و أماكن الأسلحة فيقبض على ثلاثين منهم ويعدموا وتفشل الخطة .

هذا الأفاق أصبح لديه بهذه الخيانة " مسمار جحا " داخل إيران الجديدة اسمه كينجارلو Kingarlou ويعمل نائبا لرئيس الوزراء الإيراني حسين موسافى .. سيادة النائب هذا مرتشى .. خبيث مراوغ يتقاسم أرباح صفقات الأسلحة مع صديقه الأفاق.

ويدخل بنا المؤلف فى متاهة طويلة من " الرغى " حول رجل مخابرات إسرائيلي يدعى نير Nir وآخر من رجال البيت الأبيض يدعى نورث North وعدد آخر من تجار الأسلحة والأفاق الإيرانى ونائب رئيس الوزراء المرتشى ورئيس المخابرات المركزية وقائد الكورس مستر ماكفرين الذى وصفه ريجان بأنه " بطل قومى " .

ويدور ابتزاز طويل المدى ومتكرر لمبادلة الرهائن بالسلاح وقطع الغيار الأمريكية وتوضع نقود فى حسابات سرية ـ يذكر أرقامها مؤلفنا ـ وتتحرك وفود عبر عواصم العالم ويتم تسجيل مكالمات تليفونية ويوضع الأفاق الايرانى تحت رعاية جهاز كشف الكذب الذى يصل الى نتيجة أنه كذب فى عدد 13 سؤال من 15 وأن ما صدق فيه فقط هو اسمه ومكان ميلاده ... وينتج عن ذلك أن تتسلم إيران صواريخ Tow المضادة للدبابات ولكنها ترفضها لأن إسرائيل أرسلت لها نماذج قديمة عفى عليها الزمن واحتفظت لنفسها بالأنواع الجديدة وتتأزم الأمور وتكاد رقاب تقطع ورؤوس أن تطير .. ثم يعاد الاتصال ويفرج عن رهينة أمريكية ثم يعاد الابتزاز الإيراني فيطلبون صواريخ هوك مضادة للطائرات وقطع غيار وتتم مغامرات لنقلها عبر البرتغال ثم عبر إسرائيل ويربح التجار ملايين الدولارات ويستمر الحال على ما هو عليه .

قائد الكورس مستر ماكفرين أحد مساعدى الرئيس ريجان يرى أنه لو أنشأ صلة مباشرة مع القيادة الإيرانية فسيقطع الطريق على تجار السلاح وموساد إسرائيل .. فيذهب الى طهران بعد مناورات وحكايات وألاعيب واختلافات واتفاقات ... يحمل معه حلويات " شكولاته " لكى تبدأ المفاوضات وفى الفم طعم الحلاوة .. ولكن القادة الإيرانيون الصائمون يمتنعون عن أكل الحلوى ويعاملونه معاملة خشنة وتفشل مهمته ويقول المتحدث الإيراني الرسمى رافسنجانى " أمريكا غير قادرة على هزيمة الثورة الإسلامية .. هاهم الزعماء الأمريكيون يحضرون لنا زاحفين ".

حدوتة طويلة عريضة مملة تنتهى بأن يستلم الإيرانيون قطع الغيار لصواريخ هوك ولا يدفعون ثمنها .

هذه الصفقة كان الملياردير السعودى مع آخرين كنديين قد مولوها كعادته طمعا فى ربح سريع يصل الى ملايين الجنيهات خلال أيام .. وهكذا يخسر عشرة ملايين دولار .. ويرفض الأمريكيون تعويضه وتحل اللعنة على الأفاق الإيرانى .. وتحاول المخابرات الأمريكية فتح قناة أخرى لا تشترك فيها الموساد أو الحرس القديم فتجد القناة الأولى والقناة الثانية قد التقتا فى شخص نائب رئيس الوزراء الإيرانى المرتشى .

وهكذا تكتمل جميع عناصر القصة البوليسية لتبدأ معزوفة النهاية بتسرب ـ عامد ـ لتفاصيل المأساة لجريدة شيعية لبنانية صغيرة فى البقاع .. ثم للجرائد الأمريكية ثم تربط الأموال الناتجة عن تجارة السلاح بمعاونة ثوار الكونترا .. ليطلب الكونجرس التحقيق ويجلس أبطال التراجيديا أمام لجان الاستماع يلقون بكل المسئولية على إسرائيل .. ويصمت القادة الإسرائيليون حفاظا على علاقات الود مع ريجان ورجاله .. وعندما تتطور الأمور لتصبح " إيران جيت " ويبدو أن ريجان سيلحق بنيكسون صاحب " ووتر جيت ".. يتشاور بيريز وشامير ورابين ويتصل بيريز بالمدعى العام الأمريكى " أدوين ميس " ويلقى بيان فى القدس يوم 25 نوفمبر 1986 يقول فيه

" حكومة اسرائيل تؤكد بأنها ساعدت فى نقل أسلحة دفاعية وقطع غيار من الولايات المتحدة لإيران بناءً على طلب حكومة الولايات المتحدة . قيمة هذه المعدات نقلت مباشرة بواسطة مندوب إيراني الى بنك سويسرى طبقا لتعليمات المندوب الأمريكى دون أن تدخل هذه الأموال اسرائيل .

وحكومة اسرائيل تبدى دهشتها لم قيل عن أن بعض هذه الأموال قد تم تحويلها لصالح الكونترا .. وهو الأمر الذى لا شأن لإسرائيل به .. ولا علم لحكومة اسرائيل بحدوثه .. وليكن من المعلوم أن اسرائيل تأبى أن تكون أو تصبح وسيلة انتقال لمثل هذه التحويلات "

نقلا عن جريدة معاريف الصادرة بتاريخ 26 نوفمبر 1986

وهكذا أنهى السيد الكابتن صمويل سجاف ضابط المخابرات الإسرائيلية كتابه المثلث الإيراني .. كتاب دعائي رخيص من النوع الذى تنتجه مخابرات أى بلد فى العالم .. لذلك فهو ـ وبالرغم من كل فنون الكتابة التى حاولها مؤلفه ـ كتاب ممل للغاية .. كان يكفى أن يكتب فيه بيان الحكومة الإسرائيلية الأخير لكى يؤدى الهدف منه ولكن

إذا صبرت .. وصابرت واستكملت قراءته فستحصل على بعض الفائدة أولها فى رأيى أن أمريكا ـ هذه ـ ذات الهيل والهيلمان تقف عاجزة أمام حفنة من رجال الشيعة اللبنانية لا تستطيع اختراقهم أو ابتزازهم أو التأثير عليهم .

بنفس القدر نجد أن رجال الخومينى الذين وصفهم مايسترو الأحداث مستر ماكفرين فى رسالة شفرية له من طهران أثناء زيارته قائلا " حاول أن تتصور أن هجوما ذريا قد حدث فأدى الى فناء كامل والى أن يتولى من تبقى على قيد الحياة السلطة فأصبح ترزيا نائبا للرئيس وشابا حديث التخرج وزيرا .. وكاتب أرشيف مسئولا عن تنظيم العلاقات الخارجية ..... هكذا هم فى إيران " .

ومع ذلك استطاعوا هؤلاء أن يلعبوا بكل المؤسسة الأمريكية العملاقة يبتزونها ويأخذون منها ما يريدون دون أن يقدموا شيئا فى المقابل .

ثم تأمل معى هذا الموقف الغريب لصناع القرار فى الحكومة الأمريكية وكيف يزودون العراق بصور جوية لأماكن القوات الإيرانية على الجبهة وفى نفس اللحظة يزودون الخصم بصور أخرى وتقارير وأسلحة وقطع غيار ... ماذا يريدون منا ؟ .. غير استمرار القتال والصراع واستهلاك ثرواتنا فى شراء أدواتهم الجهنمية البشعة.

قراءة حديثة فى كتاب قديم

" بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الأول لابن اياس "

قصة حكام مصر العرب كما وردت بالكتب القديمة

مدخل القصة

يحكى عن خالد بن يزيد " أنه بلغه أن عمرا قدم الى بيت المقدس للتجارة فى نفر من قريش " .. وكانت الجماعة ترعى ابلها خارج المدينة فى نوبات بينهم ... فى يوم شديد الحرارة كانت نوبة الرعى على عمرو عندما " مر عليه شماس من شمامسة الروم من الإسكندرية قدم للصلاة من بيت المقدس " . فخرج يسيح بين شعابها فضل الطريق و أصابه العطش " فسقاه عمرو من قربة له حتى روى ونام ".

من حفرة بجوار مرقد الشيخ خرجت حية ضخمة " فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم قتلها " . عندما استيقظ الشماس و رأى الحية أقبل على عمرو فقبل رأسه وقال " قد أحيانى الله بك مرتين " .

أراد الشماس أن يكافئ عمرو فسأله " أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى ؟ " عندما عرف أنها مائة من الإبل أى ما يوازى ألف دينار وعده ان هو تبعه الى الإسكندرية أن يمنحه ديتين أى ألفى دينار .

فى ذلك الوقت كان أقصى ما يصبو إليه عمرو من رحلته الى بيت المقدس وتجارته أن يربح ما يكفى لشراء بعير جديد يضيفه الى بعيريه فجاء عرض الشماس شديد الإغراء بحيث تبعه مع آخر " الى مصر حتى انتهى الى الإسكندرية فرأى من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير " ما جعله يقول " ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما بها من أموال " ... ثم أن الشماس أوفى بوعده بعد أن جمع من أهل الإسكندرية قيمة الديتين و أكرم عمرو ومن معه ثم صحبهما الى الحدود بحيث " عرف مدخلها ومخارجها " وعاد الى بيت المقدس يحمل بين يديه ثروة قال عنها " وكان هذا أول مال اعتقدته وتأثلته " .. فلازال حلاوة طعمه فى فمه حتى قاد جيوش العرب بعد ذلك متخطيا العريش ومعه أربعة آلاف مقاتل وقيل بل كانوا " ثلاثة آلاف وخمسمائة " لا يواجهه الا مقاومة يسيرة حتى وصل الى بلبيس " فقاتلوه بها نحو شهر حتى فتح الله عليه ... " ثم مضى فى طريقه لا يدفع الا بالأمر الهين أى لا يعطل زحف جنوده شىء حتى أتى أم دنين (قرب ميدان رمسيس الآن) فقاتلوه بها قتالا شديدا و أبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف إتمام ثمانية آلاف فقاتلهم ".

" فسار عمرو بمن معه حتى نزل عن حصن فحاصرهم ... "

" .. إن عمرو ابن العاص حصرهم بالقصر الذى يقال له : بابليون حينا وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم و يمسيهم .. فلما أبطأ الفتح عليه كتب لعمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف : الزبير بن عوام و المقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقال عمر : اعلم أن معك اثنى عشر ألف ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة .. "

" فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير : انى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين .. فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد و أمرهم إذا سمعوا تكبيرة أن يجيبوه جميعا " .

" فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبّر و كبّر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد الزبير و أصحابه الى باب الحصن ففتحوه ... "

عمرو بن العاص بعد اقتحامه حصن بابليون وهروب المقوقس الى جزيرة الروضة دعاه الى ثلاث خصال " ليس بينى وبينك إلا ثلاث خصال إما تدخل الإسلام و إما تعطى الجزية وتكون آمنا على نفسك من القتل و إما تقاتلنا ونقاتلك "

قال المقوقس لمن حوله " أطيعونى و أجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث أما دخولكم فى دينهم فلا أمركم به .. و أما قتالكم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم و لا تصبروا صبرهم ولكن افعلوا الثالثة ".

قالوا : " أفنكون لهم عبيدا ؟ " قال " نعم تكونوا عبيدا أنتم و أولادكم الى أن تموتوا عن آخركم " .

وهكـــــذا

فرضت الجزية الفردية والجماعية على ثمانية آلاف ألف إنسان غير الروم " كما حدد ابن الحكم أى حوالى ثمانية ملايين نسمة استبد بهم اثنى عشر ألف عربى و كانت دينارين على كل رأس من القبط ثم ثلاثة دنانير فى عهد معاوية هى كل ما كان يمكن للفقير أن يدخره فى عام .

ثم جاءت الأخبار بأن ملك الروم أرسل عسكرا عظيما فى البر والبحر فلما سمع ذلك عمرو خرج إليهم بمن معه من العربان فتلاقوا فى الكريون ...... فلم تكن إلا ساعة وقد فتح الله على المسلمين بالنصر على عساكر الروم فقتل فى ذلك اليوم من عساكر الروم ما لا يحصى عددهم .

بعد ذلك بتسعة أشهر فتحت الإسكندرية قال بن الحكم " وكان فتح الإسكندرية عنوة بغير عهود ولا صلح " .

ذكر بن الحكم عن عن عن " لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال " اقسمها يا عمرو " فقال عمرو " والله لا أقسمها حتى أكتب لأمير المؤمنين "

حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن عن عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن " أن عمرو بن العاص فتح مصر بغير عهد ولا عقد و أن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شئ نظرا للإسلام وعهده "

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مصر ولاية كالوقف الذى يصرف من ريعه على الإسلام وعهده أو بكلمات أخرى الممول الرئيسى لبيت المال بخراجها ودرها وصرها .

ولأن عمرو كان من دهاه العرب العارفين بأمور السياسة فلقد سلك الدرب المناسب.. أمن البطريرك بنيامين على حياته فعاد بعد هروبه من الروم بالصحراء الى الإسكندرية ولم يعاد المقوقس كبير الروم بل استفاد من خبرته الطويلة فى حكم مصر عندها قال له المقوقس

" أنى رأيت الذى يقوم بعمارة أرض مصر .. حفر خلجانها و إصلاح جسورها وسد ترعها ولا يؤخذ خراجها إلا من غلالها ويحجر على عمالها من المطل ويمنعهم من أخذ الرشاء ويرفع عن أهلها المعادن والهدايا ليكون قوة للمزارعين على وزن الخراج " .

ولكن عمر بن الخطاب كان له رأيا آخر فقد بعث الى عمرو وكتب له " أما بعد فإنكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام وأكلتم الحرام و أورثتم الحرام وقد بعثت إليك محمد بن

مسلمة الأنصارى ليقاسمك مالك فأحضره مالك " . ولم يذكر ما إذا كان ما سيقتسمه هذا حرام أم حلال .

وكان عمر قد كتب له من قبل :

" فإني فكرت فى أمرك و الذى أنت عليه فإذا أرضك واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وانه قد عالجها الفراعنة وعملوا بها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك و أعجب ما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج ... وقد أكثرت مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق ... و عندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهز يخرج الدر ..." ولكن عما كل هذا النهز ! " ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكننى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى هذا فأحمل الخراج فإنما هو فئ المسلمين وعندى من تعلم قوم محصورون ... "

وهكذا حدد عمر بن الخطاب سياسة حكم مصر والهدف من احتلالها منذ البداية فهى فئ لقوم محصورون أو بمعنى أدق أصبحت مزرعة الجزيرة العربية بعد أن كانت مزرعة روما ....
عثمان بن عفان عندما تلا عمر عين عبد الله بن أبى سرح على كل مصر بعد أن ولاه عمر وجه قبلى والفيوم رغم ما عرفه كلاهما عنه من ارتداده عن الإسلام و إحلال الرسول لدمه عند دخوله مكة ... هذا الجبار الفاجر زاد من الخراج حتى أن عثمان عاتب الوالى المخلوع عمرو بن العاص قائلا : " درت اللقحة بعدك يا أبا عبد الله بأكثر من درها الأول " .. فرد عمرو " نعم ولكن أجاعت أولادها " وفى قول آخر " أضررتم بولدها " .

معاوية بن أبى سفيان زاد الجزية على أهل مصر عندما حكم الأمويون بمقدار خمسين بالمائة بدعوى أن مصر فتحت عنوة لا صلحا وفرض الجزية على من أسلم من أهل مصر أن يستمروا فى دفعها رغم إسلامهم يقول الأستاذ سليمان فياض فى كتابه " الوجه الآخر للخلافة الإسلامية " (فكان هناك مسلمون عرب لا يدفعون جزية فى الدولة الأموية لأنهم (مواطنون درجة أولى) ومسلمون غير عرب (مواطنون درجة ثانية) يدفعونها وتزداد عما سنه عمر بن الخطاب " .

المصريون لدى العرب كما ذكر المسعودى " نساؤها شر نساء الأرض وعندهم خبث ودهاء ومكر ورياء وهى بلد مكسب لا مسكن أهلها شر فكن منهم على حذر ".

أبو الصلت أيضا قال " أهل مصر الغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات وعندهم مكر وخداع ولهم كيد وحيل .. " .

كعب الاحبار عندما قسم الأرزاق على دول العالم كان نصيب مصر لديه أن " الخصب قال أنا لاحق بمصر فقال الذل و أنا معك ... "

عندما دخل العرب مصر وجدوا أهلها قد سادت بينهم السلبية والريبة والتوجس من الغرباء بعد أن عانوا لمئات السنين من قهر وظلم الفرس و الإغريق والبطالسة والرومان والبيزنطيين بحيث بدوا للغزاة الجدد بهذه الصفات البشعة التى وصموهم بها .. الغريب أن العرب أيضا حرصوا على استمرار الأوضاع كما كانت عليه و تأصيل الخضوع مع حرمان سكان مصر من المشاركة فى

الحكم أو الدفاع عن بلدهم ليتحولوا بمضى الزمن الى أقنان إن لم يكونوا عبيدا يعملون فى الأرض للوفاء بالخراج والجزية الفردية والجماعية لا فرق فى ذلك بين من أسلم منهم ومن لم يسلم .

لقد كان الخليفة ـ أيا كان ـ يولى مصر لمن يلتزم بتوريد قدر معين من الأموال لخزانته السنية .. الوالى يقسمها بعد ذلك الى مناطق يقطع كل منها الى ملتزم وكان " الملتزمون يجتمعون فى جامع عمرو فينادى عليهم منادى صفقات صفقات فى صورة مزادات مدتها أربع سنوات ومن يرسو عليه مزاد الالتزام بتولى تحصيل الخراج من المزارعين فى أقساط ... " تغطى نفقاته و أرباحه ونفقات الوالى وجنوده وعماله و أرباحه وتسدد ما التزم به للخليفة بحيث تجمع لأغلبهم أموال طائلة تصرفوا فيها فى غاية السفاهة والجنون .. كما سنرى فى الصفحات التالية .

المصرى كان عليه أن يدفع سواء كانت الأيام أيام رخاء أو كانت أيام قحط أو طاعون أو حروب وفى هذه الأيام كانت المزارع والبيوت والأجران تصبح عرضه لنهب قبائل العرب المتحلقة حولها أما النساء والأطفال فكانوا عرضه للسبى والخطف ليباعوا فى أسواق النخاسة فلا عجب أن يصبح المصريون مع مرور الزمن فى رأى ابن اياس كما ذكر فى باب " طبائع أهل مصر " " أن أمزجتهم و أخلاقهم بعضها شبهها بعض فان أبدانهم سخيفة سريعة التغيير قليلة الصبر والجلد وكذلك أخلاقهم تغلب عليها الاستمالة والانتقال من شئ الى شئ وعندهم الجبن والقنوط والشح وقلة الصبر على الشدائد وسرعة الخوف من السلطان وعندهم قلة الغيرة على عيالهم وعندهم التحاسد فى بعضهم وكثرة الكذب و ذم الناس ... حتى قيل أن كلابهم أقل جراءة من كلاب البلدان الأخرى و (إن الأسد إذا دخلت مصر ذلت).

أولا القادمون من الشرق (العرب الولاة)

من عمرو بن العاص حتى جوهر الصقلى من 18هـ الى 358 هـ

قال بعض المؤرخين " تولى على مصر اثنان وسبعون أميرا أولهم عمرو بن العاص و آخرهم أبو الفوارس أحمد الإخشيدى ولم ينفرد بخراجها إلا الأمير أحمد بن طولون " .

الفترة التى تغطيها العبارة السابقة أى منذ حكم العرب حتى حكم الفاطميين حوالى 340 سنة هجرية حكم فيها مصر 72 والى عينهم الخلفاء الراشدين وبنى أمية وبنى عباس بمعدل والى كل 5 سنوات والحقيقة كما جاءت بكتاب ابن اياس قد تكون أكثر من هذا العدد .. حيث أن بعضهم لم يكمل الشهر والبعض الآخر تولى لأكثر من مرة طبقا للحالة المزاجية للخليفة أو لحجم الأموال التى يرسلها الى المدينة أو دمشق أو بغداد ... ومنهم عبد الله بن أبى السرح الذى زاد بالخراج عما كان يجبى أيام المقوقس فقال عنه عمرو " ان هذه الزيادة التى أخذها عبد الله بن أبى سرح إنما هى على الجماجم " ثم يعلق بن اياس " وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر بعد الإسلام " ومنهم محمد بن أبى بكر الذى عينه الخليفة على بعد مقتل عثمان بواسطة العرب ساكنى مصر والعرب ساكنى الكوفة " فثارت عليه الشيعة بسبب ثأر الإمام عثمان وطاردوه فى الفسطاط حتى هرب عند عجوز أخوها يبيع الفجل بالمدينة " ... " وعندما قبضوا عليه ضربوا عنقه بالسيف و أدخلوا جثته فى جوف حمار و أحرقوه وعندما عرف أهل عثمان هذا لبست نائلة بنت القرامصة زوجة الإمام عثمان قميص القتيل الملوث بدمه و رقصت فيه بين الملأ " .

ومنهم عبد الرحمن بن جحدم القرش الذى ولاه الزبير بعد موت يزيد بن معاوية " فوثب عليه مروان بن الحكم الأموى فقاتل عبد الرحمن فانهزم وهرب الى الصعيد وملك مروان مصر فولى ابنه عبد العزيز " .

ومنهم عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس الذى ولاه عبد الله السفاح أول خلفاء بنى عباس بعد أن طارد آخر الخلفاء الأمويين - الذى هرب الى مصر - عبيد الله بن مروان الحمار عام 133 هـ فهرب الى النوبة طالبا الحماية من ملكها الأسود اللون فرفض حمايته بعد أن لقنه درسا فى أصول الحكم من خلال مترجم قائلا :

" قل له فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم بقرابة و أنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمر .. وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم و تركبون فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم و لم يفعل نبيكم شيئا من هذا ؟ وبلغنا منك لما وليت مصر كنت تخرج الى الصيد وتكلف أهل القرى .. وكل هذا لأجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف وهذه بدع اخترعتموها من أنفسكم " .

" ولما استحللتم ما حرم الله عليكم سلبتم ملككم و أخذ منكم و أوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها عنكم و أنا أخاف على نفسى إن أنزلتك عندى فتحل بى تلك النقمة التى حلت بكم .. ولكن أرحل عن أرضى بعد ثلاثة أيام وإلا أخذت ما معك من الأموال وقتلتك " .

ومنهم عمر بن مهران الذى ولاه الرشيد على مصر وكان شنيع الخلقة زرى الشكل أحول العينين وسبب ذلك أن الرشيد بلغه عن موسى الحطيب (الوالى السابق) أنه قال " أنا أحسن من هارون

الرشيد " فقال الرشيد والله لأولين على مصر أوحش الناس شكلا " فاستدعى عمر بن مهران وولاه على مصر .

ومنهم الأمير عيسى بن يزيد الجلودى الذى اضطربت أحوال الديار المصرية فى أيامه و ثار بمصر رجلان وهما عبد السلام وابن جليس وخرجا عن طاعة أمير المؤمنين المأمون واستحوذا على القرى وبايعهما طائفة من القيسية واليمانية فتسببا فى أن يغزو أخو المأمون مصر ويقتل الرجلين ويقيم فى مصر مدة ثم يرحل .

ومنهم الأمير عيسى بن منصور الرافقى الذى ثارت مصر فى عهده فغزاها المأمون مؤنبا إياه " هذا كله من سوء تدبيرك وجورك على أهل القرى وقد حملت الناس ما لا يطيقون وكتمت الأمر عنى حتى عظم ! "

ثم أن المأمون عين الأفشين وكان شجاعا فأخذ طائفة من العسكر وتوجه الى أعلى الصعيد وحارب أهلها وقتل منهم جماعة كثيرة و أسر النساء والصبيان وكان أكثرهم من القبط والحوف .

ومنهم الأمير أحمد بن محمد بن المدبر الذى أحدث فى أيامه أنواعا من وجوه الظلم لم تكن بمصر . منها أنه حجر على الأطرون (النطرون) والملح وكانا مباحين للناس ومنها أنه قرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا وسماه المراعى وقرر على مصايد الأسماك مالا وسماه المصايد و أحدث من هذه المظالم أشياء كثيرة ..... فلما جرى ذلك رحل غالب أهلها من الظلم وانحط خراجها فى أيامه الى الغاية حتى بقى ثمانمائة ألف دينار .

ومنهم أحمد بن طولون الذى عينه الخليفة المستعين بالله فجاء مصر وكان ضيق الحال يحتقره من يراه وكان بمصر شخص من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادى وكان فى سعة من المال ... فلما رآه فى ضيق حال بعث إليه عشرة آلاف دينار فقبلها منه ... عندما مات أحمد بن طولون خلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف ألف دينار (عشرة مليارات) ومن المماليك المشتروات سبعة آلاف مملوك ومن العبيد الزنج أربعة وعشرين ألف عبد ومن الخيول سبعة آلاف فرس ومن البغال ستة آلاف بغل ومن الجمال عشرة آلاف جمل ومن الفصوص والجواهر مائة صندوق ومن المراكب الحربية ألف مركب هذا خارجا عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك . يقول ابن اياس .. كان شديد الغضب سيئ الخلق سفاكا للدماء إذا قدر لم يعف حتى قيل مات فى حبسه ثمانية عشر ألف إنسان .

ومنهم خمارويه والد قطر الندى التى تزوجها المعتضد بالله فنقل جهازها من مصر الى بغداد فى ستة أشهر .. وكان من جملة ما ذكر به مائة هاون ذهب و ألف سروال حرير وفى كل سروال جوهرة قدر بيضة الحمامة ... خمارويه هذا ذبحه خدامه .. كذلك خليفته أمير الجيوش قتل .

ومنهم العبد الخصى كافور الاخشيدى ـ حتى الخصيان حكموا مصر ـ والذى قال عنه المتنبى

لا تشترى العبد الا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

من علم الأسود المخصى مكرمة أقومّه البيض أم آباؤه الصيد

ثم انتهوا بأبو الفوارس الذى هرب من جوهر القائد عند غزوه مصر يوم الجمعة تاسع عشر شعبان سنة ثمانية وخمسين وثلاثمائة .

عمرو بن العاص عندما امتلك مصر .. وضع نظام الحكم الذى سار عليه أغلب الولاة الذين حكموا بعده .. من أخذ الخراج والجزية الفردية والجماعية الى مصادرة الأموال (الكنوز) والبحث عنها مع الأقباط فى آثار الفراعنة حتى لو اضطرهم هذا الى هدم الأهرامات والمعابد والحصون .

ولم تكن من أولويات عمرو ومن تبعه أن يغير أهل البلد من دينهم ويدخلون الإسلام ما دامت الخزانة تمتلئ بأموالهم .. ولم يتغير وضع المصرى الذى أسلم عن أخيه الذى لم يسلم فكلاهما كان مطالبا بأن يدفع لبيت المال .. خاصة أهل الإسكندرية والقرى المحيطة الذين عاقبهم عمرو على مناصرتهم للروم ومقاومتهم له عندما فتحها مرتين.

فبعد فتح مصر

" اجتمع رأى الصحابة على أن يفرضوا على كل رأس من القبط دينارين وليس على الشيخ الفانى ولا الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء من الجزية ... وعلى أن للمسلمين عليهم النزول والضيافة حيثما كانوا فى القرى مقدار ثلاثة أيام "

" والجزية كانت جزيتان فجزية رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية (جميعا) فمن هلك من أهل القرية التى عليهم جزية تصبح مسماه على القرية ليست على رؤوس الرجال "

وظلت هذه الجزية مطبقة على من أسلم ومن لم يسلم " وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم و أول من وضع الجزية عن من أسلم من أهل الذمة هو عمر بن عبد العزيز فقد كتب الى حيان بن سريج : أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فان الله تبارك وتعالى قال : فان تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فأخلوا سبيلهم .... " ثم عادت بعد وفاة عمر .

" ثم أن عمرو عندما استقر فى مدينة الفسطاط جمع القبط وقال لهم : من كان عنده كنز وكتمه عنى ضربت عنقه ..." " فوجد مخبأه أسفل الفسقية فيها ذهب دنانير مسبوكة كعرمة القمح فنقله بالقفاف الى داره ثم أنه اكتال الربع فإذا هو اثنان وخمسون إردبا [كما نقله إبراهيم بن وصيف شاه فى أخبار مصر] .. ثم أن عمرا احضر بطرسا بين يديه وضرب عنقه بحضرة جماعة من القبط فلما رأوا ذلك صار كل من كان عنده كنز أحضره بين يدى عمرو وإلا صار مثل بطرس " .

البعض أوحى لعمرو أن بأسفل منار الإسكندرية كنز " فأمر عمرو بهدم المنار وقلع المرآة التى كانت به فلما هدموه الى مقدار الثلث فلم يجدوا فيه شيئا من المال ... ثم شرع عمرو فى بناء ما هدم ووضع المرآة كما كانت أولا فبطل فعلها من حينئذ".

سقطت هذه المنارة بعد ذلك أثر زلزال فى العصر الطولونى فى زمن هارون بن خمارويه.

لقد كانت مصر لغزا مبهرا لحكامها الجدد

عندما انخفض النهر ذهب المصريون الى عمرو يطلبون التضحية بفتاة للنيل حتى يفيض فأرسل الى عمر بن الخطاب " فلما وصل إليه وعلم ما فيه كتب بطاقة و أرسلها لعمرو و أمره أن يلقيها فى النيل (بدلا عن الفتاة) فلما وصلت إليه البطاقة فتحها وقرأ ما فيها فإذا مكتوب (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر .. أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك " . يقول ابن اياس أن النيل ارتفع فى نفس اليوم 12 ذراعا بعد أن رمى عمرو فيه خطاب عمر بن الخطاب .

وهكذا تصرف المأمون عندما دخل مصر ليخمد ثورة ضد الخلافة العباسية " لما دخل المأمون مصر رأى الأهرامات فأمر بفتح الهرم الأكبر فلما انتهى فيه الى عشرين ذراعا وجد هناك مظهره خضراء فيها ذهب مضروب زنة كل دينار أوقية وكان عددها ألف دينار " .

وسنعرف أن هذا حدث أيضا فى زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك كما سيذكر فيما بعد بمعنى أن الولاة والخلفاء لم يتوانوا عن نهب ما تصل إليه أيديهم لا يختلف فى ذلك زيد عن عبيد .

" وكان هؤلاء الأمراء إذا تولوا على مصر يسمون عمال الخراج بمصر وكانت الخلفاء يشترطون عليهم فى كتب تقليدهم المال الذى يلتزمون به وعليهم الهدايا والتقادم : الخيول العربية والبغال الحبشية والجمال البجاوية والثياب الديبقية ومقاطع الشرب الاسكندرانية والطرز البهناسوية و إجلال الخيل والستور الفيومية والعسل النحل المصرى من عسل بنها وغير ذلك من الأصناف التى لا توجد الا بمصر ".

حتى أن عمرو بن العاص لما سلسل فى المرض وأشرف على الموت " أحضر ما جمعه من أموال القبط لما فتح مصر وقال لولده عبد الله " إذا أنا مت فأردد هذه الأموال التى جمعتها الى أصحابها " فلما مات وسمع معاوية أرسل فأخذها قال " نحن أحق بهذه الأموال لدفع العدو .. " " وكانت سبعين جرابا من جلد ثور كامل " .

المأمون العباسى أيضا " فدخل عليه المال من هذه السرحة نحو أربعة الألف ألف ألف دينار (أربعة مليارات) غير الهدايا والتحف ففرق على عسكره لما رجع بغداد لكل واحد ملئ كفه ذهبا .

أحمد بن طولون ... تذكر ما تركه بعد موته .. وفى كتب التاريخ وصفا لبذخ خمارويه عندما زوج ابنته قطر الندى للخليفة العباس .

والسؤال الآن : هل اختلف سلوك العرب عن سلوك قمبيز عندما غزا الفرس مصر أو أباطرة روما بعد أن اندحرت كيلوباترا و أنطونيو .. أو ما حدث بعد ذلك عندما قضى سليم الأول على المماليك و احتل مصر.. لقد كانت هذه سمة هذا الزمان .. ولم يختلف العرب فيها عن سواهم حتى وهم يحملون راية الإسلام !! والدليل على ذلك يمكن أن يكون واضحا إذا استعرضنا بسرعة ماذا فعل الزمن بالعرب عبر 656 سنة منذ هجرة المسلمين الى المدينة حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على يد التتار .

المتأمل لصعود وسقوط الإمبراطورية الإغريقية ويقارنها بما حدث للعرب والتتار والرومان والترك وغيرها من إمبراطوريات الزمن القديم سيتخيل أن التاريخ يكرر نفسه بصورة أقرب الى قوانين الحتمية الطبيعية .

ففيليب المقدونى الذى وحد الشيع اليونانية المتحاربة المتصارعة تحت علم الفلسفة اليونانية والديموقراطية الأثينية لم يشهد نتاج هذه الوحدة وكيف أسس خليفته الاسكندر الأكبر إمبراطورية مترامية الأطراف .. عندما مات الاسكندر تقاسم الإمبراطورية قواده ثم بدأ التدهور المصاحب للرفاهية فالركود حتى قضى الرومان على الإمبراطورية الإغريقية وحلوا محلها .

العرب المتناحرون أيضا وحد بينهم الإسلام فقويت شوكتهم حتى نهاية حكم الخليفة الأول للرسول ليقوم الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بما قام به الاسكندر فيؤسس إمبراطورية مترامية الأطراف تكاد تتطابق مع إمبراطورية أثينا .. عندما يُغتال عمر تتفتت الإمبراطورية بين الشيع المختلفة ويستقل البعض بولايات تتدهور بها مصادر القوة بعد تفشى الرفاهية والإسراف حتى يقضى عليها التتار ثم الأتراك بقيادة سليم الأول .

وهكـــــذا

فالدعوة التى جمعت العرب على كلمة سواء استمر دفعها حتى نهاية حكم خليفة رسول الله الأول .. وعندما بدأت جيوش العرب تخرج من الجزيرة داعية الأمم المحيطة الى الإسلام فتستسلم أمة بعد

أمة أمام زحفها وتحقق انتصارات كانت كالخيال على جيوش الفرس والرومان فى العراق والشام ومصر بحيث أصبح عمر بن الخطاب حاكما على إمبراطورية لم يحلم بحكمها أباطرة الرومان أو أكاسرة الفرس كان جنوده " إنما قووا على ما قووا عليه وظهروا على البلاد لأنهم لا يطلبون الدنيـــا ولا يرغبون فى شئ منها " ... " انهم قوم الموت أحب الى أحدهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقتل يتمنى ألا يرجع الى أهله و لا بلده ولا ولده ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون : انهم ان قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة إلا قدر بلغة العيش من الطعام واللباس .... " لذلك حققوا انتصارات سريعة وحاسمة ولكن عندما عين على الأقاليم المملوكة ولاه مثل سعد بن أبى وقاص على مدائن كسرى وعمرو بن العاص على مصر ومعاوية بن سفيان على الشام ـ رغم أنه كان آخر المسلمين الذين أسلموا بعد فتح مكة وكانت أمه هند معادية للمسلمين حتى أنها أكلت كبد عم الرسول حمزة ـ تكونت بين أيديهم ثروات هائلة ونفوذ وقوة لم يحزها إلا الأكاسرة .. ففجر بريق الذهب والسلطة كل خلافات الماضى التى كانت بين عرب الجنوب اليمنى وعرب الشمال أو الأوس و الخزرج الأنصار أو بنى أمية وبنى هاشم المهاجرين أو بين الأنصار والمهاجرين ككل .. وبين العرب والموالى من فرس وقبط وروم وترك هذه الخلافات انفجرت مباشرة بعد اغتيال عمر بن الخطاب وترشيحه لعدد 6 من الصحابة ليس بينهم أنصارى واحد اذ كانوا ثلاثة من بنى أمية وثلاثة من بنى هاشم.

ثم زادت هذه النبرة حدة بعد أن تولى عثمان الخلافة وعين أقاربه ومعارفه ولاه على الأمصار ونحى مستشارو عمر مثل على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وطلحة وغيرهم ليستبدلهم بمن هم ليسوا أهلا للثقة .

انتهى الموقف المأساوى بثورة عرب مصر والكوفة على الخليفة واغتياله فى منزله وهو يقرأ القرآن .. ثم مبايعتهم " على " لتتمزق الإمبراطورية بين المطالبين بدم عثمان والمشايعين للخليفة الجديد .

" و كانت حربا بين القبائل العربية المسلمة " أحيت كل سوءات الجاهلية ونزاعات بنى أمية وبنى هاشم السابقة على الإسلام... فكانت موقعة الجمل ثم موقعة صفين التى لجأ فيها المتحاربون الى التحكيم وتفوق عمرو لصالح معاوية على أبى موسى الأشعرى محكم " على " ..... انفرط عقد المسلمين لتظهر شيع جديدة من الخوارج المتشددين " " وصل عدد فرق الشيعة الى أكثر من اثنين وسبعين فرقة يكفر بعضها بعضا " الخوارج اغتالوا " على " وكانوا يهدفون الى اغتيال معاوية وعمرو فى نفس اللحظة ولكنهم فشلوا. بعد اغتيال " على " خلا المسرح لمعاوية فبايعه الحسن والحسين أبناء " على " بشرط ألا يورث الحكم من بعده إلا لمن يختاره المسلمون ... الدولة الأموية بدأت عصر الانهيار بعد أن تشبه خلفائها بالملوك والأباطرة وعم الفساد والجور فى كل أزمنتها عدا فترة سنتين وسبعة أشهر حكم فيها عمر بن عبد العزيز حتى اغتياله. الخلفاء الأمويون بدءا من " يزيد بن معاوية " خاضوا حروبا طويلة تحالف ضدهم فيها العلويين والهاشميين والفرس.. هذا غير الخوارج وبعد موقعة كربلاء التى قتل يزيد فيها الحسين بن على الثائر لنقض معاوية وعده لأخيه الحسن وتعيين ابنه خليفة له ظهر الشيعيين المؤيدين بالفرس ثم الزبيريين و انفجر صراع قبائل الشمال المضريين ضد قبائل الجنوب اليمنيين .. وفى النهاية اجتمعت جميع الأطراف ضد الأمويين وقادهم أبى العباس السفاح لتكون النهاية ثم يطارد فلولهم عشرة خلفاء عباسيين على مدى قرن .

كان همهم الأول تدمير كل ما يتصل بالأمويين حتى قبورهم نبشوها ومثلوا بجثث أصحابها .
الخلفاء الأمويين لم ينتصر لهم أحد من " الموالى الذين خضعوا للإسلام باعتناق الإسلام و بالطاعة والجزية حتى وان أسلموا فقد أزعجهم تعصب الأمويين للعرب والعربية ونظرتهم إليهم نظرة احتقار وازدراء لاعتقادهم أنهم أفضل الأمم وأن لغتهم أفضل اللغات فثارت فى الموالى روح الشعوبية وانتهزوا الفرص لتأييد كل معارض للأمويين من الزبيريين والخوارج والشيعيين ..... و أمن العباسيون الاستعانة بهم فى خاتمة المطاف" .

الأمويين قاتلوا " كل من تصدى لهم ووصل بهم الفجر الى درجة تدمير الحرمين المدنى والمكى بالأحجار والنيران وكرات النفط الملتهبة تقذفها المنجنيق وأباح يزيد بن معاوية مدينتى مكة والمدينة للجنود الشاميين " .

وهكذا تخلوا تدريجيا عن كل التقاليد والقيم التى جعلت من العرب قوة تحسب حسابها وكانت جيوشهم تتحرك تحت راية الجهاد لنشر الإسلام على حين تجبى قصور الخلفاء أفياء وغنائم الحرب فتزدان بالفسيفساء جدرانها وترتفع بها أعمدة من رخام مذهب وسقوفها ترصع بالجوهر ويخدم بها غلمان يتراوح عددهم فى كل قصر من أربعين الى ستين غلاما .

" وكان معاوية أول الخلفاء المسلمين الذى اتخذوا الحشم والحجاب على أبوابهم وكان له فى المسجد مقصورة تحرسها السيوف عند صلاته " وكان الخلفاء يرتدون أفخر الثياب المرصعة بالجوهر تشبها بقياصرة الروم أو كسرى الفرس كانوا يمسكون بأيديهم الصولجانات وخواتم الملك يختمون بها أوامرهم الخلافية .. وكانت رياضات التسلية كسباق الخيل أو الصيد منتشرة بينهم لدرجة " كلاب الصيد الأموية كانت لها أساور ذهب و أردية حريرية " .

حياة الترف هذه رفل فيها حتى من بقى من الصحابة كالزبير بن العوام الذى ترك بعد موته ثروة عظيمة وقصور بالبصرة والكوفة والفسطاط والإسكندرية وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص قاهر الفرس .... وكانوا يهبون البعض منهم كامل خراج إقليم ما مثلما حدث مع عمرو بن العاص عندما استخلص مصر من العلويين فوهبها له معاوية لمدة خمس سنوات .

خلفاء بنى أمية كان عددهم 14 خليفة أما العباسيون فقد كانوا 37 خليفة ليصبح اجمالى الخلفاء من أبى بكر حتى المعتصم بالله الخليفة العباسى الأخير 55 خليفة داموا لمدة 650 سنة هجرية هذا غير الخلافات المستقلة التى أقامها الأمويون فى الأندلس والفاطميون الشيعة فى مصر وكانت موازية للخلافة العباسية فى ذلك الزمن.

" الخلافة العباسية حين قامت أعلنت على لسان أبى العباس السفاح أنها ستحكم بالعدل وتقيم الشرائع .. ثم أنه وبعد أن استقر الأمر بهم لم يحققوا عدلا ولم يقيموا شرائع وتبعوا خطوات خلفاء بنى أمية فى القهر والسيطرة وتحول الدين لديهم الى شعار يرفعونه ليستندوا إليه فى حكمهم ويقيموا خلافة وراثية أو حكما أتوقراطيا من ألوان حكم الأسر الحاكمة التى سادت العالم الإسلامى منذ بدء الخلافة الأموية " . [سليمان فياض الوجه الآخر للخلافة الإسلامية] .

الترف والرخاوة التى صاحبت حياة الخلفاء التالين للتسع خلفاء الأوائل أدت الى سيطرة قادة الجيوش الأتراك وحريم القصر على الخلفاء الضعاف وتلاعبوا بهم حتى جاء الانهيار على يد المحتلين البويهيين ثم السلجوقيين والخوارزميين الذى جعلوا من الخلفاء دمى وواجهات يختفون خلفها ويحكمون .

هؤلاء الخلفاء معظمهم مات مقتولا.. أو مسموما... والبعض سلب نظره و أحدهم وقف يتسول مسلوب النظر أمام الجامع .. آخر مات فى قبو جوعان عطشان لأنه فشل فى دفع رواتب الجنود الأتراك .

تيمور لنك دخل بغداد عام 656 هـ لقتل الخليفة السابع والثلاثين المعتصم بالله و أسرته لتنتهى الخلافة العربية فى بغداد ... وتنتقل الخلافة مؤقتا الى مصر حيث استضاف المماليك بعض من سلالتهم توارثوا اللقب والمنصب حتى غزو سليم الأول مصر فتنتقل الخلافة من العرب الى الأتراك المسلمين ومن المدينة ـ دمشق ـ بغداد ـ القاهرة الى اسطنبول .

خلافة المسلمين انتهت بعد هزيمة الأتراك فى الحرب العالمية الأولى وتحول مصطفى كمال أتاتورك بتركيا الى العلمانية فى أوائل عقود القرن العشرين .

ثانيا : (القادمون من الغرب) الفاطميون الخلفاء

من جوهر الصقلى 358 هـ الى الناصر صلاح الدين 569 هـ

حكم مصر خلال هذه الفترة التى تزيد عن قرنين عدد 11 خليفة فاطمى أى بمعدل 19 سنة لكل خليفة وهم :

المعز لدين الله ـ العزيز بالله ـ الحاكم بأمر الله ـ الظاهر لدين الله ـ المستنصر بالله ـ المستعلى بالله ـ الآمر بأحكام الله ـ الحافظ لدين الله ـ الظافر لله ـ الفائز بنصر الله ـ العاضد بالله .

وكلها ألقاب أملاها المعز لدين الله عندما طلب منه بعض العلماء تزويدهم بألقاب تصلح للخلافة " فإذا ما تولى أحدهم لقب بها ".

معظم هؤلاء الخلفاء مات مقتولا .. و البعض تولى صبيا حتى أن أحدهم كان عمره ست سنوات عندما بايعوه على الخلافة.. و الكثير منهم كان مختلا عقليا حتى أن أحدهم ادعى الألوهية وطلب من الرعية الركوع له وواحد منهم فقد حياته لهيامه بابن (ليس ابنه) وزيره.

والمعز لدين الله كان رابع خلفاء بنى عبيد الله الذين كان مقرهم المغرب ثم أنه أرسل قائده جوهر وكان خصيا صقلى الجنس على رأس مائة ألف فارس فملك مصر من غير قتال ولا مانع يوم الجمعة 19 شعبان 358 هـ ليصبح ثانى خصى يحكم مصر لحين حضور سيده بعد 4 سنين فى شهر رمضان سنة 362 هـ .

جوهر الصقلى بعد استقراره فى مصر أمر المؤذنين أن يجهروا فى الأذان " بحى على خير العمل " والدعاء لعلى وفاطمة والحسن والحسين وعلى آل المعز لدين الله قائد الإيمان إعلانا على تحول مصر من المذهب السنى الى المذهب الشيعى .

المعز عندما دخل مصر حمل معه رفات أجداده فى صناديق من خشب ودفنها فى مدفن أسفل خان الخليلى الآن حتى تم نهبها مع الشدة المستنصرية وتدمير المقابر .

وعندما سأله ابن طبا طبا العلوى عن نسبه جذب نصف سيفه من غمده وقال هذا نسبى ثم أحضر أكياسا فيها ذهب وفرقه على الجند وقال وهذا " حسبى " ومنذ ذلك صارت مثلا " سيف المعز وذهبه " .

المعز بعد أن استقر فى مصر هاجمه الحسن بن أحمد القرمطى من الخوارج بجيش كثيف من العساكر .. وكان معه الأمير حسان بن الجراح الطائى الذى رشاه المعز بمائة ألف دينار فانسحب أثناء المعركة مظهرا أنه انكسر فضعفت شوكة عسكر الحسن بن أحمد وانهزم وولوا مدبرين , قال بعض المؤرخين " إن ذلك الذهب الذى أرسله المعز لحسان كان زغلا أى نحاس ملبس بالذهب فجعل الخالص فوق الأكياس والذهب النحاس أسفله " .

أيام المعز خرج بنو هلال على الحجاج فقتلوا منهم خلقا كثيرة وكان بنو سالم قد قطعوا الطريق من قبل على الحجاج و اخذوا منهم عشرين ألف بعير محملة قماش وبضائع ومال و أسروا الرجال والنساء .

ولقد كان يسب العباسيين حتى فى خطبه من على المنبر " نحن أفضل من خلفاء بنى العباس لأننا من ولد فاطمة بنت الرسول " .

" ومنع القبط مما كان يعمل فى يوم النيروز من صب المياه على الناس فى الطرقات ووقود النار فى تلك الليلة ومنعهم أيضا مما كان يعمل فى ليل الغطاس من نزول المراكب وضرب الخيام على شاطئ النيل قبالة المقياس...وهدد من يفعل ذلك بالشنق".

خليفة المعز الأمير العزيز بالله اتخذ لنفسه أول وزير من النصارى سنة 380 هـ يدعى نسطورس على مصر و أول وزير من اليهود يدعى منشاه على الشام فكتبوا له " بالذى أعز النصارى بنسطورس و أعز اليهود بمنشاه و أذل المسلمين بك الا رحمتهم و أزلت عنهم هذه المظالم " ؟ .

ماذا فعل العزيز ؟ " أمر بشنق الوزير نسطورس فشنق على باب قصر الزمرد فى ذلك اليوم ثم أرسل الى الشام بشنق اليهودى منشاه فشنق على باب قلعة الشام " . ألم أقل انهم كانوا خلفاء مختلى العقل .

الحاكم بأمر الله هو نموذج الخليفة المخبول " صار يفعل أشياء لا تقع إلا من المجانين الذين فى عقلهم خلل فمن ذلك منع النساء من الخروج الى الطرقات ومن التطلع من الطاقات والطلوع على الأسطح ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لهن ومنع سائر النساء من الدخول الى الحمامات فمر يوما بحمام فسمع ضجيج النساء فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام فسدوه عليهن من الوقت والساعة وهو واقف عليه فأقمن داخل الحمام حتى متن به .

وهو قد منع بيع الزبيب و أمر بحرق الكروم ومنع بيع العسل الأسود كذلك منع زراعة الملوخية لأن عائشة كانت تميل إليها والقرع لأن أبو بكر كان يميل إليه ثم نهى عن أكل الرطب وزرع الترمس ثم أمر بقتل الكلاب فقتل منهم نحو ثلاثين ألف كلب .

ثم أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل وجعل الليل مقام النهار فى جميع أحوال الناس كلها فامتثلوا ذلك واستمروا عليه دهرا طويلا " .

الحاكم هذا هو " الذى أمر اليهود بأن يعملوا فى أعناقهم إذا خرجوا الى الأسواق قرامى خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال و أمر النصارى بأن يضعوا فى أعناقهم صلبانا من الحديد قدر كل صليب ذراع ... "

ولقد كان يسير فى الأسواق ومعه عبد أسود طويل عريض فإذا وجد أحدا من السوقة غش فى بضاعته أمر العبد مسعود ذلك بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهى اللواط فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ منه والحاكم واقف على رأسه وقد سار مسعود هذا مثلا عند أهل مصر إذا خرج بعضهم مع بعض يقولوا " أحضر له مسعود " .

الحاكم فى النهاية ادعى الربوبية من دون الله تعالى فكان إذا مر فى الطرقات يسجدون له ويقولون " يا محى يا مميت " ومن لم يفعل ذلك يضرب عنقه وفى النهاية قتل فى نصف شوال سنة 411 هـ بعد 25 سنة حكم .

الظاهر لدين الله تولى وعمره 16 سنة فأعاد ما كان يعمل فى ليلة الغطاس وان أمر ألا يختلط فى هذا العيد النصارى مع المسلمين عند الغطاس .

ومما يحكى عن الخليفة الظاهر جمع كل الجوارى حتى لم يبق بمصر والقاهرة جارية وبعد أن لبسن أحسن الأثواب الفاخرة أمر أن يجعلن فى مجلس ويسد عليهن باب المجلس فبنى عليهن أبواب المجلس وتركهن ستة أشهر ثم بعد ذلك أضرم عليهن النار حتى أحرقهن عن أخرهن وكان عدتهن ألفين وستمائة وستين جارية ومن شابه أباه فما ظلم .

المستنصر بالله اشتهر بالشدة المستنصرية سنة 451 هـ إذ انهبطت مياه النيل فشرقت البلاد وحصل على الناس ما لا خير فيه ووقع الغلاء العظيم سبع سنين متوالية فأكلت الناس بعضها بعضا و أكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل أن بيع كل كلب بخمسة دنانير وكل قط بثلاثة دنانير . (عن ابن أبى حجله فى كتاب السكردان) ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك بين الناس ثم اشتد الأمر حتى صار الناس إذا مروا فى الطرقات وقوى القوى على الضعيف فيذبحه ويأكله جهارا .. وكفى هذا من يريد المزيد فليطلع على كتاب ابن اياس صفحة 217 ليعرف أن ثلث أهل مصر فنى حتى اضطر الجنود أن يزرعوا بأنفسهم وذلك لعدم وجود الفلاحين .

فى هذا الزمن ادعى الكورانى أنه المهدى وكان له أتباع و ادعت زوجته أن جنينها يتكلم فى بطنها 458 هـ .

بعد المستنصر جاء المستعلى بالله وفى زمنه استولى الفرنج على بيت المقدس وملكوه وقتلوا جماعة كثيرة من أهل القدس وأقاموا مالكين بيت المقدس نحو ثلاث سنين .

الآمر بأحكام الله ابن المستعلى كان" صغير السن طائش العقل تجاهر بالمنكرات واشتغل بسماع الزمور وشرب الخمور ...... وصار الناس مثل الغنم بلا راع فاضطربت الأحوال بمصر " .

الفرنج فى ذلك العهد استولوا على مدينة عكا وطرابلس ونابلس و أشرف ملك فرنسا ـ بردويل ـ على أخذ مصر فوصل الى العريش ولكنه توفى هناك .

الآمر بأحكام الله مات مقتولا ...

أما الحافظ فقد كان على العكس حليما لين الجانب قليل الأذى فطمعت فيه الرعية و اضطربت الأحوال فى أيامه واستولى الفرنج على أغلب البلاد وطمع الفلاحون من أهل مصر و امتنعوا عن وزن الخراج .

الظافر بالله دفع حياته ثمنا لهيامه بابن وزيره عباس " لما كثر الكلام فى حقه بسبب ابنه نصر " .

الفائز تولى الحكم بعد مقتل أبيه وعمره ست سنوات وفى عصره حدث الطاعون أفنى ثمانية عشر قرية.

العاضد بالله أبى محمد عبد الله كان آخر الخلفاء الفاطميين وفى عهده استولى الفرنج على ثغر دمياط ونهبوا أسواقها وقتلوا أهلها ثم زحفوا على الضياع و أكثروا القتل والسبى ثم وصلوا الى بلبيس وكسروا عساكر الفسطاط ودخلوا القاهرة من خلف السور من عند البرقية ثم توجهوا الى بركة الحبش وصاروا يقتلون من وجدوه من المسلمين وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالا جزيلة و أخذوا فى أسباب جبايتها .

الوزير شاور أشار على العاضد بحرق الفسطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها فأذن لهم فى حرقها فأقامت النار عماله فيها نحو شهرين وكان يرى دخانها من مسيرة ثلاثة أيام.

العاضد استجار بنور الدين الشهيد صاحب دمشق فأرسل له أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ومعهما العسكر فخاف الفرنج ورحلوا الى بلادهم .

أسد الدين شريكوه شنق الوزير شاور بتهمة التخابر مع الأعداء واستقر فى مصر وزيرا للعاضد لمدة شهرين وخمسة أيام مات بعدها ليحل محله صلاح الدين الأيوبى.

صلاح الدين أبطل أن يقال فى الأذان " حى على خير العمل " والدعاء لعلى وفاطمة والحسن والحسين وعزل قضاة مصر كلهم لأنهم كانوا شيعة معلنا عودة السنية الشافعية " وأقام مجد الشافعية دون غيرهم من المذاهب " ثم أن صلاح الدين قويت شوكته حتى أصبح العاضد كالمحجور عليه لا يتصرف فى شئ من أمور المملكة حتى يعرضها على صلاح الدين , انتهى الأمر بقطع الدعاء للعاضد والدعاء للخليفة المستضيئ بالله العباسى " فلم يتكلم أحد من الناس و لا أنكر عليه فى ذلك " .

لما حدث هذا ابتلع العاضد فص من الماس فمات فى ليلته .. وانتهى حكم الفاطميين والقارئ سيعجب من هذا الشعب الذى تحمل لقرنين من الزمان مثل هؤلاء المخابيل دون أن يثور ..بل كيف أصبح السلوك اليومى لهم هو اللامبالاة فجميع الغزاة كانوا فى ظلمهم سواء .. و المصرى كان يعرف أنه سيدفع ما بين يديه لهم لا فارق بين من قدموا من الشرق أو الغرب أو حتى من الشمال .

ثالثا : القادمون من الشمال الشرقى الأكراد السلاطين

من الناصر صلاح الدين 569 هـ الى أيبك التركماني 648 هـ

حكم مصر خلال هذه الفترة التى تزيد عن الـ 80 عام عدد 9 سلاطين هم :

الناصر صلاح الدين ـ العزيز بالله عماد الدين ـ المنصور محمد

العادل أبى بكر ـ الكامل محمد ـ العادل سيف الدين أبى بكر

الصالح نجم الدين أيوب ـ المعظم توران شاه ـ شجرة الدر أم خليل .

وهم السلاطين الذين استعانوا على تثبيت حكمهم بالمماليك (العبيد) الأكراد ثم الأتراك " فكانوا السبب فى زوال ملكهم " .

فى زمنهم كثف الأوربيون من غزواتهم فاحتلوا رشيد أكثر من مرة .. وفى هذا الزمن كُسر و أُسر ملكهم لويس ولكنهم لم يفلحوا فى احتلال البلاد .. فى ذلك الزمن أيضا تم تحويل مصر من المذهب الشيعى الى السنى الشافعى و قاد ميت الحرب وتولت سيدة السلطنة و أُزيح اثنين من السلاطين بالقوة وسجنا فى قلعة الجبل حتى ماتا وتم بناء سور القاهرة والقلعة لتصبح مقرا للحكم بدلا من قصر الزمرد .

والسلطان صلاح الدين عندما دان له حكم مصر بدأه بشنق جماعة من أعيان القاهرة " ومن جملتهم عماره اليمنى الشاعر بعد أن اتفقوا على إعادة دولة الفاطميين ".

ثم " قبض على مؤتمن الحبش وقتله فلما ثارت عليه العبيد وكان جملتهم خمسين ألف عبد من أجناس شتى حاربهم لمدة يومين فقتل منهم ما لا يحصى".

" ثم أنه أزال ما كان بمصر من العساكر الملفقة وكانوا ما بين صقالبة ومصامدة و أرمن وشناترة العرب وطائفة من العبيد الزنج فمحا هذه الطوائف كلها و استجد بمصر عساكرا من الأكراد خاصة فكان عدتهم اثنى عشر ألفا من شجعان الكرد " .

" عندما أتى الفرنج الى ثغر دمياط وحاصروا أهلها فتوجه صلاح الدين إليهم وتقاتل معهم وكسرهم وكانوا نحو مائتين مركب فأقام بحصارهم شهرين حتى كسرهم وانهزموا الى بلادهم".

سنة 588 هـ توجه الملك الناصر صلاح الدين الى دمشق " واستمر بها حتى مرض وسلسل فى المرض حتى مات رحمة الله عليه وكانت وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة " 589 هـ .. " وكان له من العمر نحو إحدى وسبعين سنة " .

" الملك صلاح الدين لم يخلف فى بيت المال لا ذهبا ولا فضة ولا قماشا ولا سلاحا و أنفذ جميع ما فى الخزائن فى الغزوات والجهاد حتى فتح البلاد التى كانت بيد الفرنج .. وكانت له اشتغال بالعلم والحديث ولا يلبس إلا الثياب القطن والجبب الصوف ".

" ومن فتوحاته ما يصل الى مائة مدينة معظمها كان بيد الفرنج اثنين وسبعين سنة فأصبح حكمه من مصر الى الفرات ومن مصر الى بلاد المغرب والحجاز واليمن حتى أنه عندما توفى قسمت

البلاد بين أبناءه الأفضل تولى البلاد الشامية و ابنه المظفر غازى البلاد الحلبية وابنه عثمان بولاية مصر " .

أما السلطان الثانى العزيز بالله عماد الدين عثمان فانه " عندما تولى أعاد المكوس التى كان قد أبطلها والده وزاد من شناعتها وتجاهر بالمعاصى حتى غلا سعر العنب لكثرة ما يعصر منه وحٌميت بيوت المزارة والحانات و أماكن الحشيش و أباح ذلك أرباب الأمر والنهى " (بمعنى خمارات وبيوت دعارة وغرز) " ووقع فى أيامه الغلاء بمصر و اضطربت أحوال الديار فى أيامه " .

قال ابن المتوج " جاء رجل أعجمى من توريز العجم فأوحى الى الملك العزيز أن الهرم الصغير المكسو بحجر الصوان تحته مطلب وكان الملك العزيز عنده خفه فوجه إليه القطاعين فأقاموا نحو شهر ولم يهدم منه إلا اليسير فأنفق على هدمه ما لا جزيلا ولم يفد من ذلك شيئا فهرب العجمى وترك الملك العزيز هدمه عن عجز "

مات الملك العزيز أثناء رحلة صيد فى الفيوم

ليحل محله السلطان المنصور محمد ووزيره الخصى قراقوش (ثالث خصى يحكم مصر) ولكن أعمامه قدموا من الشام وحاربوه فانكسر وسجن بقلعة الجبل حتى مات هناك .

فى عهد السلطان العادل سيف الدين رابع سلاطين بنى أيوب " حصل الضرر الشامل للبرية و أكلت الناس بعضها بعضا و استمر النيل على انخفاضه لثلاث سنين متوالية فوقع القحط وعدمت الأقوات فصار الناس من شدة الجوع يأكلون الكلاب والقطط والحمير والبغال والخيل والجمال حتى لم يبق بمصر دابة .... ثم تزايد الأمر حتى صار الرجل يذبح ابن جاره أو عبده أو جاريته و يأكلهم ولا ينكر عليه ذلك ... وقد عقب هذا فناء عظيم حتى أن الملك العادل كفن من ماله فى مدة يسيرة من مات من الغرباء نحو مائتين وعشرين ألف إنسان و أما الذى مات من أهل مصر فلا يحصى عددهم .... "

للمرة الثانية تتكرر الشدة المستنصرية ويتحول المصريون الى أكلة لحوم البشر إذا أردت أن تعرف كيف ارجع لصفحات 254 و 255 من الكتاب فما ذكر فوق الاحتمال .

العادل كما يصف ابن اياس " رجلا طويلا جسيما مدور الوجه شرها فى الأكل يأكل الخروف وحده وكان يحب من يأكل معه مثله وكان كثير الجماع لا يمل منه " .

وعندما مات بعد حكم مصر لثمان عشرة سنة وتسعة أشهر ، خلف من الأولاد ثلاثة منهم الكامل محمد الذى تلاه فى الحكم .

الكامل محمد هو الذى أتم بناء قلعة الجبل وسكن بها وكان الملك الناصر صلاح الدين هو الذى شرع فى بناءها .. فى عهده " عاود الفرنج غزو دمياط أتوا من البحر فى مائتى مركب واستولوا على المدينة وملكوها .

فلما تحقق الملك الكامل صحة الأخبار نادى فى القاهرة بالنفير عاما واضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال وعرض السلطان العسكر وجمع سائر العربان من الشرقية والغربية فاجتمع من العساكر نحو عشرين ألف مقاتل ... وكانت مدة هذه المحاصرة بين الفريقين ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما "

" ومن هنا نرجع أخبار الملك الكامل محمد فانه أرسل يستحث أخواته الى قتال الفرنج .. فحضر إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق و أخوه الملك الأشرف موسى شاه أرض صاحب حلب .... فى نحو أربعين ألف مقاتل " .

" فتحارب الملك الكامل مع الفرنج أشد المحاربة وحاصرهم برا وبحرا " .

بعد ذلك وقع الملك الكامل الصلح مع الفرنجة فرحلوا " بعد أن كانت الفرنج أشرفوا على أخذ الديار المصرية " . " وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دمياط الى حين رحلوا عنها ثلاث سنين و أربع أشهر وتسعة عشر يوما " .

الكامل قام ببناء عدة مدارس و دور حديث " عندما حفر أساسها وجد فيه صنم كبير من الذهب فأمر الملك الكامل أن يسبك دنانيرا ويصرف على بناء المدرسة فبنيت من وجه حل ".

السلطان العادل سيف الدين أبى بكر ابن الكامل تولى بعد أن توفى والده العادل خلال زيارة له لدمشق " وكان سبب سلطنته أنه لما توفى أبوه كان العادل نائبا عن أبيه بمصر فلما جاءت الأخبار بموت الكامل فى دمشق اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بمصر على سلطنة العادل أبى بكر بدلا عن أبيه فسلطنوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده " .

ولكن أخوه الأكبر نجم الدين الذى كان بحلب وقتئذ " حضر الى مصر على جرائد الخيل فلما دخل مصر .. خلعه من السلطنة وسجنه بقلعة الجبل الى أن مات ..." قتلا عام 647هـ

الأخ الأكبر ـ الذى سجن أخيه ـ بويع للسلطنة باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب و كان أول من جلب المماليك الأتراك الى مصر وبنى لهم قلعة فى الروضة وسماهم المماليك البحرية وكان عددهم ألف مملوك " لا يخالطون الناس بالمدينة و أجرى عليهم ما يكفيهم من اللحوم والجراية والجوامك " .

" الفرنج جاءوا الى ثغر دمياط فى مائتى مركب وكان ملك الفرنج يسمى ريدا فرنسيس (لويس) فنهب مدينة دمياط وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم .. بعد أن هرب نائب دمياط ليلا وترك الأبواب مفتوحة فدخلوا إليها من غير مانع وملكوها.

لما وصل الملك الصالح الى المنصورة أمر بشنق نائب دمياط ومعه جماعة من الأمراء الذين كانوا بدمياط فشنق فى يوم واحد نحو خمسين أميرا " .

توفى الملك الصالح بعد أن بدأ القتال بين المسلمين والفرنج " كتم موته خوفا من الفرنج أن يطمعوا فى أخذ الديار " .. " فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان فلا يشك من يراها أنها خط الملك الصالح " ... " وكان القائم بتدبير هذه الأمور كلها الأمير حسام الدين لاجين و الأمير فارس الدين أقطاى " .

" ابن الملك الصالح الأمير مغيث الدين توران شاه كان فى حصن كيفا ... جاء ومعه عسكر الأكراد وعندها أشيع موت الملك الصالح وتسلطن ابنه توران شاه " .

" عندما تحقق ملك الفرنج من موت الملك الصالح طمع فى أخذ مصر وزحف بمن معه من العساكر الى فارسكور فلما رأوا الأمراء ذلك ضربوا مشورة وتحالفوا الأمير بيبرس البندقدارى و الأمير لاجين و الأمير فارس الدين أقطاى وبقية الأمراء والعسكر قاطبة وخرج معهم السواد الأعظم من العربان والعوام والفلاحين ..... وقد انكسرت الفرنج أنحس كسره و أسر من أعيان ملوك الفرنج سبعة منهم ريدا فرنسيس وقيدهم وسجنهم فى دار القاضى فخر الدين لقمان ووكل به طواشيا يسمى صبيح فكان يضرب فرنسيس كل يوم خمسمائة عصاه . وقرر السلطان توران شاه عقوبة عليهم مائتى ألف دينار .

توران شاه هدم بعد ذلك دمياط عن آخرها " واستمرت خرابا سكنها جماعة من الصيادين فى أخصاص قش وسموها المنشية "

كذلك " أخذ فى إبعاد مماليك أبيه الملك الصالح " . " و أرسل الى شجرة الدر زوجة أبيه بعدها بكل سوء فأرسلت تقول للأمراء والمماليك البحرية إن قتلتوا توران شاه فعلى رضاكم بالمال ".

" وكان توران شاه أهوج رهاج عنده خفة زائدة فكان إذا سكر يصف الشموع الكبار بالليل و يأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع ويقول " هكذا أفعل بالمماليك البحرية إذا دخلت القاهرة " وهذه أفعال المجانين الذين سلبوا من عقولهم " .

فى فارسكور يوم الاثنين تاسع محرم عام 648 هـ التف حوله " المماليك البحرية و بأيديهم السيوف فضربوه على يديه قطعوها فقام وهرب و دخل الى برج خشب على شاطئ البحر و أغلق عليه الباب فأطلقوا فيه النار .. فخرج من البرج و ألقى نفسه فى البحر وصار يسبح والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول " خذوا ملككم ودعونى ارجع الى حصن كيفا " فلم يغثه أحد فمات حريقا غريقا قتيلا " .

المماليك بايعوا شجرة الدر كسلطان على الديار المصرية " فأغدقت الأموال على الجند حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن وساست الرعية أحسن سياسة " " وكان الأمير أيبك التركمانى مدير المملكة لكن لا يتصرف فى شئ من أمور المملكة إلا بعد مشورتها وكانت علامتها على المراسيم والدة الخليل "

وكانت الخطباء تخطب باسمها على المنابر " واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل والستر الجميل والدة المرحوم خليل " .

ولكــن

قال الشيخ شمس الدين الجزرى " لما بلغ الخليفة المعتصم بالله وهو ببغداد أن أهل مصر سلطنوا امرأة أرسل يقول لهم : أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل إليكم من يصلح لها أما سمعتم من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " .

فلما بلغ شجرة الدر ذلك جمعت الأمراء والقضاة وخلعت نفسها من السلطنة برضاها فكانت مدة سلطنتها بمصر ثلاثة أشهر إلا أيام .

شجرة الدر تزوجت فى نفس اللحظة بالأمير أيبك التركمانى ثم بايعه القاضى فأصبح أول ملوك الترك بمصر .

رابعا : القادمون مع تجار العبيد (العبيد يحكمون مصر لثلاث قرون)

العبيد الأتراك من عزالدين أيبك 648 هـ الى الصالح أمير الحاج 784 هـ

العبيد الجراكسة من الظاهر برقوق 784 هـ الى طومان باى 922 هـ

عندما تنازلت شجرة الدر عن السلطنة الى زوجها عز الدين أيبك عام 648 هـ كانت تعلن بذلك بدء عهد طويل دام ل 274 عام حكم مصر فيه العبيد المماليك حتى كسرهم السلطان العثمانى سليم الأول و أطاح بآخر ملوكهم طومان باى عام 922 هـ .

العبيد الترك وعددهم 24 سلطانا أو ملكا حكموا مصر 137 سنة هجرية

" قال صاحب زبده الفكرة فى تاريخ الهجرة أن طائفة هذه الترك كانوا عده قبائل يسكنون بالبلاد الشمالية لا يتخذون جدارا و لا يستوطنون وطنا بل ينتقلون من الأرض فى أماكن شتى عند مصايفهم ومشاتيهم وقد تناسلوا وكثروا وتفرقوا فى البلاد .

فلما كانت سنة 626 هـ قويت عليهم شوكة التتار وحاربوهم فكسروهم و أسروهم ونهبوا أولادهم ونساءهم وباعوهم للتجار فجلبوهم الى الأمصار فاشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب منهم واستكثر فى مشتراهم " .

والمماليك عموما كانت لهم صفات مشتركة مميزة فأغلبهم ماتوا قتلى على أيدى أقرب الناس إليهم أشهرهم الأمير قطز "وله الراية البيضاء فى دفع التتار وقتالهم ومنعهم عن دخول مصر " بعد عودته من عين جالوت قتله أخلص قواده بقيادة الظاهر بيبرس الذى حل محله فى السلطنة وحاز كل تكريم يستحقه قطز وسنرى فيما يلى كم قتل أخ أخيه او ابن أبيه أو تلميذ أستاذه خوفا أو طمعا .

ولشعور هؤلاء المماليك بأن لا سند لهم فى اغتصاب الملك ابتكروا أعجب نظام للحكم المزدوج فبعد أن دمر التتار الخلافة العباسية فى بغداد عام 650 هـ أحضر الظاهر بيبرس " شخص من بنى عباس يقال له الإمام أحمد وكان مستخفيا عند جماعة من العرب ... وهو من أبناء الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة... وحضر معه طواشي من بغداد و هو رومى الجنسية وجماعة من العربان "

فأقام أياما عند السلطان الظاهر بيبرس ثم عقد له مجلسا جمع فيه القضاة ومشايخ العلم و أثبت نسبه بشهادة ذلك الطواشي والعربان الذين حضروا معه .

فلما ثبت نسبه ولوه الخلافة ولقبوه بالحاكم بأمر الله و كان أسمر اللون ابن مولده فلما تولى الخلافة.... بايع السلطان والقضاة و أرباب الدولة ...... ثم رسم له السلطان أن يسكن فى مناظر الكبش وكانت مطلة على النيل ورتب له ما يكفيه كل شهر ... "

أى أن الخليفة الذى يعيش عاله على السلطان هو نفسه الذى يبايع السلطان ويصبح سند حقه بالسلطنة . ما أشبه اليوم بالبارحة .

وبذلك أصبح فى مصر نظامين حكم أحدهما للخلافة العباسية و آخر لسلاطين المماليك وكأن كل منهما فى حاجة الى دعم الآخر .

الخلفاء العباسيون الذين تولوا فى مصر كانوا يلقبون بخليفة المؤمنين

خليفة المؤمنين الحاكم بأمر الله ثم المستكفى ثم الواثق بالله ثم الحاكم بأمر الله ابن المستكفى ثم المعتضد بالله ثم المتوكل على الله محمد ...... الخ

خلال فترة حكم هؤلاء المماليك أحاط الخطر بالبلاد من جميع الجهات بدأ التتار الذين حاربوهم لمرات عديدة واحدة منها انتصر فيها السلطان قطز فى عين جالوت 658 هـ و أخرى كانت للسلطان الظاهر بيبرس 676 هـ فى الابلستين و دربند كذلك عام 679 هـ فى عهد السلطان قلاوون فى معركة المرج الأصفر .

ثم أن الفرنج أيضا احتلوا عكا 690 هـ وفتحها السلطان الأشرف خليل أما العرب فقد " خرجوا على الحجاج ونهبوا جميع أموالهم وقتلوا منهم جماعة " .

والشعب " خرج عليهم جماعة من العوام ورجموا المماليك فغضب عليهم السلطان و أمر المماليك أن يقتلوا كل من وجدوه من العوام فاستمر السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام فقتل فى هذه المدة ما لا يحصى عددهم من العوام وغيرهم وراح الصالح بالطالح فلما تزايد الأمر طلع القضاة ومشايخ العلم الى السلطان وشفعوا فيهم " كان هذا فى عهد السلطان المنصور قلاوون .

ولم يكن الرجل يأمن حتى لزوجته " فلما نام معها ودخل الحمام وقد تراضيا فبينما هما فى الحمام دخل عليهما هؤلاء الخدام و بأيديهم سيوف مسلولة فلما عاينهم الملك المعز استجار بشجرة الدر وقبل يدها فقالت للخدام " اتركوه " فأغلظ عليها بعض الخدام وقال لها " متى تركناه لا يبقى عليك ولا علينا " فقتلوه فى الحمام خنقا"

" فلما مات تولى الوزارة الأسعد هبة الله الفائزى وكان نصرانيا و أسلم فلما تولى الوزارة أحدث مكوسا كثيرة بمصر وفتح أبواب المظالم فغضب عليه قطز فصلبه على باب القلعة و أخذ جميع أمواله "

" وحصل للملك الظاهر فى أوائل دولته غاية الاضطراب منها عصيان النواب ووثوب المماليك المعزية عليه وخراب البلاد الشامية بما فعل هولاكو ثم أن الملك الظاهر قبض على جماعة من المماليك المعزية و أرسلهم الى السجن بثغر الإسكندرية فصفا له من بعد ذلك الوقت " .

نموذج دائم لكل مملوك يعتلى أريكة الحكم القبض على زملاءه أو معارضيه ووضعهم فى السجن ثم قتلهم إذا لم تحدث قلاقل . ثم أنه بعد ذلك يرهب الشعب .

" ومن الحوادث فى هذه السنة كثر الحريق بالقاهرة و أشيع بين الناس أن هذا من فعل بعض النصارى فرسم السلطان بجمع سائر النصارى فى مصر والقاهرة فلما جمعوا أمر بحرقهم فجمعت من أجلهم الأحطاب والحلفاء .

عند ذلك طلع الأتابكى فارس أقطاى الى القلعة و اجتمع بالسلطان وشفع فى النصارى فرسم السلطان بأن يوردوا الى الخزائن الشريفة خمسين ألف دينار و أن يصلحوا ما قد فسد من الدور التى احترقت " .

وكان لا يهم كم عمر السلطان بعضهم ملك و عمره 7.5 سنة الملك العادل سيف الدين و آخر عمره 9 سنوات الملك الناصر محمد قلاوون أو مدى صحته العقلية " وكان المنصور على طائش العقل يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان وكانت أمه تدبر أحوال المملكة " السلطان الأشرف خليل قبض على بعض الأمراء " فلما تكاملوا سبعة من الأمراء ببرج الحية الذى بالقلعة .. فلما كان ليلة الأحد من العشرين من رجب أمر بخنق هؤلاء الأمراء السبعة فخنقوا تحت الليل فلما أرادوا دفنهم وجدوا الأمير لاجين فيه الروح فأخبروا السلطان " .

ماذا حدث وهو الآمر بخنقه " فعطف عليه و أمر بالإفراج عنه ونزل الى بيته .... " بل أنعم عليه السلطان بتقدمه ألف " ... لاجين هذا تسلطن بعد ذلك وحكم مصر ..

هل يوجد جنون أكثر من هذا ؟ نعم

" فلما رأوه المماليك الأشرفية قطعوه بالسيف وشقوا بطنه و أخرجوا كبده وصار كل أحد من المماليك يقطع منه قطعة ويأكلها ".

أكـلـة لحــوم الــبشر

" وصار يعاقب ابن السلعوس كل ليلة ويعصر أكعابه بالمعاصير حتى مات تحت الضرب" .

"فصاروا يعطوا المشاعلية شيئا من الفضة ويأخذون منهم رأس الشجاعى ويدخلون بها عندهم فى الدار ولا يزالون يصفعونها بالنعال والقباقيب حتى يشتفوا منه ... "

" وكانوا نحو ثلاثمائة مملوك ... قطع أيديهم وطاف بهم القاهرة ثم صلبهم على بابى زويلة ووسط منهم جماعة " .

ولعل أيبك التركماني والطريقة التى تولى بها حتى اغتياله تصلح لأن تكون نموذجا متكررا .

كان أيبك ضمن عبيد الصالح نجم الدين أيوب الذين اشتراهم و أسكنهم قلعة الروضة والذين باعهم الشيخ ابن عبد السلام فى السوق وقبض ثمنهم لصرفه فى مصالح المسلمين .. ثم لما تسلطن توران شاه " أخذ فى إبعاد مماليك أبيه " فقتلوه ... ثم رجعوا الى القاهرة واتفقوا على تولية شجرة الدر و أن يكون الأمير أيبك التركماني مدبر المملكة معها ... وعندما اعترض الخليفة العباسي المعتصم بالله على سلطنة امرأة خلعت نفسها وعقد بينها وبين أيبك التركماني .

قال الإمام أبو شامة " لما تسلطن أيبك التركماني فلم ترض أهل مصر به فكان إذا ركب يسمعونه العوام ما يكره ويقولون له " نحن ما نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على فطرة الإسلام " فكان أيبك يغدق على العوام بالعطايا الجزيلة حتى يسكتوا عنه " .

فوقع الاتفاق على أن يحضروا بشخص من أولاد الملك مسعود صاحب حماه وهو من ذرية أيوب وكان عند عماته ببلاد الشرق فأرسلوا خلفه فلما حضر سلطنوه ولقبوه بالملك الأشرف ... لما تسلطن لم يعزل أيبك من السلطنة بل صار معه مثل الشريك له.. فكان يخطب باسميهما حتى قويت شوكة المعز أيبك فعند ذلك خلع الأشرف المذكور من السلطنة .... " وسجنه بالقلعة وانفرد بها وحده من غير شريك.

حتى " دبت عقارب الفتن بين الملك المعز وشجرة الدر فتغيرت عليه وتغير عليها وعندما أرسل يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ دبرت اغتياله فى الحمام كما سلف " .

" فيها عزم الملك المعز على أن يقبض على الأمير فارس الدين أقطاى (منافسه) وكان رأس المماليك الصالحية فطلبه وقت الظهر فلما طلع الى القلعة أكمن له كمينا عند قاعة الأعمدة ... وثب عليه المماليك المعزية و أذاقوه كأس المنية .

ماذا قال عنهم هولاكو التتارى عندما استعد للهجوم على مصر 658 هـ

" من ملك الملوك شرقا وغربا .. القان الأعظم .. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. نعلم أمير مصر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذه الأرض بعد أن ابتاعوا الى التجار بأبخس الأثمان "

و انتصر عليه قطز فى معركة عين جالوت بعد أن جمع له أربعين ألف مقاتل من عربان الشرقية والغربية " و أخذ الأموال من أهل مصر والقاهرة بعد أن فرض دينارا واحدا على كل رأس من كبير وصغير و أخذ من أجر الأملاك شهرا واحدا و أخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا و أخذ من الترك الأهلية ثلث المال و أخذ من الغيطان والسواقى أجرة شهر واحد فبلغ جملة ما جمعه من الأموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار وكسور أنفقها على العسكر والعربان وجهز حاله"

عند عودته من المعركة أغتيل " فجلس الأمير بيبرس على مرتبة السلطان قطز و أخذ المملكة باليد " .

وقد يسأل سائل لماذا قتل هذا القائد البطل بعد انتصاره يجيب ابن اياس " ما جلس سلطان على كرسى مملكة مصر وكان متقلدا بغير مذهب الإمام الشافعى إلا عزل سريعا أو قتل وقد جرب ذلك فى الملك المظفر قطز فانه كان حنفيا " .

الظاهر بيبرس الذى لم يجف الدم من على كفيه " أراد استجلاب خواطر الرعية بالأفعال المرضية فأبطل ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من أبواب المظالم عند توجهه الى التجريدة وكتب بذلك مساميح وقرئت على المنابر بعد صلاة الجمعة فضج الناس له بالدعاء ومالت إليه قلوب الرعية " .

" ثم أنه أمر بتجديد الخطبة فى جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وكانوا مهجورين من أيام الخلفاء الفاطميين " .

وهو قد أعاد الخلافة العباسية ونقلها من بغداد الى القاهرة بعد أن قضى عليها التتار بقيادة هولاكو .ولمعرفة أهمية هذا تأمل الآتى : ـ

" وقد ورد فى بعض الأخبار أن الخلافة العباسية تستمر فى الدنيا حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ثم تنقطع من بعد ذلك " .

" فعن للسلطان أن يجعل من كل مذهب قاضيا كبيرا ويولى من تحت يده نوابا وكان بمصر لا يحكم قاضى شافعى فقط ...." " قيل فلما فعل الظاهر ذلك رأى الامام الشافعى فى المنام وهو يقول له " بهدلت مذهبى بمصر وفرقت كلمة المسلمين والله لأعزلنك أنت و أولادك الى يوم القيامة "

" وهو الذى جمع النصارى ليمزقهم ثم فدوا أنفسهم بخمسين ألف دينار "

" وفى هذه السنة أمر السلطان بإبطال خمان الحشيش و إحراقها و أخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور ومنع الحانات من الخواطى واستتوب العلوق واللواطى ...." " ثم فى أثناء ذلك

ظفر والى الشرطة بشخص يسمى ابن الكازرونى وهو سكران فأشهره فى القاهرة وعلق الجرة والقدح فى عنقه ثم صلبوه على باب النصر " .

عام 671 هـ

" فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ومات الناس ما لا يحصى من نساء ورجال و أطفال وعبيد وجوار و أقام ستة أشهر " .

ثم مات عام 676 فى الشام بعد حكم سبعة عشر سنة وشهرين وانتهى عهده " كان الملك الظاهر نعم الملك لولا ما كان فيه من الظلم و أخذ أموال الرعية دون وجه حق".

الملك السعيد أبى المعالى محمد تسلطن عوضا لوالده الظاهر بيبرس وكما هى العادة " طاش الملك السعيد و اقتدى برأى الأوباش فقبض على جماعة من الأمراء منهم الأمير سنقر الأشقر و الأمير بيسرى وكانا جناحى والده ثم قبض على جماعة من الأمراء العشراوات من مماليك والده " .

" ثم أخلع على الأمير الفارقانى و استقر به نائب السلطنة فأقام مدة يسيرة ثم قبض عليه وسجنه بثغر الإسكندرية ثم أرسل فخنقه وهو فى السجن " .

وفى عهده ثار المماليك " وحاصروا القلعة سبعة أيام " فانفض من حوله عسكره.. فخلع نفسه من السلطنة بعد حكم دام لسنتين وشهر.

العادل أخوه تولى وعمره 7.5 سنة فخلعه سريعا الأتابكى قلاوون ليبدأ حكم هذه الأسرة عام 678 هـ .

الملك قلاوون " كان حسن الشكل قصير القامة درّى اللون وكان قليل الكلام بالعربى عظمى اللسان وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ..... "

وقد بدأ عصره بمذبحة ضد العوام سبق إيرادها حتى استقر الرعب منه فى قلوب الرعية .. ثم أفرج عن بعض الأمراء الذين كانوا فى سجون من سبقوه وحارب التتار فهزم " منكوتمر " كذلك حارب ملك النوبة الذى تعدى على أسوان .. قلاوون شكل أول نظاره فبدأ بنظام تخصيص نظارات للخارجية والحربية والمالية والنقل .. وكان له أول كاتب أسرار ليتلقى الأوامر الشفهية السلطانية .

كذلك بنى " البيمارستان المنصورى " وغالب ما فيها من الأعمدة و الأعتاب نقل من القلعة التى كانت بالروضة ... ثم بعد ذلك قلده الناصر محمد بن قلاوون فكسر تمثالا فرعونيا " كان يقابل هذا الصنم (أبو الهول) صنم آخر فى بر مصر عند قصر الشمع وكان عظيم الخلقة متناسب الأعضاء وهو من الصوان المانع على هيئة امرأة وفى حجرها مولود من الصوان أيضا وكان الناس يسمونه سرية أبو الهول ..... كسره الملك الناصر محمد بن قلاوون وعمل منه قواعد و أعتاب للجامع الجديد لما بناه " .

" ثامن ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية " هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ... تولى الملك بعد أبيه وجلس على سرير الملك " فلما تم أمره فى السلطنة تلقب بالملك الأشرف ثم أن الأشرف عمل الموكب فلما تكامل الأمراء قبض على الأمير طرنطاى نائب السلطنة وكان بينهما عداوة قديمة من أيام والده .... الذى أقام بالسجن ثلاثة

أيام ثم أمر السلطان بخنقه فخنق تحت الليل وهو بسجن القلعة " . " و قتل جماعة كثيرة من الأمراء والنواب .... " .

وهو الذى قتل سبعة من الأمراء فخنقوا تحت الليل كما سبق أن أوردنا وعندما وجد أحدهم لم يمت كرمه وعفا عنه حتى أصبح بعد ذلك سلطانا .

ثم أنه حارب فى الشام التتار و الأرمن وفتح عكا استخلصها من يد الفرنج والنهاية مات مقتولا بواسطة الأمراء .

ويقال أن الأمير بيدرا النائب ضربه بالسيف على يده فصاح عليه الأمير لاجين وقال " ويلك الذى يريد السلطنة يضرب هذه الضربة " ونزل من على الفرس ثم أنه " أدخل السيف فى دبره و أطلعه من حلقه وصار كل واحد من الأمراء يظهر ما فى نفسه منه".

بيدرا هذا بعد أن جمع من عربان البحيرة نحو خمسمائة فارس انكسر أمام رجال الملك الأشرف المقتول " قطعوه بالسيف ...... " ما سبق إيراده من أنهم أكلوه .

تولى بعد ذلك سلطان عمره 9 سنوات الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور

الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون من مواليد 684 هـ يعتبر نموذجا لما كان عليه السلطان التركى الناجح فى التعامل مع الأخطار المحيطة من مكر وغدر المماليك والعربان الى غزو التتار والفرنج ومقاومة الطاعون والقحط بحيث احتفظ بكرسى الحكم لمدة 43 سنة وتوفى على فراشه عام 741 هـ عن عمر تجاوز الثمانية وخمسين سنة وهو شئ نادر الحدوث بين سلاطين ذلك الزمن .

هذا الإنجاز جعل بعض المؤرخين يقولون " لم يل من أبناء الملوك قاطبة ملك مصر أعظم من الملك الناصر محمد وهذا متفق عليه بين كل المؤرخين ".

والسلطان محمد تولى الحكم ثلاث مرات أقصى فى الأولى وعزل نفسه فى الثانية ودام فى الثالثة حتى وفاته و أنجب ثمانية سلاطين تولوا الحكم بعده .

فى السلطنة الأولى كان عمره تسع سنوات بويع بعد اغتيال أخيه الأشرف خليل من مماليكه كى لا يتمكن قاتليه من اعتلاء أريكة الحكم .

السلطان محمد بدأ ولايته ـ كما هى العادة ـ بالقبض على المعارضين وقتلة أخيه وسجنهم ثم قتلهم بعد " قطع أيديهم و أرجلهم وسمرهّم على جمال ثم طاف بهم فى القاهرة والمشاعلية تنادى عليهم " هذا جزاء من يقتل أستاذه " وكان لهم فى القاهرة يوم مشهود " .

ثم يمنح العطايا والخلع والهبات خصوصا على الأميرين كتيفا وبيبرس الجاشنكية (أرجوك تذكر هذين الاسمين) اللذين طاردا وقبضا على قاتلى أخيه .

ثم صار يطارد السلعوس (وزير أخيه)كل ليلة ويعصر أكعابه بالمعاصير حتى مات تحت الضرب هو و أقاربه بواسطة الشجاعى وزير السلطان الناصر محمد . (تذكر هذا الاسم أيضا) .

ثم أن المماليك البرجية وثبوا على الأمير كتيفا حتى كاد أن ينكسر هو و مماليكه فجاءت إليه النجدة من أمراء آخرين " فكان بينهم وبين المماليك البرجية وقعة قوية فلم تكن إلا ساعة يسيرة وقد انكسرت المماليك البرجية وطلعوا الى القلعة مهزومين".

السلطان الطفل قال لوزيره " يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه " ؟ فقال له الشجاعى " هذا كله لأجلك يا ابن أستاذى فانهم يقصدون خلعك من السلطنة ويمسكونى أنا " . فقال له السلطان الطفل " يا عمى أنا أعطيك نيابة حلب و أخرج روح عنهم و أستريح من هذا الحال كله " .

فلم يوافق الشجاعى و أغلظ على السلطان فى القول فقام اليه جماعة من المماليك الذين حول السلطان ومسكوه وقيدوه و أرسلوه الى البرج فبينما هو فى الطريق خرج عليه جماعة من المماليك الأشرفية قطعوا رأسه ... والباقى ذكر فى قبل عن ما فعله الناس برأس الشجاعى .

الأمير كتيفا قبض على جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبة الشجاعى وقيدهم و أرسلهم الى السجن بثغر الإسكندرية ثم أفرج عن جماعة أخرى من الأمراء و أخلع عليهم و أعادهم الى وظائفهم و إماراتهم .

وهكذا كان الأمراء والسلاطين تلاميذ مخلصين لمقولة سيف المعز وذهبه.

جماعة من المماليك الأشرفية تحت الليل هجموا على إسطبلات الناس و أخذوا خيولهم فلما طلع النهار أرسل الأمير كتيفا قبض على ثلاثمائة والباقى تم ذكره من قبل .

" فلما اضطربت الأحوال اجتمع الأمراء وضربوا مشورة فى أمر المملكة وقالوا أن السلطان صغير السن وطمع فيه المماليك ومن الرأى أن يتولى سلطان كبير من الأتراك لقمع المماليك العربان " .

وهكذا نحى الملك الناصر محمد قلاوون بعد أقل من سنة وتم مبايعة السلطان العادل زين الدين كتيفا فاتخذ الأمير لاجين نائبا للسلطنة (ذلك الذى قتل فلما وجد حيا أنعم عليه الملك الأشرف و أبقاه) و أنعم على الجميع الصغير والكبير ..

فى عهده أفنى الطاعون ثلث المصريين عام 695 هـ غير 270000 " مائتى ألف وسبعين ألف إنسان من الغرباء " .

وفى عهده حدث قحط نتيجة لعدم فيضان النيل " فلما اشتد الأمر على الناس أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغال والجمال والخيل ... ولطف الله تعالى بأهل مصر فأرسل عليهم جرادا كثيرا فأكل منه الناس و استمرت هذه الشدة على الناس سنة كاملة " .

الجديد أن الناس لم تأكل بعضها بعضا فلقد أحضرت لهم غلال كثيرة من بلاد الفرنج وغيرها .

لاجين الذى كاد أن يقتله الأشرف وجعل منه العادل كتيفا نائبه انتهز فرصة سفر السلطان وتسلطن وتلقب بالملك المنصور و أرسل للسلطان الأصلى فى دمشق حيث كان " مراسيم لاجين بأن يخلع نفسه من السلطنة ويتوجه الى صرخر ويقيم بها وله ما يكفيه من النفقة كل يوم فأجاب بالسمع والطاعة " ... وخلع نفسه عن السلطنة .

" وكان لاجين باغيا على كتيفا وخلعه من السلطنة من غير موجب " .

لاجين هذا عندما تسلطن استخدم نفس السلاح سيف المعز وذهبه خلع وعزل وسجن وقتل ثم أنعم ووظف " فتم أمره فى السلطنة وخضع له العسكر " . من ضمن من قبض عليهم نائب السلطنة الأمير قراسنقر و أرسله للسجن ومن ضمن من خلع عليهم مملوكه منكوتمر واستقر به نائبا للسلطنة .

نائب السلطنة المنعم عليه الجديد كان قبيح الشكل والفعل " فصار يكابح الأمراء والجند أبخس مكابحة " وقام باعادة تقسيم الإيرادات بعد أن كانت 4 قراريط للسلطان و 10 قراريط للأمراء و 10 قراريط للجنود جعلها 13 قيراط للسلطان و 10 قراريط للأمراء والجنود قد تزاد قيراط , فقتل المماليك والحراس السلطان " وقعوا فى السلطان بالسيوف فقطعوه قطعا " . ثم قتلوا نائبه منكوتمر " أشر قتلة " .

ثانى يوم لقتل السلطان لاجين قتل مماليكه وحراسه قتلته " فكان بين قتلة الملك المنصور لاجين وبين توسيطهما ليلة واحدة " .

الأمراء اجتمعوا بالقلعة فوقع الاتفاق على عودة الملك الناصر محمد بن قلاوون فأبطأ واحد و أربعين يوما ـ ظلت مصر فيها بدون سلطان ـ ثم دخلها عام 698 هـ .

السلطان الذى أصبح فى سن الرابعة عشر بدأ سلطنته بتوبيخ الخليفة العباسى الإمام أحمد الحاكم بأمر الله فقال له عندما جاء للمبايعة " تقول عنى بأنى خارجى يا أسود الوجه " . فلم ينطق الإمام أحمد بحرف . كذلك فعل نفس الشىء مع شاعر قال عنه " ما للصبى وما للملك يكفله " ولكن هذا حلف بالطلاق ثلاثة أنه ما قال هذا البيت . السلطان فى المرة الثانية أيضا عزل من عزل وخلع من خلع و أنعم على جماعة من المماليك السلطانية .

" وتم أمره فى السلطنة بخلاف المرة الأولى ".

" غازان " ملك التتار حفيد " هولاكو " عندما عرف أن السلطان صغير السن استمع لنصيحة قفجق نائب الشام (تذكروا هذا الاسم) وزحف فى مائتى ألف مقاتل .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون خرج لملاقاته " فى مكان يعر ف بسلمية " بالقرب من بعلبك فانكسر عسكر السلطان وهرب الملك الناصر الى بعلبك فزحف التتار على ضياع الشام فسلم له أهلها وولى الأمير قفجق (الخائن) نائب الشام كما كان أولا .

الملك الناصر رجع لمصر فتح الخزائن وفرق لبوس وخوذ وسيوف ونفق على العسكر .. وعلى عسكر الشام الذين حضروا صحبته وعلى الأمراء ثم عاد لمقاتله " غازان " فى وسط الطريق تقلب عليه العسكر فنفق عليهم نفقة ثانية .

عندما وصلت مقدمة جيوشه الى دمشق خرج الأمير قفجق و أظهر الطاعة للسلطان وقعى لهم أنه عندما تلاقى جنود التتار مع جنود الترك المماليك كاد غازان أن ينكر فنصحه الخائن قفجق " القان يصبر ساعة فان عساكرنا لهم أول صدمة ثم يولوا عن القتال ... " فلما انكسر عسكر السلطان أراد غازان متابعتهم فقال له قفجق " أصبر ساعة فان عسكرنا لهم حيل وخداع فربما يكون لهم كمين يخرج علينا متنكر فسمح له وصبر ساعة حتى أبعدتم عنا .... " عميل مزدوج ذو عشرة وجوه.

فى أواخر هذه السنة وقعت فتنة عظيمة واختلفت طائفتان من العرب فنهبوا ضياع البحيرة جميعا و أحرقوا الجرون فلما بلغ السلطان ذلك أرسل لهم تجريدة " تحاربوا مع العرب فانكسروا أشد كسرة وهربوا نحو الجبال فاحتاط بهم العسكر وقتل منهم جماعة كثيرة وغنموا منهم جمالا وخيالا وأغناما وأسروا نساءهم " .

السلطان الصبى فى عام 700 هـ أمر السمر واليهود والنصارى بارتداء زى لكل طائفة " اليهود يلبسون عمائم صفر والنصارى زرق والسمر حمر فامتثلوا ذلك من يومئذ واستمروا على هذه الهيئة ....."

غازان ملك التتار وصل الى الفرات والسلطان الناصر خزائنه فارغة " ثم ندبوا الأمير سنقر الأعسر وزير الديار المصرية ليجبى الأموال من الناس فعمل فى الناس بالباع والذراع وجبى منهم الأموال فى أربعين يوما أو دون ذلك فتحصل من هذه الحركة مائتى ألف دينار وكسور " .

ولم يحارب السلطان بعد أن علم أن " غازان " تراجع .

ولكن فى السنة التالية دخل " غازان " حلب وهنا " ثم أن السلطان جمع طائفة من عربان الشرقية والغربية فاجتمع معه ما لا يحصى من العساكر وخرج على جرائد الخيل ... .. ومعه من العسكر ألف مقاتل " .

" فتلاقى الفريقان على مرج راهط تحت جبل غباغب فكان بينهما وقعة لم يسمع بمثلها فيما تقدم .. فكانت النصرة يومئذ للملك الناصر محمد بن قلاوون و انهزم عسكر غازان بعد أن قتل منهم نحو النصف و أسر البعض ... " .

عندما وصل مصر " ثم طلع الى القلعة وقدامه الأمراء مشاة وبين أيديه الأسارى ..... وهم فى زناجير حديد ومناجق غازان منكسر وكانت هذه نصرة على غير قياس " .

فى ذلك الوقت حدث زلزال مركزه الإسكندرية هدم المنارة وظلت توابعه لعشرين يوما .

ثم أن التتار تحركوا ثانيا على البلاد وعندما استعد السلطان لمواجهتهم جاءته الأخبار بأن التتار وقع بينهم خلف ورجعوا الى بلادهم فبطل أمر التجريدة .... .. " .

فى هذه السنة " دبت عقارب الفتن بين السلطان وبين الأمير سلار نائب السلطنة وثارت بينهما فتنة عظيمة وكثر القيل والقال ثم أن السلطان قبض على جماعة من الخاصكية الذين هم من عصبة سلار .... فلما قبض عليهم أرسلهم الى القدس فعز ذلك على الأمير سلار " .

ماذا فعل السلطان ؟

" أظهر السلطان أنه يحج وشرع فى عمل البرق وعين صحبته جماعة من الأمراء ..... وأخذ عياله و أولاده ونساءه فعيد عيد الفطر فى بركة الحاج ثم رحل .. فلما وصل الى العقبة جمع الأمراء وصرح لهم بما عنده كمين فى خاطره من سلار النائب والأتابكى بيبرس الجاشنكير ثم رسم للأمراء الذين فى صحبته أن يرجعوا الى القاهرة و أنه اختار الإقامة بالكرك وخلع نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك " .

" وكان السلطان لما خلع نفسه من الملك كتب مع الأمراء مطالعة تتضمن أنه رغب عن الملك واختار الإقامة بالكرك و أن الأمراء يولوا من يختاروه سلطانا عليهم . . . . "

قال صلاح الصفدى " وكان سبب توجه الملك الناصر الى الكرك فانه كان مع سلار و الأتابكى بيبرس كالمحجور عليه لا يتصرف فى شئ من أمور المملكة إلا باختيارهما حتى قيل أنه طلب يوما رميسا بدرى يرسله الى الطباخ يصنعه شوى فمنع منه وقيل له حتى يجئ كريم الدين كاتب الأتابكى بيبرس فعز ذلك على السلطان و أخذ فى نفسه فأظهر أنه يريد الحج فى تلك السنة " .

وهكذا انتهت ولايته الثانية

" اشتور الأمراء فى بعضهم وقالوا " ان عاودنا السلطان فى العود الى الملك نخشى أنه لا يجيب الى ذلك وتطمع العربان فى البلاد الى أن يعود الجواب إلينا بما يكون " .

كانت الكلمة يومئذ مجتمعة فى سلار نائب السلطنة فامتنع من ذلك وحلف بالطلاق أنه ما يتسلطن فترشح أمير الأتابكى بيبرس الجناشنكير الى السلطنة و أن سلار يكون نائبه فانتظم الأمر وتحالف الأمراء على ذلك " .

بعد أن خلع الملك الناصر محمد نفسه بويع بالسلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير " أخلع على الأمير سلار و استقر به نائب السلطنة و أخلع على جماعة كثيرة من الأمراء والمعاشرين حتى قيل أنه أخلع فى ذلك اليوم نحو ألف وثلثماية خلعة .... "

" أهل مصر لم يعجبهم هذا فصنف العوام كلاما ولحنوه وصاروا يغنون به " يهزأ بالمظفر وسلار ويطالبون بالناصر ..

ماذا يفعل السلطان الجديد ؟ كالعادة

" فلما فشى هذا الكلام بين الناس بلغ السلطان فرسم للوالى أن يقبض على جماعة من العوام فقبض على جماعة منهم نحو ثلثماية إنسان فرسم السلطان بضرب جماعة منهم بالقارع و إشهارهم فى القاهرة على جمال ورسم يقطع السنة جماعة منهم ... " .

وكالعادة " اضطربت الأحوال فى أوائل دولة المظفر بيبرس وصار العسكر فريقين فرقة مع الملك الناصر وفرقة مع بيبرس الجاشنكير و الأكثر كان مع الملك الناصر .. فقبض عليهم وأرسلهم الى السجن بثغر الإسكندرية وقبض على جماعة من المماليك الناصرية و أرسلهم الى قبرص وكان عدتهم نحوا من ثلثماية مملوك " .

الملك المظفر أرسل الى الملك الناصر محمد بن قلاوون يقول " إذا أنت لم ترجع عن مكاتبتك للأمراء و الا نقلتك من الكرك الى القسطنطينية ... "

فلما وصلت الرسالة الى الملك الناصر اشتد غضبه و اعتقل حاملى الرسالة فى الجب بقلعة الكرك ثم ... أرسل مطالعة المظفر بيبرس التى أرسلها له الى نائب حلب والنواب الآخرين فأرسلوا له يقولون " نحن مماليكك و مماليك أبيك فمهما شئت نحن طوع يدك وتحت أمرك".

فى النهاية " ثم أن الملك المظفر أحضر القضاة الأربعة وخلع نفسه من الملك و أرسل بهذا للملك الناصر طالبا الأمان " .

الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما تولى للمرة الثالثة أعطى الملك المظفر منديل الأمان ووعده ثم أخذ كل أمواله ونفاه ومع ذلك لم يهدأ إلا بعد خنقه أمامه وبين يديه .

أما الأمير سلار ـ النائب ـ فقد دخل على السلطان وباس الأرض وسأل السلطان أن يعفيه من النيابة و أن يخرج من مصر ويتوجه الى الشوبك فيقيم بها حتى ينقضى عمره ... فامتنع السلطان .. فبكى سلار ولازال يتضرع الى السلطان حتى أجابه الى ذلك و أخلع عليه الخلع .. بعد ذلك لم تمض سنة حتى اعتقله ثم منع عنه الماء والطعام لعدة أيام " فلما تزايد به الجوع أكل أخفافه من رجليه من شدة الجوع " أكل جزمته ثم مات مـــن شدة الجوع وهو الذى كان يملك قناطير من الذهب استولى عليها السلطان بعد موته .

" قال بعض المؤرخين : عجبت من أمر سلار فى جمع الأموال العظيمة وكانت مدته فى نيابة السلطنة إحدى عشر سنة فكيف حوى هذه الأموال العظيمة فى هذه المدة اليسيرة؟ والذى يظهر بعين الفراسة إما أنه ظفر بكنز من كنوز القدماء و إما أنه أخذ هذه الأموال والتحف من بيت المال عند اعتزال الناصر محمد وهذا الوجه الأقرب " . [أمال عزبة أبوهم !!]

هكذا بدأ الطفل ثم الفتى يتحول الى حيوان برى شرس فى ولايته الثالثة يقتل وينهب .. يعد ثم يغدر .. يجمع السلطة كلها فى يده ولا يشبع أبدا من مراكمة الأموال .

فهو قد عزل نائب الشام وعين آخر الذى أقام فى النيابة مدة يسيرة فيعزله هو الآخر ويعيد الأول ويعين نائب للسلطنة ثم يقبض عليه ويسجنه بالقلعة ثم يعين آخر ويخلع عليه ثم يقتله .

وهو عندما يبنى أى منشأ جديد يسرق أعمدته و أعتابه و أساساته من منشآت من سبقوه.

ويرهب من حوله من الملوك و الأمراء بحيث يحضر له صاحب اليمن الهدايا وملك النوبة يهديه ألف رأس رقيق وخمسماية جمل وخمسماية بقرة و ألف رأس غنم وعشرين جملا عليها تمر فى أجربه .

التتار حاولوا ثالثا أو رابعا غزو البلاد فتبعهم نائب حلب فكسرهم كسرة قوية ونهبهم .

العربان أيضا عندما أفسدوا فى الصعيد خرج لهم بنفسه فقتل أكثرهم من الجوع والعطش بعد أن حصرهم فى الصحراء و أسر نصفهم " فصار يستعملهم فى حفر الجسور " أى سخرة .

كذلك العربان فى بلاد البجاه (قد تكون البحر الأحمر) وفى برقة وفى آمد .

" وكان قد حصل غاية الفساد " .

وظل على هذا الحال " يفرج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بثغر الإسكندرية " ... ثم بعد ذلك " قبض على جماعة من الأمراء و أرسلهم الى السجن بثغر الإسكندرية عوضا عمن أفرج عنهم " .

وينعم على الأفراد ثم " يتغير خاطره " فيقبض عليهم و " يحتاط على موجوده " يضعه تحت الحراسة " ورسم بنفيه وصادر غلمانه ونساؤه وماشيته واستصفى أمواله " ... وعادة ما يموت من " يتغير خاطر " السلطان عليه إما بالاغتيال أو بالتجويع أو بالتعذيب أو الخنق . حتى ابنه الأمير أحمد لم ينج منه عندما غضب عليه نفاه " فتوجه الى الكرك و أقام بها ".

زوج أخته الأتابكى بكتمر عندما " كان يحجر عليه إذا رأى منه جور فى حق الرعية وكان السلطان يخشى منه و لا يخالف فيما أمر " " دس عليه من أسقاه سما هو وولده الأمير " يعنى ابن أخته " وصفا له الوقت بموت الأتابكى بكتمر "

أقدر مداخلة الملوك ولا تكن ما عشت بالتقريب منهم واثقا

هكذا كان الشعراء يقولون عن عصره .

الطاعون تسبب فى وفاة أعداد لا حصر لها مرات عديدات فإذا ما أضيف له القحط والتتار ونهب المماليك فكيف كان يعيش المصريون .

السلطان محمد كان شديد الولع بالسلطة فلم ينج منه أحد حتى الخليفة العباس المستكفى بالله عندما " تغير خاطره منه " سجنه هو وعائلته فى القلعة ثم نفاه الى قوص ومنع تعيين ابنه مكانه عندما مات وعين آخر كان العامة لفرط قذارة نفسه وطمعه يسمونه " المستعطى بالله " .

كذلك كان شديد الولع بجمع المال عندما وجد أن الحاج على بن فضيل شيخ مدينة ملوى يزرع 500 فدان قصب فيعصرها ويستخرج منها السكر المكرر و قطر النبات والعسل الأسود قبض عليه وسجنه و استولى على ما فى مخازنه 14 ألف قنطار سكر ومثلها عسل أسود " فحمل جميعه الى الحواصل السلطانية " ثم أفرج عنه و أخلع عليه و أعيد الى حاله بمدينة ملوى .

كذلك مسك تنكز نائب الشام " احتاطوا على موجوده فوجد له من الذهب والتحف والقماش ما لا يسمع بمثليه .... ما حمل الى القاهرة على مائة وخمسين جملا " .... " فوصل ذلك الى الخزائن

الشريفة " " ثم أن السلطان رسم بخنقه " " فذهبت روحه و أخذ أمواله وتخلى عنه السلطان " لذلك قال الحكماء " ثلاثة لا يؤمن إليهم المال و إن كثر والملوك و إن قربوا والمرأة و إن طالت صحبتها " يا سلام يا ابن اياس .

ومع ذلك فإمبراطورية الناصر محمد بن قلاوون " ما سمعت لأحد من الملوك مثل أخبار الملك الناصر وما وقع له من الوقائع الحسنة فانه خطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك غيره وكاتبوه سائر الملوك من مسلم وكافر وهادوه وصار جميع العسكر من كبير وصغير فى قبضته " .

الناصر محمد أوصى قبل موته بأن يتولى ابنه " الملك الناصر دون أولاده وقدمه عليهم " فتولى وله من العمر نحو عشرين سنة .

وكان السلطان (الجديد) من طبعه الهوج والخفة فأسر لبعض خاصته أنه سيقبض على الأتابكى قوصون ... فلما عرف قوصون بهذا تغذى بالسلطان قبل أن يتعشى به فقبض عليه و أرسله الى قوص ثم شرع فى القبض على جماعته من الأمراء و أمراء العشراوات بلغ نحو مائتى مملوك فى النهاية بعد أن استتب له الأمر " أرسل الى متولى ناحية قوص بأن يقتل الملك المنصور وهو فى السجن فقتله خنقا ثم قطع رأسه و أرسلها الى قوصون " الذى أشاع موته و لم يمض على توليه الحكم أكثر من ثلاثة أشهر ... ليموت أول الخلفاء أبناء قلاوون ... بعد قتل الملك المنصور بويع للسلطنة أخيه الأشرف علاء الدين كجك وكان سبب تسميته كجك التى هى لفظ عجمى يعنى " صغير " أنه تولى الخلافة وعمره 7 سنوات فقط .

" فلما تم أمره فى السلطنة أخلع على المقر السيفى قوصون وقرره نائب السلطنة بمصر و أتابك العسكر ... "

وكما هى العادة قبض قوصون على نائب السلطنة السابق وعلى جماعة من الأمراء ونفاهم الى ثغرى دمياط و الإسكندرية و أخلع على جماعة من الأمراء ممن كانوا فى عصبته .

الأشرف كجك كان كالعصفور فى يدى النسر قوصون " فاضطربت أحوال الديار المصرية وتعطلت أحوال البلاد الشامية وضاعت مصالح الرعية . ثم أن قوصون تمادى فى غيه وصار يقبض على المماليك فى كل يوم جماعة حتى أرسل بالقبض على نائب الشام وعلى طشتمر حمص نائب حلب الذى توجه الى الكرك و أخذ الأمير أحمد بن الملك الناصر الذى كان قد نفاه من قبل من منفاه فتسامعت به النواب .. ثم أن جماعة من عربان جبل نابلس التفوا عليهم فقوى عزمهم على قتال عصبة قوصون والتفوا حول القلعة محاصرين لها ونهبوا بيوت الأتابكى قوصون .. وصار كل من لاح لهم من مماليك قوصون أو من حاشيته يقبضوا عليه ويقتلوه شر قتلة طول اليوم حتى استسلم لهم " فنزلوا به وهو مقيد من القلعة و توجهوا به الى ثغر الإسكندرية حيث سجن " ثم خلع الأشرف كجك من السلطنة و دخل الى دور الحريم و صار العسكر ينتظرون قدوم الأمير أحمد من الكرك فكانت مدة ولاية الأشرف خمسة شهور .

الناصر أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما رجع من الكرك حيث نفاه أبوه " ظنوا أنه الليث الغالب والشهاب الثاقب فخابت فيه الظنون وقيل معلم مجنون " لقد قبض على أمراء وقتلهم ثم قبض على الأمراء الذين التفوا حوله وكانوا السبب فى تقلده الحكم ونفاهم .. ثم نفى نفسه

اختياريا الى الكرك بعد أن نهب خزانة مصر ورفض العودة الى السلطنة رغم محاولات الأمراء ثنيه عن نيته فعزله الأمراء وعينوا مكانه أخوه الملك الصالح أبو الفدا عماد الدين بن قلاوون .

السلطان الجديد " عزل من عزل وولى من ولى و أظهر العدل بين الرعية و نظر الى القوى والضعيف بالسوية وبسط فيهم العدل " .

فى السنة التالية تغير خاطره على نائبه فعزله وسجنه .. ثم تغير خاطره على أخيه السلطان المخلوع فأرسل للكرك حيث نفى نفسه بتجريدة تلو الأخرى للقبض عليه لكنه فشل .. فحاصر الكرك حتى نفذ ما لدى السلطان المخلوع من مال و طعام فاستسلم لجنود أخيه .. فقطعوا رأسه ووضعوها فى صندوق و أرسلوها الى السلطان .. الذى سجد لله شكرا و صار يتأمل رأس أخيه طويلا ثم أمر بدفنها .

يقول الصلاح الصفدى " لما رأى الملك الصالح رأس أخيه أحمد بين يديه زمع منها و استمر مرجوفا من ذلك الى أن مات بعد ذلك بمدة يسيرة فى الحادى عشرين ربيع الأول سنة ست و أربعين و سبعمائة " .

مات على سريره - حاجة غريبة واحد منهم مات طبيعى - بعد حكم ثلاث سنين وشهر ونصف !

الملك الكامل زين الدين شعبان بن قلاوون بويع بعد وفاة أخيه فكان الخامس من أبناء الناصر محمد بن قلاوون والسابع عشر من ملوك الترك وكما هى العادة قبض على نائب السلطنة وسجنه ثم أفرج عنه وولاه نيابة صفد ثم أرسل خلفه من قبض عليه ثانيا ثم سجنه بثغر الإسكندرية بعد ذلك خرج والى الشام عن طاعة السلطان فجهز الجيش ليخرج بنفسه الى الشام وهكذا صادر الأموال وابتدأ فى الجور على الرعية لجمع تكاليف الحملة " وتزايد منه الضرر الشامل ".

الملك الكامل هذا " تخيل من أخيه حاجى وسيدى حسين فبدا له أن يقبض عليهما " " فدخل الأمير أرغون الى دور الحرم و أخرج سيدى حاجى وسيدى حسين سحبا على وجهيهما وهما فى غاية البهدلة يتباكيان ثم جهز لهما قبو وضعهما فيه وقرر أن يغلقه عليهما حتى يموتا جوعا وعطشا .. ولكن باقى الأمراء حاربوه فانهزم و اختفى منهم فى زير به ماء .. عندما أخرجوه منه كان الأمراء قد بايعوا أخوه سيدى حاجى فجلس فى مكانه على سرير السلطنة أما الملك الكامل فكان مكانه نفس القبو الذى أعده لأخويه فظل محبوسا لثلاثة أيام ثم أمر السلطان الجديد بخنق أخوه السلطان المخلوع فخنق تحت الليل .

المظفر حاجى بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كان يبكى أمام أخيه بعد أن جره على وجهه وبهدله .. عندما تولى أمر بخنق أخيه السلطان السابق ثم وفى مذبحة تشبه مذبحة القلعة دعى الأمراء وهاجمهم " جماعة من المماليك السلطانية و بأيديهم سيوف مسلولة و أطبار و كانوا نحو خمسمائة مملوك فلما دخلوا قبضوا على جماعة من الأمراء" والبقية معروفة سجن فى القلعة .. ثم خنق ليلا .. ونفى الباقين الى ثغر الإسكندرية .

يقول ابن اياس " ومن العجائب أن هؤلاء الأمراء كانوا سببا لسلطنة الملك المظفر حاجى فأخذوا من الجانب الذى كانوا يأمنوا إليه "

تاريخ المظفر بعد ذلك هو سلسلة من الخيانات و الاغتيالات التى تتم ليلا أما العوام فلهم الضرب بالمقارع وقطع الأيدى والطواف بالقاهرة و أما المال فقد كان ينفقه على نزواته " فكان من جملته

ذهب عين خمسين ألف دينار فأصرف السلطان ذلك المال جميعه على الحمام فصنع لهم خلاخل ذهب فى أرجلهم و ألواح ذهب فى أعناقهم وصنع لهم مقاصير خشب مطعم بالعاج والأبنوس و أقام لهم غلمان يكلفونهم ورتب لهم فى كل شهر جوامك بسبب خدمة الحمام " ... عندما عاتبه الأمراء " قام من وقته وطلع الى السطح و أرسل الى الأمير جبنا (الذى عاتبه) وهو يقول له " انى قد ذبحت ما عندى من الحمام جميعها و أنا إن شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم من الأمراء كما ذبحت الحمام " .

الأمراء تجمعوا لحربه وهو أعد العدة للقتال وفى ميدان القتال كما هى العادة خلى به رجاله وتجمع عليه المعارضون فأسروه ثم خنقوه فى التربة التى دفنوه فيها ثم اختاروا الأمير حسن ابن قلاوون ليحل محل أخيه المخنوق .

الملك الناصر أبى المحاسن حسن بن محمد ابن قلاوون كان سابع أبناء الملك الناصر الأب والتاسع وعشرين الترك

الناصر حسن قلاوون تعلم مما حدث لأخيه حاجى فعندما تولى " أخلع على الأمراء وعلى جماعة كثيرة من المعاشرين و قررهم فى الوظائف السنية ثم أنه فرق الاقطاعات على المماليك السلطانية و أرضى الجند بكل ما يمكن " .

ولكن فى هذه السنة احترق بحر النيل احتراقا زائدا حتى عز وجود الماء وكان عليهم " أن يسدوا البحر مما يلى بر الجيزة فندبوا وزير الديار المصرية بأن يتولى أمر ذلك فأظهر فى هذه الحركة أنواعا كثيرة من أبواب المظالم ما رمى على كل دكان بمصر والقاهرة درهمين فضة وبرزت المراسيم الشريفة الى كاشف الشرقية بأن يرمى على كل نخلة فى البلاد درهما .."

هذا الوزير صنع عدة جسور بالأموال التى جمعها ولكن عندما زاد الماء اندفع خلف الجسور فكسرها و أغرق بولاق فتغير خاطر السلطان عليه وعزله من الوزارة و قرر عليه غرامة . . . عندما سددها أعاده ثانيا " وراحت على الناس أموالهم التى أوردوها فى هذه الحركة بغير طائل " .

ثم وقع الطاعون بالديار المصرية وعم سائر البلاد وكان فناء عظيما جدا " وقع فى هذه السنة الفناء والغلاء بسبب الشراقى الذى وقع بمصر من خسة النيل فى هذه السنة وقاست الناس فيها شدائد عظيمة وتوفى بها جماعة كثيرة من الأعيان . . . "

" فزاد أمر الطاعون بالديار المصرية وهجم جملة واحدة وعظم أمره جدا حتى صار يخرج من القاهرة فى كل يوم نحو عشرين ألف جنازة " ليقضى على تسعمائة ألف إنسان من رجال ونساء وكبار وصغار وجوار وعبيد ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة " " ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة إلا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم من يزرع الأراضى فوقع الغلاء بمصر وكادت مصر أن تخرب فى هذه السنة من الغلاء والفناء "

ثم أن التتار هجموا على مدينة سنمار وملكوها ولكن السلطان أرسل لهم تجريدة حاصرت المدينة وطردت التتار خارجها .

ومع ذلك وثب جماعة من الأمراء على السلطان فقبضوا عليه و أدخلوه دور الحريم ووكلوا به جماعة من الخدام ثم خلعوه وولوا أخوه سيدى صالح .

الملك الصالح صلاح الدين كان آخر أبناء الناصر محمد بن قلاوون الذين تولوا السلطنة وثامنهم .. " فلما تم أمره فى السلطنة فوض أمور المملكة كلها الى الأمير طاز و صار صاحب الحل والعقد فى أيام دولته و اجتمعت فيه الكلمة فشق ذلك على بقية الأمراء قاطبة ودبت بينهم عقارب الفتن فتزايد الأمر منهم " .

كانت نتيجة هذا ما يشبه الحرب الأهلية والتى استعان فيها السلطان لأول مرة بالعامة " ثم أن السلطان نادى للعوام أن من وجد مملوكا من مماليك الأمير منكلى بنا والأمير مغلطاى يقتله و يأخذ عريه فقتل فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من المماليك و راح الصالح بالطالح ".

السلطان كالعادة أفرج عن المماليك الذين حبسهم السلطان حسن بالإسكندرية وسجن آخرين بدلا منهم وقتل من قتل و أنعم على من أنعم كما هو متبع من سلاطين المماليك ... ثم أن نائب الشام أظهر العصيان " و دخل الى الشام وصحبته من العساكر ما لا يحصى ومن الأمراء نحو ستين أميرا و التف عليه من العربان والعشيرة جماعة كثيرة ...... فكان عدتهم نحو عشرة آلاف إنسان " .

السلطان أرسل بعض الأمراء الى الصعيد لكى " يحفظوا الضياع من فساد العربان بسبب أن لا ينهبوا المغل فان القمح كان بالجرون . . . . "

وخرج من القاهرة فى حملة عسكرية حتى دخل الى دمشق حيث قضى على العصاه " ثم أن عسكر السلطان صار يقبض على من كان مع ـ الوالى ـ من النواب و الأمراء الذين خامروا وخرجوا عن الطاعة فأسروهم ووضعوهم فى القيود فى الزناجير . . . " وعاد الى القاهرة منتصرا .

السلطان أيضا قبض على قاضى القضاة والوزير علم الدين بن زنبور و استولى على أمواله التى ذكرها ابن اياس فى صفحتين من كتابه تشير الى حجم رفاهية وغنى لا يمكن تصوره " وهذا الموجود الذى ظهر للصاحب علم الدين بن زنبور ما لا سمع بمثل ذلك من موجود الخلفاء العباسية ولا الخلفاء الأموية ولا وزراء البرامكة " .

العربان أيضا " أظهروا العصيان ونهبوا الغلال من الجرون وكان شيخهم شخصا يسمى عمر ابن الأحدب شيخ قبيلة عرك فاجتمع عليه عدة قبائل من العربان وتحالفوا على العصيان على السلطان قاطبة والخروج عن الطاعة " .

السلطان خرج إليهم بنفسه وحاربهم وقتل منهم عشرة آلاف وهرب شيخهم ابن الأحدب فصار الأمير شيخوا يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول " دكيك " فلا زال يقطع من رؤوس العربان والفلاحين الذين بضياع الصعيد حتى بنى من رؤوسهم عدة مصاطب و مآذن على شاطئ بحر النيل كما فعل هولاكو ببغداد " .

غنم السلطان من العربان أشياء كثيرة خيول وجمال و أغنام و أبقار وسيوف و رماح و درق و غير ذلك و أسر منهم نحو ألف إنسان " ثم أن السلطان نادى فى القاهرة بأن فلاحا لا يركب فرسا ولا يشترى سلاحا ولا سيفا ولا رمحا . . . "

" نادى السلطان فى القاهرة أن لا يهودى ولا نصرانى يستعان بهم فى ديوان و أن لا يركبوا مع مكارى مسلم و أن تكون عمائمهم أقل من عشرة أذرع و إذا ما مروا بالمسلمين وهم راكبون ينزلون عن البهائم و انهم لا يدخلون الحمام إلا وفى أعناقهم صلبان خشب قدر قرمة كبيرة و اشرطوا عليهم أشياء كثيرة من هذا النمط " .

فى النهاية " وثب جماعة من الأمراء على السلطان وكان الأمير طاز قد توجه الى البحيرة بسبب فساد العربان فاغتنموا الأمراء هذه الفرصة ووثبوا على السلطان " . . . " قبضوا عليه وسجنوه بدور الحرم ووكلوا به جماعة من الخدام وخلعوه من السلطنة فى يومه وزال ملكه كأنه لم يكن " بعد أن حكم ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و أربعة أيام .

بعد خلع الصالح صلاح الدين اتفق الأمراء على عودة الملك حسن فأخرجوه من دور الحرم و أعادوه الى السلطنة .

السلطان عندما عاد الى سرير الحكم أخلع و أنعم على الأمراء حتى الأمير طاز لم يقتله إنما أرسله نائبا على حلب ولكن

" فاض النيل فى الزيادة حتى بلغ عشرين إصبعا من إحدى وعشرين ذراعا حتى غرق كوم الريش بجميع أراضيه وغرق أطراف أماكن الحسينية وغرقت شبرا ومنية السيرج وغرقت بساتين المطرية جميعا وبساتين جزيرة النيل و انقطعت الطرقات من سائر جهات الشطوط وغرقت أراضى الروضة جميعا وغير ذلك من الأراضى " .

فى عهد السلطان الناصر حسن الثانى زادت العمارة و الإنشاءات من جوامع وخانقاه وحمامات وربوع وحوانيت وكان أهمها مدرسة السلطان حسن " التى تجاه القلعة عند سوق الخيل قيل أن إيوانها الكبير بنى على قدر إيوان كسرى أنو شروان الذى بالمدائن .. وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به يشغل فيها العلم "

" يقال انتهى العمل فى بناء هذه المدرسة فى ثلاث سنين ونصف وقيل كان مصروفها فى كل يوم مثقال من الذهب الهرجه " .

" والمدرسة لها ثلاث مآذن . . . . . . ونقل بعض المؤرخين أن لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا فى الرمل مرساه مركب وهذا يدل على أن البحر كان يجرى هناك قديم".

" كثرت الأوقاف الاحباسية على الديوره والكنائس حتى بلغ قدر ذلك فى ديوان الأحباس من الرزق خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى . . . " " السلطان رسم بإخراج تلك الرزق جميعها وفرقها على الأمراء بمربعات زيادة على إقطاعاتهم و أبطل الأوقاف التى كانت على الديوره والكنائس بيد النصارى " .

" ثم أن السلطان رسم للأمير حرغتمش بأن يهدم الديوره و الكنائس الكبيرة وكان يومئذ بشبرا القاهرة كنيسة كبيرة على شاطئ النيل وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من الحديد وفيه عقده من إصبع ممن هلك من عباد بنى اسرائيل يسمونه الشهيد وكان النصارى فى اعتقاد عظيم " " وكان رهبان النصارى يتوارثونه فإذا كان الثامن من بشنس تجتمع الرهبان فى تلك الكنيسة ويخرجوا ذلك الإصبع ثم يغسلونه فى بحر النيل ويزعمون أن النيل لا يزيد كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الإصبع . . . . ."

" ويسمون ذلك يوم الشهيد فتخرج القاهرة قاطبة وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا رب ملعوب و لا ما جن ولا خليع حتى يجتمع بشبرا وتنفق هناك من الأموال ما لا يحصى وتتجاهر الناس بالمعاصى والفسوق حتى يخرجوا فى ذلك اليوم عن الحد . . . حتى قيل كان يباع بشبرا فى يوم عيد الشهيد خمر بثلاثة آلاف دينار فى ثلاثة أيام وكانت شبرا تزرع كلها كروما فتعصر خمرا حتى تباع يوم عيد الشهيد " .

السلطان منع هذا ومن يفعل يشنق و أمر بهدم تلك الكنيسة وحرق الإصبع .

الأمير حرغتمش هذا اعتقله السلطان بعد ذلك عندما زاد نفوذه فلما حاول مماليكه وكانوا يومئذ ثمانمائة مملوك الدفاع عنه حاربهم مماليك السلطان وهزموهم " فلما رأوا العوام أن الكسر على

حرغتمش توجهوا الى بيته وهم السواد الأعظم من الزعر فنهبوا جميع ما فيه حتى فكوا الرخام من الحيطان ثم توجهوا الى مدرسته ونهبوا ما فيها من البسط والقناديل وما فى خلاوى الصوفية ثم نهبوا دكاكين الصليبة مضافا لذلك وصاروا كل من رأوه من حاشية حرغتمش يقبضون عليه فى الطرقات ويعرونه ثم نهبوا بيوت مماليكه و استمروا على ذلك طول النهار " .

ثم أرسل حرغمتش الى سجن الإسكندرية حيث خنق ليلا كالعادة . " ثم أن السلطان احتاط على موجوده من صامت وناطق فظهر له من الموجود ما لا ينحصر قدره من مال وسلاح وتحف وقماش وغير ذلك " .

وكما هو الحال دائما . . . انتهى الأمر بقتل السلطان بواسطة أحد خاصته بعد أن خاض حربا أهلية ضد عسكر السلطان ومماليكه وهرب السلطان فى زى أعرابى فقبض عليه العربان على طريق بلبيس وسلموه لأعدائه الذين خنقوه ليلا فى سجن الإسكندرية ورميت جثته فى البحر بعد أن حكم ست سنين وسبعة أشهر و أيام فى ولايته الثانية .

السلطان حسن هذا كما أورد ابن اياس " كان يحب اللهو والطرب وكان يميل الى سماع الآلات ويقرب المغانى ويميل الى شرب الراح وحب القيان من النساء الملاح ويحب أرباب الفن من المغانى قاطبة " يعنى ابن أُنس .

" وهو آخر من ولى ملك مصر من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان كفوا للسلطة وافر الحرمه عالى الهمة نافذ الكلمة ومن أراد أن يعرف علو همته فلينظر الى بناء مدرسته التى أنشأها بسوق الخيل " .

الملك الحادى والعشرين من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية كان الملك المنصور صلاح الدين ابن الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد ولم يكن من أبناء الناصر محمد بن قلاوون الذين تولوا الحكم بل من الأحفاد .

المنصور كان مثل عمه السلطان حسن يحب اللهو والطرب " فانهمك على شرب الخمر وسماع الآلات والزمور واشتغل بذلك عن أمور المملكة " تاركا كل السلطة لقاتل عمه الأتابكى يلبغا فزادت سطوته و أصبح المتحكم فى المماليك ينعم على من ينعم ويدخل سجن الإسكندرية من يريد خصوصا أنصار السلطان حسن . .

وهكذا " احتجب المنصور عن الناس فى المحاكمات فضاعت حقوق المسلمين ولم يجدوا لهم ناصر ولا معين " . فثار المماليك " و أدخلوه دور الحريم بالقلعة فسجن بها " ثم " حضر الخليفة المتوكل على الله و القضاة الأربعة وقامت البينة فشهدوا عند الخليفة بأن الملك المنصور محمد فى عقله بعض خلل وليس عنده أهلية للقيام بأمور المملكة فخلعه الخليفة . . . . " " فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنتين وثلاثة أشهر ولم يكن من السلطنة سوى مجرد اسم فقط و الأمر والنهى لقاتل عمه الأتابكى يلبغا " .

الخلع والسجن لم يعنى شيئا لدى المنصور فلقد بقى فى الحريم " يسلى نفسه عن الملك ويشرب الراح فكان لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا وكان عنده جوقة مغانى نحو عشرة جوار يزفون بالكارات عند الصباح وعند المساء وكانت هذه عادة رؤساء أهل مصر يقتنون عندهم الجوار

المغانى . . . " "ولما مات المنصور استمرت جواريه المغانى يعملون الأفراح للناس وكانوا يعرفون بجوقة المنصور " أنعم و أكرم .

الأتابكى يلبغا بعد أن تسبب فى قتل سلطان وخلع آخر اختار طفلا عمره اثنتى عشرة سنة ليصبح فى 15 شعبان 764 هـ - 30 مايو 1363 م السلطان الجديد باسم الملك الأشرف زين الدين أبى المعالى شعبان وهو ابن عم المنصور الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون السلطان الثانى والعشرين من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية .

السلطان الجديد كان كالعصفور فى يد الصقر يلبغا يفعل به ما يريد فأخلع على من أخلع و أعاد تقسيم الولاة على الأقاليم و الاقطاعات على المماليك السلطانية و أرض الجند بكل ما يمكن فاستقامت الأمور وخمدت الفتن ولكن كان للطاعون رأى آخر فقد هاجم القاهرة " ومات به مالا يحصى من الناس من صغار وكبار ثم وقع عقيب ذلك الغلاء بالقاهرة وكان سبب ذلك أن النيل توقف عن الزيادة . . . . ."

الفرنج أيضا " هجموا على ثغر الإسكندرية فى سبعين مركبا من الأغربة البحرية وهى مشحونة بالرجال والسلاح وملكوا الثغر . . . ."

" وقد لعب عساكر الفرنج فى أهل المدينة بالسيف واستشهد خلق كثير من المسلمين وهلك من الناس مالا يحصى عددهم فى الازدحام عند عبور باب المدينة " .

" ونهبوا جميع ما فى مدينة الإسكندرية وقتلوا من المسلمين نحو خمسة آلاف إنسان و أسروا النساء والأطفال وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها " .

" وقد أقاموا يقتلون ويأسرون ويسبون وينهبون أموال الناس ويحرقون عدة أماكن ودكاكين من صحو نهار الجمعة الى بكرة نهار الأحد فرفعوا السيف عن أهل المدينة فكانت مدة أقامتهم بثغر الإسكندرية ثمانية أيام " .

" فمن يومئذ اختلت أحوال ثغر الإسكندرية وتلاشى أمرها و قلت أموالها واختل نظامها ورحل عنها سكانها "

ماذا فعل المماليك ؟ .

" رسم بالقبض على جميع الفرنج الذين كانوا بمصر والشام وبحلب وسائر الأعمال قاطبة فلما قبض عليهم أودعهم فى الحبوس حتى يرى ما يكون من أمر من أسر من المسلمين وضيق عليهم وقاسوا مالا خير فيه فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث " .

وكالعادة قاتل المماليك بعضهم بعضا فالأتابكى يلبغا ضد الأمير طيبنا الطويل أمير السلاح انتهت بانتصار يلبغا " فلما تكامل مسك الأمراء أحضروهم الى بين يدى الأتابكى يلبغا فرسم بتقييدهم أجمعين و أرسلهم تحت الليل الى السجن بثغر الإسكندرية ..... "

" شرع الأتابكى يلبغا فى عمارة مراكب أغربة . . . . . لإرسال تجريده الى قبرص وغيرها من بلاد الفرنج فقدم نحو مائة غراب " . " وقد كملت عمارة الشوانى البحرية وكان عدتها مائة قطعة ما بين أغربة وطرايد . . . استخدم لها من الرجال ما يكفيها ما بين مغاربة وتراكمة وصعايدة ورتب لهم رؤساء ونقباء " ولم تستخدم قط .

العرب أيضا " وقد قدم الخبر بكثرة فساد أولاد الكنز وطائفة العكارمة بأسوان وسواكن و أنهم منعوا التجار وغيرهم من السفر لقطعهم الطريق و أخذهم أموال الناس بغير حق و أن أولاد الكنز قد غلبوا على ثغر أسوان وصحراء عيذاب وبرية الواحات الداخلة وصاهروا ملوك النوبة و أمراء العكارمة و اشتدت شوكتهم ".

ملك النوبة أقام لهم وليمة " جمع فيها أمراء بنى جعد وكبارهم وقد أعد لهم جماعة من ثقاته ليفتكوا بهم فأخليت الدور التى هى حول مضيفهم و ملأها حطبا .. فلما أكلوا وشربوا ثم ناموا خرجت عليهم جماعته بأسلحتهم و أقاموا على باب الدار و أضرموا آخرون النار فى الحطب فلما اشتعلت النار بادر العربان للخروج من الدار فوقع فيهم القوم بالقتل فقتل منهم تسعة عشر أميرا من أكابرهم ثم ركب الى عسكرهم فقتل منهم مقتله كبيره وانهزم باقيهم .... "

إزاء هذه الفوضى أرسل السلطان تجريده من نحو ثلاثة آلاف مملوك عندما وصلوا الى أسوان " فدبر حيلة مع ملك النوبة على طائفة أولاد الكنز والعكارمة فقبضوا عليهم أجمعين " ... " و أحاطوا بالعربان والعصاه أجمعين بجزيرة ميكائيل عند طلوع الشمس فأسروا من كان بها من طائفة العكارمة وقتلوا عدة منهم كبيرة وقد أرموا عليهم بالنشاب ففر جماعة منهم وتعلق بالجبال وجماعة منهم غرقوا فى البحر " . " وحمل على الجمال ما غنمه من كسب العرب من النهب . . . . . فرق عدة من السبى على الأمراء والمماليك " . " ثم عاد العسكر وهو منصور على العرب فدخلوا فى موكب حفل وقدامهم أمراء الكنز و أمراء العكارمة وهم فى الحديد وبقية الاسراء فى حبال " .

العرب بعد ذلك " جمعوا جمعا كبيرا من العربان و أتوا الى أسوان فأتى إليهم الدم الأسود و أتقع معهم فهزموه فى أسوان وجرحوا من كان معه من المماليك ودخلوا الى أسوان ونهبوا كل ما فيها من المواشى وغير ذلك من القماش ثم قتلوا من كان بها من أهلها ثم أحرقوا الدور التى بها أجمعين و أسروا النساء و الأطفال وفعلوا كما فعلت الفرنج بالإسكندرية من فساد " .

أى حكم هذا الذى زاوله المماليك فى ذلك الزمن و أى قدر كتب على المصريين أن يعانوه من الطاعون والفرنج والعرب والأتراك المماليك ..

فى النهاية قويت شوكة السلطان الطفل واستطاع أن يجمع حوله بعض الأتباع ويحارب الأتابكى يلبغا وكان الناس تتوجه الى جزيرة أروى بسبب الفرجة على المقاتلين وما يصير بين الأشرف شعبان و الأتابكى يلبغا وقد صارت العوام يتعصبون للسلطان الأشرف شعبان " انتهت هذه المعركة بهروب يلبغا والقبض عليه " فلما وصلوا به الى رأس الصوه عند الحوض الكبير تقدم إليه شخص من مماليكه فضربه بالسيف فأرمى رأسه عن جثته فأخذها بعض المماليك ووضعها فى مشعل وقد أضرم ناره ونزلوا بها من الصليبة وتوجهوا بها الى داره التى فى الكبش ... فلما طلع النهار أحضروا رأسه بين يدى السلطان . . . . "

هذا الوزير الذى قتل سلطان وخلع آخر ولعب بالثالث " كان شديد البأس صعب الخلق إذا غضب على أحد لا يرضى عليه أبدا وكان عظمى اللسان قليل الكلام بالعربى وكان سفاكا للدماء ولا سيما قتله أستاذه السلطان حسن وما فعله به وكان كثير التشويش على مماليكه ضرب منهم جماعة بالمقارع وقطع أنوف وأذان جماعة كثيرة منهم ولهذا تعصبوا على قتله " .

العوام أيضا " فلما تسمع العامة بذلك يحتاطوا به ويسلبوه من أثوابه ويقتلوه أو يهرب من أيديهم وينجو من القتل فنهب فى هذه الحركة من الدور ما لا يحصى عددها وقتل من الناس جماعة كثيرة فغلقت الأسواق وتعطلت من البيع والشرى واختفت الأتراك فى بيوتها خوفا من الرجم من العوام "
.

سبحـان الله انتفاضــــة حرامــية 768 هـ .

بعد قتل يلبغا أصبح السلطان الطفل هدف للعديد من المماليك كل يحاول السيطرة عليه .. فقامت الفتن والحروب بينهم " ثارت فتنة مهولة بين الأمراء ولبسوا لامه الحرب وطلعوا الى الرملة فنزل إليهم جماعة من المماليك السلطانية .... "

" ثم أن الأمير أسندمر ركب ومن معه من اليلبغاوية وغيرهم ...... "

" فكان عدة من قبض عليهم فى ذلك اليوم نحو خمسة وعشرين أميرا .... "

" ركب للحرب الأمير تغرى يرمش وركب معه جماعة من المماليك و الأجلاب .... "

" ركب المماليك الأجلاب اليلبغاوية ولبسوا لامه الحرب وطلعوا الى الرملة وتوجه منهم طائفة الى بيت الأتابكى أسندمر ... "

" وكان مماليك يلبغا قد جاروا على الناس وصاروا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفون الصبيان المرد من الأسواق و يخطفون القماش والبضائع من الدكاكين ... "

وهكذا استمر الحال حتى حاول الأتابكى أسندمر وبمعاونة مماليك يلبغا أن يزيحوا السلطان عن مكانه وتنصيب أسندمر بدلا منه فتجمعوا لحربه " .

" فلما تحقق السلطان أن هذه الركبه عليه أمر بدق الكوسات بالقلعة ونزل الى الإسطبل السلطانى .... فلم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انكسر الأتابكى أسندمر ومن معه .... "

السلطان فى هذا استعان بمماليكه و لأول مرة بالعاق الذين أبلوا بلاء حسنا فى مقاومة مماليك يلبغا " فلما انكسر الأتابكى أسندمر ومن معه من الأمراء نهبت العامة بيوتهم و إسطبلات المماليك اليلبغاوية ... "

وهكذا اتضح الصراع فالسلطان الطفل سار على نهج جده الناصر محمد وبدأ فى إدارة الحكم طبقا لقوانين ذلك الزمن بخلع طائفة وتثبيت أخرى وسجن مجموعة و الإعفاء عن آخرين والإنعام والعقاب وتعديل مراكز الحكم بين مناصريه وعدم ترك أحدهم فى مكانه لمدة طويلة ورشوة المماليك ونهب التجار الإفرنج بل تشجيع المماليك على القرصنة البحرية حتى سيطر على الحكم حول عام 770 هـ أى بعد خمس سنوات من توليه .

العامل الآخر الذى ظهر هو قوة العامة الذين ثاروا على الولاة الظلمة وطالبو بعزلهم أو قتلهم.

" فتعصب عليه العوام ووقفوا تحت القلعة ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة وصاروا يرجمون الناس فأرسل السلطان إليهم بعض الأمراء وهو يقول " أين قصدكم ؟ " فقالوا له " قل السلطان يسلمنا علاء الدين بن كلبك شاد الديوان " أى أمير القاهرة

" فلما جرى ذلك تعصب العامة على الوالى والحجاب ووقفوا فى الرملة تحت القلعة وصاروا يستغيثون ويضجون بالشكوى من الوالى والحجاب .... "

" فلما كان يوم الأربعاء ثامن عشرينه ركب الوالى وقصد الطلوع الى القلعة فرجمته العامة حتى كاد يهلك فالتجأ منهم بباب السلسلة وظل نهاره كله فيه والعامة وقوف له تحت القلعة الى قريب العصر وصاروا يرجمون كل من يمر بهم من الناس " .

فى النهاية أرسل السلطان عليهم بعض من مماليكه " فرجمتهم العامة رجما متداركا فانكسروا كسرة قبيحة .... "

" ثم ركب الأمير الجاى اليوسفى أمير سلاح وقسم الخطط والحارات على الأمراء و أضاف اليهم جماعة من المماليك السلطانية و أمر بوضع السيف فى الناس قاطبة وجرت بسبب ذلك خطوب شنيعة و أمور وضيعة فقتل فى هذه الحركة من الناس ما لا يحصى عددهم و ذهبت دماؤهم هدرا وسجنوا آخرين منهم فى الحبوس و امتدت أيدى الترك الى العامة حتى أنه كان الجندى يدخل حانوت البياع من المتسببين ويذبحه فى دكانه ويمضى . . . . " .

فلم تقم للعامة قائمة بعد ذلك .

الأمير الجاى اليوسفى هذا زوج أم السلطان " وكان يسكن بالغور فى القلعة ويدخل الأشرفية فى كل يوم اثنين وخميس ويتصرف فى أمور المملكة بما يختار " بعد خمس سنوات من قضاءه على انتفاضة العامة " ماتت خوند بركة أم السلطان زوجته فانحطت منزلته عند السلطان وكان الأتابك الجاى وضع يده على موجود زوجته خوند بركة وشاحح السلطان فى ذلك " . فحارب الأتابك الجاى المماليك السلطانية " بالرملة قتالا شديدا فقتل من الفريقين عدة مماليك كثيرة وجرح منهم جماعة كثيرة ما لا يحصى عددهم " .

" آخر الأمر انهزم الجاى وهرب " عند قبة النصر وضرب خيامه هناك واجتمع عليه عدة من أصحابه من الأمراء والمماليك ..... " بعد مناوشات ومفاوضات ورشوة لجنوده استطاع السلطان أن يحاصره حتى رمى نفسه فى النيل فمات غرقا .

وكما يحدث دائما بعد كل فتنة فان السلطان أنعم على من أنعم واحتاط على أموال من احتاط وسجن من سجن ولكنه أيضا وبناء على نصيحة شيخ الإسلام وقاضى القضاة " رسم بإبطال ضمان المغانى ومكس القراريط و أبطل أيضا ما كان يؤخذ من الدور إذا بيعت فكان على البائع قدر معلوم يؤخذ منه " .

" وكان يتحصل من هاتين الجهتين مال جزيل له صوره فبطل ذلك والحمد لله " .

" وكان قد بطل ذلك فى الزمن القديم و أعاده وزراء السوء لكثرة ما يتحصل منه من المال الجزيل وهو عبارة عن مال كبير مقرر على المغانى من رجال ونساء يردونه فى كل سنة الى الديوان المفرد فكان لا تقدر امرأة من المغانى تضرب بدف فى عرس أو ختان أو نحو ذلك إلا بإطلاق وعلى كل إطلاق فريضة مقرره من مال ترد الى الديوان المفرد وكان على كل مغنية مال مقرر تحمله الى الضامنة وكان فى كل ليلة يدور على بيوت المغانى جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من بات منهن خارج بيتها . . وكان مقررا على النساء البغايات ضرائب مقررة وكان ببلاد الصعيد والوجه البحرى حارات للمغانى والبغايات وكان هناك يظهر التجاهر بالزنا وشرب الخمر ...

وكان الشخص إذا باع ملكا يؤخذ منه لبيت المال عن كل ألف درهم عشرين درهما وكان أحدث ذلك وزراء السوء قرروا ضرائب دخل على العوالم والبغايا كذلك ضرائب 2% رسوم نقل ملكية مما اعتبره ابن اياس مظالم أبطلها شعبان .

مصر فى عهد الأشرف شعبان شهدت موجات متتالية من القحط بسبب انخفاض النيل لعام ونصف بدأ من سنة 775 هـ " فتزايدت الأسعار فى سائر الغلال ... فحصل للناس من ذلك غاية الضرر ومات غالب البهائم من الخيل والبغال والحمير والجمال والأغنام ومات من الأبقار ما لا يحصى عددها من شدة الجوع " عقب ذلك وباء " وكثر موت الفقراء من شدة الجوع فكان يخرج من القاهرة فى كل يوم ستمائة جنازة ... "

قال المقريزى " كنت إذا مررت بالرملة أسمع صوت رجل من الفقراء يصرخ بأعلى صوته : لله لبابه قدر شحمة أذنى أشمها و خذوها .. فلازال على ذلك حتى مات من شدة الجوع " .

الملك الأشرف شعبان لم يستطع وسط كل هذه البلايا أن يحافظ على عرشه لأكثر من أربعة عشر سنة ورغم أنه أحبط مؤامرات عديدة للمماليك إلا أنهم ظفروا به فى النهاية وهو فى طريقه الى الحج عام 778 هـ فقتلوه بوحشية أعف عن سرد تفاصيلها " فمات بعد عذاب أليم " عن عمر لم يبلغ الرابعة والعشرين وكان " بخلاف من تقدمه من بنى قلاوون لين الجانب يحب العدل فى الرعية منقاد الى الشريعة ويحب العلماء ويعظمهم ويوقرهم وكان كثير البر لهم محسنا لأقاربه وساس الناس فى أيامه أحسن سياسة " .

بعد اغتيال السلطان شعبان اختار نائب السلطنة أقتمر الحنبلى ابن السلطان على وولاه السلطنة وكان عمره حينئذ سبع سنين و أشهر ليصبح " الملك الثالث والعشرون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية " تحت اسم الملك المنصور نور الدين على بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون .

الأمير أقتمر التزم بتدبير المملكة كما كان يفعل أيام أبيه المغتال شعبان . ثم بدأ حكمه ـ كما هو متوقع ـ بمعارك ضارية بين المماليك الذين كانوا بصحبة السلطان شعبان بالعقبة والمماليك الذين لم يسافروا " فكان بين الفريقين واقعة عظيمة فانكسر الأمراء الذين حضروا من العقبة " أما المماليك الذين انتصروا " فان اقتمر الحنبلى نائب السلطنة فرق الاقطاعات على الجند ووظائف من قتل من العسكر فى هذه الحركة و أنعم عليهم ببيوتهم وقماشهم وبركهم حتى رسم لهم بتزوج نسائهم وبناتهم " . . . " فاتفق فى هذه الدولة من ارتفاع الأسافل وصارت المماليك الأجلاب فى هذه الأيام يتحكمون فى المملكة بما تهوى نفوسهم ومن يومئذ تغيرت أحوال الديار المصرية " .

المماليك الأجلاب هؤلاء ممن كان بالقاهرة ولم يسافر مع السلطان وهم الذين أثاروا الفتنة فى غيبة السلطان وكان عددهم ثلاثة آلاف لم يكتفوا بما كسبوا وفرضوا على نائب السلطنة أن يمنح كل منهم خمسمائة دينار وإلا اغتالوه فصار يجمع الأموال كما قال المقريزى فى كتاب السلوك من أموال اليتامى " وصودر فيها جماعة من أعيان التجار و أعيان الطواشية وطرح فيها عدة بضائع من أصناف خاصة على التجار و ألزموا بثمنها وقاست الناس بسبب ذلك أهوالا شديدة و أمورا شنيعة " حتى اكتمل لديه " ألف ألف وخمسمائة دينار " أى مليون ونصف مليون دينار دفعها لهم حتى يسكتهم بل وصل به الحال أن وزع عليهم " جوارى الملك الأشرف شعبان ففرقهم على الأمراء وهم مستولدات الأشرف شعبان " .

المصريون الذين ابتلاهم الله بهؤلاء الهمج تفشت فيهم الأمراض " وتزايد أمر الوباء ومات جماعة كثيرة من الناس بالطاعون .... "

والمماليك ظلوا يحيكون لبعضهم المؤامرات ويقتلون أقرب أقربائهم يسكرون ويهتكون الأعراض ويسرقون أموال اليتامى والفقراء حتى أن والى القاهرة " رسم بأن يوسط ثلاثة مماليك وسمرهم وطيف بهم فى القاهرة و نودى عليهم : هذا جزى من يكثر فضوله ويتكلم فيما لا يعنيه " .

استقر الأمر فى النهاية فى يد الأتابكى أينبك البدرى " وصار يتصرف فى أمور المملكة بما يختار " حتى أنه حاول خلع السلطان المنصور ليسلطن الأمير أحمد بن يلبغا العمرى .... أمراء الشام أطلقوا سراح من كان فى سجن الكرك والتف عليهم جماعة من الأمراء وجماعة من عربان جبل نابلس والتركمان وقالوا " نحن لا نرضى بتحكم اينبك البدرى فينا " وتحركوا فى اتجاه مصر .. " فلما تسامعت المماليك السلطانية بذلك صاروا يخرجون إليهم طائفة بعد طائفة فلما بلغ الأمير اينبك ذلك رسم للأمير خليل بن عرام بأن يخرج ويقف على رأس الرمل بطريق الشام ليرد من يتسحب من المماليك إلى الشام " .

السلطان والأتابكى اينبك خرجوا لملاقاة هؤلاء الأمراء ووصلوا حتى بلبيس ثم عاد السلطان ونائبه ثانيا خوفا من المماليك السلطانية الذين معهم أن " يكبسوا عليهم ويقتلوهم فلما تحقق الأمر ذلك هربوا تحت الليل ورجعوا القاهرة فطلعا القلعة بعد العشاء وكثر القيل والقال بين الناس وكان رأس هذه الحركة برقوق العثمانى " .

برقوق العثمانى ظهر اسمه لأول مرة عندما أنعم عليه السلطان يأمره طبلخاناه " وكان من غير جنس الأتراك وكان جركسيا وكانت الجراكسة يومئذ لا قدر لهم فى تلك الأيام فعجب الناس من أمر برقوق الذى كان جنديا من مماليك يلبغا العمرى فصار فى يوم واحد أمير طبلخاناه و استمر سعده عمالا من بعد ذلك حتى رقى لما هو أكبر من ذلك " .

وهكذا " وثب العسكر قاطبة على الأتابكى اينبك فلما تحقق ذلك نزل من القلعة والسلطان صحبته فأجلسه فى المقعد المطل على الرملة .... " وبدأت المعركة بين الفريقين " فكانت وقعة مهولة فانكسر من كان من عصبة اينبك " فهرب اينبك الى الكيمان التى بمصر عتيقة ثم قبض عليه و أرسل الى السجن بثغر الإسكندرية .. هل انتهت الحرب .. لا استمرت بين الفصائل المختلفة من المماليك كانت الغلبة فيها دائما للفرق التى بها برقوق العثمانى " ومن الغريب أن برقوق كان جنديا من مماليك يلبغا العمرى فصار أمير طبلخاناه فى يوم واحد ثم بقى مقدم ألف ثم بقى أمير آخور كبير كل ذلك فى مدة شهرين " حتى أنه اقتسم الحكم مع " بركه " فى أمور السلطنة .

برقوق بعد ذلك قام بمكائد عديدة انتهت بمعركة بين مماليك الأتابكى طشتمر (وزير الداخلية) ومماليك الأمير بركة والأمير برقوق انتصر فيها الأخير . " واستقر به أتابك العساكر بمصر فكان بين جنديته وأتابكيته نحو ستة أشهر ". " واستمر برقوق ساكنا باب السلسلة وصار يطلع إلى قاعة الأشرفية التى بالقلعة وصار هو والأمير بركة الجوبانى إليهما ترجع أمور الدولة من ولاية وعزل وصار الأمير برقوق وبركة يأخذون البراطيل والرشوة على ولاية الوظائف التى تسعى فيها الأنذال والأرزال من أوباش الناس الذين غير أهل لها فمن يومئذ تلاشى الأموال من الديار المصرية حتى قيل " برقوق وبركة ضربا على الدنيا شبكة " .

لم يكتف برقوق بهذا بل بدأ خطة طويلة الأمد للقضاء على المماليك الأتراك " قبض فى ذلك اليوم على جماعة من مماليك السيفية نحو ثمانمائة مملوك من مماليك الجاى وغيره من الأمراء ... فقيدهم وأرسلهم إلى السجن بثغر الإسكندرية ... ووسطوا منهم جماعة بعد ما سمروهم وطافوا بهم فى القاهرة على جمال وغرقوا جماعة وسجنوا منهم جماعة ... وهذه الحركة أول فتك الأتابكى برقوق بالمماليك الأتراك و إظهار دولة الجراكسة " .

ثم بدأ يسجن الأمراء واحدا بعد آخر بعد خداعهم بحيل مختلفة .

" فخرج الأتابكى برقوق من بيت الأمير أيتمش على حمية وطلع إلى الرملة فتحارب مع الأمير أينال اليوسفى فكان بين الفريقين وقعة مهولة ولم يسمع بمثلها فيما تقدم من الوقعات وقتل فيها جماعة كثيرة من المماليك السلطانية " .

وفيها " انتصر برقوق على أينال غاية النصر " فقبض عليه و أرسله لسجن الإسكندرية .

المقريزى أورد فى السلوك " ثم أن الأتابكى برقوق أخرج عدة أوقاف وجعلها اقطاعات وفرقها على المماليك ولم يلتفت إلى كلام القضاة ولا إلى قول شيخ الإسلام وهذا كان أول مساوئ برقوق و أفعاله الشنيعة بالديار المصرية وصار ظلمه يتزايد فيما بعد ...... "

أما الأمير بركة الجوبانى فقد " حصل له من العوام حنق زائد فرسم لمماليكه أن يلبسوا السلاح و أن يضعوا السيف فى العوام ويقتلوا كل من يلوح لهم منهم فاضطربت أحوال القاهرة فى ذلك اليوم إلى الغاية و أغلقوا السوقة حوانيتهم وصار والى القاهرة يقبض على الزعر والعبيد فازداد خوف العامة من ذلك واختفوا فى البيوت وكادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم ".

الأمير بركة " رسم بقتل الكلاب وكانت قد كثرت فى الشوارع والأزقة فقرر الأمير بركة على كل أمير بالقاهرة عددا من الكلاب وألزم أهل الضواحى بمثل ذلك وألزم أرباب الحوانيت بأن يحضر كل صاحب حانوت كلبا فجمعوا منهم نحو ثلاثين ألف كلب فقتل منهم جانبا ونفى منهم جانبا إلى بر الجيزة .... ".

الأمير بركة " أمر أن يضع على أفواه القناطر سلاسل من حديد حتى لا تدخل المراكب إلى الخلجان ولا إلى بركة الراطلى فركبوا على فم قنطرة الخور سلسلة وعلى فم قنطرة موردة الجبس سلسلة فشق ذلك على الناس جدا ومنعت المراكب من الدخول .... "

كذلك " أمر بكبس بيوت اليهود والنصارى بسبب إراقة الخمور فأراق من الخمور نحو خمسة عشر ألف جرة "

فى ذلك الزمن اعتقد الناس أن حائطا فى بيت ابن العفيش يتكلم فكانوا يقولون " يا سلام سلم الحائط يتكلم " ..... " وادعى آخر النبوة وزعم أن حروف القرآن تنطق له و أن الوحى يأتيه على لسان جبريل تارة وعلى لسان ميكائيل تارة " .

كما أن السلطان " رسم بضرب أعناق جماعة من بنى النصارى ما بين رجال ونساء وسبب ذلك أنهم أسلموا ثم ارتدوا إلى دين النصرانية ... فضربوا تحت شباك المدرسة الصالحية ".

" قبض على امرأة ظهر عليها بأنها قد تزوجت برجلين فى وقت واحد فشهرت على جمل وطيف بها فى القاهرة على رأسها طرطور أحمر " .

" وكان الأمير بركة والأمير برقوق متحابين أعظم من الأخوة الأشقاء فدخل بينهما التحاسد وطمع كل منهما بتدبير الملك على انفراده " حتى دبر برقوق مكيدة لبركة فجعل " العامة ينهبوا بيت الأمير بركة كل ما فيه من قماش و أثاث حتى أخذوا الرخام من الحيطان و أخذوا الأبواب ".

" وكان بين عسكر برقوق وعسكر بركة وقعة مهولة عند قبة النصر وقتل فيها من الفريقين جماعة كثيرة من مماليك وغلمان ومتفرجين ".

ثم أنه نادى للعامة بأن " من قبض على مملوك من مماليك بركة فله لبسه وفرسه ولنا روحه".

فى النهاية قبض أمراء برقوق على الأمير بركة ثم سجن بالإسكندرية وخلى الجو لبرقوق .

الأتابكى برقوق قضى بعد ذلك على عدد لا حصر له من الأمراء " وقبض على مماليك بركة و أصحابه و ألزامه وحاشيته فانقرضت دولة الأتراك بأسرها "

" وقد صار غالب الأمراء جراكسة من أتباع الأتابكى برقوق فانتشت أظهار دولة الجراكسة "

هذه الفوضى الناتجة عن صراع المماليك أدت إلى أن " طائفة من العربان نحو خمسة آلاف إنسان هجموا على دمنهور وكان كبيرهم يقال له بدر بن سلام ففتك فتكا ذريعا فى دمنهور ونهب أسواقها و أخرب بيوتها وقتل جماعة من أهلها " . فعين الأتابكى برقوق تجريده عظيمة تخرج إلى العربان .... التجريده أنشأت معسكرا قرب الجبل حاول العربان مهاجمته ليلا ولكن أحدهم خان و أبلغ الأتراك فأخلوا المعسكر ليلا وكمنوا للمهاجمين " هجم العربان على خيام المعسكر فلم يجدوا أحد فاشتغلوا بالنهب فردت عليهم الأتراك من الأكمنة و أحاطوا بهم فلم ينج من العربان إلا من طال عمره "

العرب لم ييأسوا فهم بعد ذلك " تحالفوا على العصيان وخرجوا عن الطاعة ونهبوا المغل من البلاد " " نائب الإسكندرية جمع من العربان الطائعة وتوجه إلى البحيرة واتقع مع العربان فكسرهم وشتت شملهم فهربوا من وجهه إلى برقة " . برقوق هاجم العربان أينما وجدوا فقطع رؤوس البعض وسبى النساء والأطفال حتى كمنوا .

أما السلطان المنصور على فقد توفى عام 783 هـ بالطاعون على فراشه " وكان عمره اثنتى عشرة سنة وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس سنوات وثلاثة أشهر وعشرين يوما وليس له من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط " .

بعد وفاة السلطان لم يجسر الأتابكى برقوق أن يتسلطن بعده فأخرج من الحريم سيدى أمير حاج فسلطنه عوضا عن أخيه وكان له من العمر يومئذ إحدى عشر سنة ليصبح آخر سلاطين دولة المماليك الأتراك ويمهد الطريق لدولة جديدة يحكمها المماليك الجراكسة .

الملك الصالح زين الدين أبو الجود أمير حاج حاجى ابن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون كان السلطان الرابع والعشرون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية .

الأتابكى برقوق عن طريق العنف والقسوة سيطر على الحكم فى البلاد حتى أنه كان يمكن أن يأمر " بتغريق وزير .... فتوجهوا به إلى الجزيرة الوسطى ووضعوه فى البحر وهو مكتف من يديه ورجليه بحبل فأقام فى الماء نهارا كاملا حتى شفع فيه بعض الأمراء من التغريق ... " أو " يقع فى

حق القضاة والفقهاء بما لا يليق بعد ما كانت القضاة والفقهاء عند الأمراء والأكابر يبجلونهم ويعظمونهم إلى الغاية وقد انحط قدر القضاة والعلماء ... حتى صار أقل الناس من الأرزال يخاطبونهم بكل قبح وقد ذلوا أنفسهم فى طلب الدنيا وحب المناصب ...." أو " بالقبض على كاشف الوجه البحرى وضرب ضربا مبرحا بين يدى الأتابكى برقوق وسلمه إلى حاجب الحجاب .... "

ولقد حاول بعض المماليك قتله فنبهه أحدهم " وإذا بأيتمش الخاصكى قد دخل عليه فلما رآه برقوق قام إليه وضربه بقوس كباد كان بجانبه فأرماه إلى الأرض وداس عليه برجله وقال له (يامرا) (يا علق) الذى يريد قتل الملوك يقع على الأرض من ضربة واحدة " .

عندما " قوى حلف الأتابكى برقوق وصار له عدة مماليك من الجراكسة جلبوا له من بلاد جركس ... " " وصار ما على يده يد ... " " وكان قد ضعف أمر دولة قلاوون وصار غالب العسكر مماليك جراكسة وانحط قدر الترك " .

فان برقوق " أخذ فى أسباب إظهار سلطنته وقد لاح له لوائح النصر " .

فجمع الخليفة والقضاة وقال لهم " يا مولانا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وتزايد فساد العربان فى البلاد من الشرقية والغربية والصعيد وقد خامرت النواب وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير صالحة وان الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير من الأتراك تجتمع فيه الكلمة ويردع العربان ويمهد البلاد ويسكن الاضطراب ويقمع أهل الفساد فان السلطان الملك الصالح صغير السن " فالتفتت القضاة إلى أمير المؤمنين وقالوا له " إن من الرأى أن يتسلطن الأتابكى برقوق " . فخلع السلطان الصالح أمير حاج من السلطنة ودخل إلى دور الحرم عند إخوته فكانت مدة سلطنته سنة وسبع أشهر و أيام و به زال الملك عن بنى قلاوون وقد أقامت المملكة فى قلاوون وأولاده مائة سنة وثلاث سنين .

حــــكم العبــيد الجــراكسة

" كان أصل الظاهر برقوق جركسى الجنس ولد بضيعة يقال لها .. كسا فلما كبر و صار صبيا سرق من بلاده و أبيع ببلاد القرم فاشتراه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر وجلبه إلى مصر فاشتراه منه الأتابكى يلبغا العمرى وكان اسمه " الطنبغا " فسماه يلبغا " برقوق " لفتور كان بعينه ثم أن يلبغا أعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب فلما قتل يلبغا وقبض على مماليكه سجن برقوق بسجن الكرك فأقام به مدة ثم أفرج عنه فتوجه إلى دمشق وخدم عند الأمير منجك نائب الشام فلما طلب الأشرف شعبان مماليك يلبغا وقربهم حضر برقوق معهم إلى مصر وصار فى خدمة الأسياد أولاد الأشرف شعبان حتى قتل " .

فى نهاية حكم أسرة قلاوون تابعنا صعود برقوق أثناء حكم السلطانين على و أمير حاج حاجى وانتقاله فى مناصب الدولة رغم أنه لم يكن تركيا حتى أصبح المتحكم فى الدولة ولم يجد الخليفة والقضاة بديلا عنه لتولى السلطنة باسم " الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق ابن آنص العثمانى " .. سنة 784 هـ .

أبو برقوق آنص العثمانى هذا كان أيضا عبدا جركسيا أحضره الخواجا عثمان لمصر مع ارتقاء ابنه فى سلم السلطة فاستقبله العلماء والأمراء و أكابر البلد استقبالا شعبيا " ثم أخلع برقوق على الخواجا عثمان الذى اشترى والده وجلبه من بلاد جركس ثم بذل للخواجا عثمان مالا جزيلا ... وكان آنص جركسيا مغلق اللسان لا يعرف كلمة بالعربى .. "

وهكذا حكم مصر عبد ابن عبد مجلوب لا يعرف لغة البلاد ليبدأ دولة المماليك الجراكسة " بالقوة فانه كان من غير بيت المملكة ولم يكن يستحق لذلك لكن ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار فقويت شوكته واستضعف أمر بنى قلاوون ونزع أيديهم من الملك واستقل به ... "

" فلما تم أمره فى السلطنة وثبتت قواعد دولته أخذ فى أسباب أمر النفقة على العسكر قاطبة فأعطى لكل مملوك مائة دينار ذهب ... ثم أخذ فى أسباب القبض على جماعة من الأمراء فقبض عليهم و أرسلهم إلى السجن بثغر الإسكندرية ثم أنه رسم بالإفراج عن جماعة من الأمراء فعند ذلك استقام أمره فى السلطنة وخضعت له الرقاب "

السلطان برقوق بعد توليه الحكم وجد نفسه منغمسا فى شتى أنواع المؤامرات والدسائس ومحاولات الطموحين للسلطة والمال سواء فى ذلك من جاءوا من الخارج كالفرنجة الذين هجموا فى فترات متتالية على ثغور مصر الإسكندرية ودمياط ورشيد أو التركمان الذين أقلقوا نواب الشام .. أو من الداخل كالعربان الذين هاجموا قوافل الحجاج وكون أحدهم " جماعة من العربان لا يحصى عددهم ونهب نواحى الفيوم .... " أو عصابات اللصوص " فقد أشيع أن دخل القاهرة منسر نحو ستين رجلا ... فنهبوا سوق الجملون العتيق ..."

أو المماليك الذين حاولوا اغتياله لأكثر من مرة .

لذلك أحاط السلطان برقوق نفسه بالجواسيس وشجع الوشاة والدساسين لينقلوا له الأخبار وكان بالغ القسوة على من يسوقه حظه العاثر ليصبح عرضة لوشاية بحيث لم ينجو من قسوته هذه أحد حتى أمير المؤمنين الخليفة المتوكل الذى تسببت دسيسة فى عزله وسجنه وقيده بالأغلال .

وهكذا أصاب السلطان برقوق ما يصيب الطغاة من أمراض البغى فكان يحلو له استعراض قوته وتجربة نفوذه حتى أنه كان يأمر نصرانيا " بأن يسلم غصبا .. فلما أسلم خلع عليه " أو يوافق على فك قيود الخليفة بعد أن " باس رجل السلطان على اللحم " نائب السلطة سودون تشفعا لأمير المؤمنين المغلول .. أو يأمر بسجن أمير عندما يعلم " أنه قد اجتمع نساؤه فى داره لفرح عندهم وعليهم اللؤلؤ والجواهر والذهب والثياب الحريرية ما يجل قيمته " أو يقبض على سبعة من مماليكه " المماليك السلطانية وسبب ذلك أن بلغ السلطان أن هؤلاء يقصدون الفتك به فبادر إليهم وقبض عليهم وضربهم بالمقارع ثم رسم نفيهم ".

أما مماليك الأشرفية فعندما بلغه أنهم سيهجمون عليه وهو بالميدان " قبض عليهم وضربهم وقبض على أميرهم ورسم بتسميره بالمسامير الحديد هو ومن قبض عليهم وأركبوهم على جمال و أشهروهم فى القاهرة ثم وسطوهم فى بركة الكلاب ... ثم بعد ذلك بأيام قبض على ستة عشر مملوكا .. ورسم بنفيهم هم ومن بقى من المماليك الأشرفية " .

فإذا ما تغير خاطر السلطان على شخص ما فالويل له سيضربه بالمقارع مهما كان مقامه وسيصادر أمواله وينفيه وقد يسجنه أو يسمره بالمسامير .

" غضب السلطان على القاضى تقى الدين ناظر الجيش (وزير الحربية) فأمر بضربه بين يديه فضرب نحو ثلاثمائة ضربة بالعصى وكان ترفا رقيق الجلد ... فلزم فراشه حتى توفى".

تغير خاطر السلطان على أحد الأمراء " فضربه بالمقارع و أخذ منه ما يقارب الثلاثمائة ألف دينار " .

" تغير خاطر السلطان على قضاة حلب فعزل الأربعة فى يوم واحد ... "

" تغير خاطر السلطان على سعد الدين بن البقرى فاحتاط على موجوده وقبض على نسائه وغلمانه وحاشيته وقرر عليهم الأموال الجزيلة .... واستمروا فى الترسيم حتى جلبوها " .

أما العامة " فان السلطان رسم بإبطال ما كان يعمل فى يوم النيروز ـ وهو أول أيام السنة القبطية ـ من قديم الزمان فى أيام القبط .... فلما كانت دولة الجراكسة وتسلطن الملك الظاهر برقوق أمر بإبطال ما كان يعمل فى هذا اليوم ورسم للحجاب ووالى القاهرة بأن يتوجهوا إلى أماكن المفترجات ويقبضوا على من وجدوه من العوام .. فقبضوا على جماعة كثيرة منهم وضربوهم بالمقارع وربما قطعوا أيدى جماعة منهم " .

والفرنج " أرسل الأمير الطنبغا عشرين مركبا شوانى إلى دمياط وقد شحنها بالعدد والسلاح والمقاتلين لتغزو الفرنج ... وقد أسروا خمسة وثلاثين رجلا وقتلوا منهم جماعة كثيرة وغنموا منهم غنائم عظيمة ... فلما حضروا إلى بولاق توجهت الناس إلى الفرجة عليهم وخرجوا أفواجا أفواجا .. ثم فى الغد عرضت الأسرى على السلطان فى الميدان فقطع رقاب جماعة منهم و أبقى منهم جماعة " .

والسفراء " فلما قرئ كتابهم ظهر أنهم رسل متملك بلاد القرم فانحط قدرهم عند السلطان وقطع راتبهم ثم أخرجوا من الميدان إلى مكان بالقلعة فأقاموا به أيام " .

أما المهندسون " اقترح على المهندسين أن يصنعوا له القبة بالحجر النحت فصنعوا له ذلك وكانت القبب القديمة كلها خشب ويجعلون فوقها رصاص " .

التركمان أيضا " قدم البريد من حلب برأس الأمير خليل بن قراجا بن دلفادر أمير التركمان وقد قبض ـ أيضا ـ على أخيه عثمان بن قراجا وعلى ابن أخيه إبراهيم وحز رأسه أيضا وقد أخذوا غدرا " .

هذا هو السلطان برقوق لم يحركه الا " خبر من ماردين باستيلاء تيمور لنك على مدينة تبريز وقتل أهلها وخرب بيوتها وقد استولى على عدة بلاد من بلاد الشرق فلما تحقق السلطان ذلك تنكد لهذا الخبر " .

فى القاهرة " كملت عمارة مدرسة السلطان التى أنشأها بين القصرين فكان خان الزكاة فجاءت ليس لها نظير فى الحسن ولا بنى فى القاهرة لها مثال من الحسن والزخرفة فنزل السلطان من القلعة ومد هناك سماط عظيم أوله عند المحراب و آخره عند فسقية المدرسة حفل بأنواع الأطعمة الفاخرة من الإوز والدجاج والخراف الرمسان حتى لحوم الخيل والغزلان والنعام والأسماك ... ثم بعده سماط ثانيا به مجامع الحلوى ومشنات فاكهة و ملأ فى ذلك اليوم الفسقية التى فى صحن المدرسة سكرا وماء ليمون وصارت الناس تملأ منه بالكاسات فلا يمنعهم أحد " .. بعد ذلك " نقلت رمة الأمير آنص العثمانى والد السلطان ونقل رمم أولاد السلطان أيضا وهم خمسة أولاد فدفنوا فى القبة التى عمرت بالمدرسة .... "

فى دمشق " أحضر أربعة فقهاء وهم فى الحديد وقد بلغ السلطان عنهم أنهم قالوا : ولاية السلطان لا تصح لأنه أفشى الظلم فى أيامه وحصل منه للرعية غاية الضرر و أنه لا يقوم بأمور المسلمين كالملوك العادلة "

فى مكة " وثب عليه فداويان فضربه أحدهما بخنجر فى جنبه وضربه الآخر بخنجر فى عنقه فخر الشريف محمد ميتا فترك نهاره ملقى على الأرض وكان الشريف كبيش واقفا عن بعد فلما قتل الشريف محمد أمير مكة فر كبيش فلما جرى ذلك اضطربت الأحوال فى مكة وكادت العربان أن تنهب أسواقها ورجالها فلبس أمير الحاج آلة السلاح و ألبس من كان معه من المماليك السلطانية فأقاموا على ذلك سبعة أيام و أحوال مكة فى اضطراب " .

أما فى الشام فقد " أظهر العصيان " الأمير يلبغا الناصرى فالتف حوله العديد من الأمراء والمماليك المناهضين للسلطان فأرسل لهم تجريده تأديب انكسرت أمامهم وزحف على أثرها يلبغا ومنطاش فى اتجاه مصر وكان كلاهما يكره برقوق الذى كان قد " قبض على يلبغا وقيده و أرسله إلى السجن بثغر الإسكندرية ثم أفرج عنه وقبض عليه مرة أخرى واستقر به نائب حلب " أما منطاش فقد كان عبدا اشتراه برقوق صغيرا ورباه ثم أعتقه و أكرمه ولكن عندما " ظهر منه الفساد فى الديار المصرية قبض عليه وضربه علقة قوية ونفاه إلى البلاد الشامية " .

وكان الجمع كلما تقدم فى طريقه إلى مصر انحاز إليه المزيد من المؤيدين رغم محاولات برقوق لاسترضائهم " بكل ما يمكن حتى يستمسك قلوبهم ويكونوا معه قاطبة " .. فى مصر اقتتل عسكر يلبغا وعسكر برقوق " فبانت الكسرة على برقوق وصارت المماليك تتسحب من عنده وتتوجه إلى يلبغا " .. مما جعل برقوق يهرب ليلا ويختفى عند واحد من تلاميذه فيحتل يلبغا القلعة ويحضر الخليفة والقضاة الأربعة فيخلعون برقوق ويبايعون " أمير حاج بن الملك الأشرف " الذى كان برقوق قد خلعه وحل محله منذ ست سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوما بعد أن " حكم الديار المصرية أتابكا وسلطانا إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوما " .

المماليك بمجرد إزاحة برقوق " دخلوا إلى القاهرة ونهبوا عدة دكاكين واستمر النهب عمال من باب النصر إلى الركن المخلق واستدرجوا إلى نهب البيوت فكادت القاهرة أن تخرب عن آخرها" .

ثم أن يلبغا نفى " مماليك الظاهر برقوق لا يقيم منهم أحد فى القاهرة و أن يتوجهوا إلى البلاد الشامية ويخدموا عند النواب "

وقبض على برقوق فسجنه فى قاعة النحاس بالقلعة ثم نقله بعد ذلك إلى الكرك حيث " سجن فى القلعة وهو مقيد " كما فعل بيلبغا من قبل .

ثم " أمر الأتابكى يلبغا الناصرى بإراقة الخمور فكسر منها خمسة آلاف جرة تحت القلعة فى الرملة وكبس الحارات التى يباع فيها الخمر وقام فى ذلك قياما عظيما "

ثم وكعادة المماليك استدار الحليف ضد حليفه " فحصل بين يلبغا ومنطاش وقعة لم يسمع بمثلها و آخر الأمر انتصر منطاش وقتل فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين فلما رأى من كان مع يلبغا الناصرى أن منطاش قد راج أمره تسحب من كان عند يلبغا من الأمراء والعسكر و أتى عند منطاش " .

يلبغا هرب تحت ستار الليل " فطلع منطاش إلى القلعة وبلغ باب السلسلة واستولى على حواصل يلبغا الناصرى ... " بعد ذلك قبضوا على يلبغا وبعض رجاله فحبسه منطاش فى قاعة النحاس التى حبس فيها يلبغا من قبل أستاذه برقوق ..

برقوق بعد نفيه إلى الكرك احتال على نائب الكرك واستولى على القلعة بالخديعة فالتف حوله مماليكه المنفيين فى الشام وسعى إليه مماليك آخرين كانوا قد نفوا فى قوص " فقويت شوكته".

وقامت ما يشبه الحرب الأهلية بين المماليك فنائب حلب أيد برقوق والتف عليه أما نائب غزة فقد جمع عربان نابلس ولاقى برقوق و أمرائه الذين كانوا فى طريقهم إلى الشام فانكسر برقوق .

أما صفد فقد استولى على قلعتها المؤيدون لبرقوق فهرب نائب صفد ونائب حماه خوفا من برقوق ثم أن برقوق استولى على دمشق ثم ثار عليه أهل دمشق وطردوه .. " ورجموا أهل دمشق الظاهر برقوق وأخرجوه من دمشق " .

منطاش عندما وصلته الأخبار جهز جيش للخروج إلى الشام " ولكن حصل من منطاش لما تحرك للسفر غاية الضرر حتى تمنى كل أحد من الناس عود الملك الظاهر برقوق مما جرى عليهم من منطاش ... منها أخذ خيول الطواحين جميعا وعطل الناس عن الدقيق ... ومنها أنه نادى فى القاهرة أن متعمما لا يركب فرسا مطلقا .. ومنها أنه قبض على جماعة من مماليك برقوق وحبسهم ... " " وصادر جماعة من المباشرين .. و أخذ مالا مودعا للأيتام على وجه القرض وراح عليهم " وجعل إتاوات على أهل القاهرة " و أظهر أشياء كثيرة من أنواع المظالم لم يسمع بمثلها "

وهكذا كان الحال فى القاهرة ودمشق من أفعال المماليك الذين مع برقوق أو الذين ضده مع منطاش .

منطاش أخذ معه الملك المنصور أمير حاج والخليفة والقضاء وخرج فى حملة للقضاء على برقوق " صحبته سائر الأمراء المقدمين وغيرهم وسائر العسكر من كبير وصغير " وترك نائبا الأمير صراى تمر " نائب الغيبة "فقامت " فتنة عظيمة بين العربان بالصعيد حتى كاد الصعيد أن يخرب

عن آخره " ... وكبس حسن بن الكورانى والى القاهرة المدرسة البرقوقية وصار يتطلب المماليك الظاهرية أشد الطلب ويكبس عليهم البيوت والحارات و ان ظفر بأحد منهم غرقه فى البحر " .

" جماعة من المماليك الأمراء تحرشوا مع مماليك الأمير صراى تمر نائب الغيبة فأرسل عليهم والى القاهرة والحاجب فكبسوا على من كان سببا لهذه الفتنة فحصلوا منهم جماعة وهم لابسون آلة الحرب " فعاقبهم نائب الغيبة بالسجن .

الأمير صراى هذا " قبض على سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر وسجنه بالقلعة " ثم " نادى فى القاهرة أن كل من قبض على مملوك من مماليك الظاهر برقوق يأخذ له عشرين دينارا " فاضطربت القاهرة .

وسادت الفوضى وحربا بين المماليك انتهت بأن انكسر نائب الغيبة صراى تمر وهرب فنهبت العامة بيوت المماليك " ومن لطيف صنع الله تعالى أن وقع بالقاهرة هذه الحركة العظيمة ولم يكن بها سلطان ولا أمير ولا حاكم ولا قاض ومع ذلك لم يفقد لأحد من الناس ما قيمته الدرهم الفرد (وكانت الزعر هايجة فى المدينة فلم يتعرضوا لأحد من الناس بسوء ولا نهب لأخذ شيء من دكان ولا بيت) ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم من غير مانع " .

تجريده السلطان ومنطاش عندما وصلت إلى غزة " صار جماعة من العسكر يتسحبون من عند الملك المنصور ويتوجهون إلى عند الملك الظاهر برقوق بدمشق " .

ثم أن رجال برقوق المنتصرون فى القاهرة " نادى للناس بالأمان والاطمئنان والبيع والشرى وحفظ الرعية وقلة الأذية والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر فضج له الناس بالدعاء بالنصر من الخاص والعام " .

" ثم أن الأمير سودون نائب السلطنة نزل من القلعة إلى باب السلسلة هو والأمير صراى تمر نائب الغيبة والأمير قطلوبنا الحاجب الثانى ووضعوا فى أرقابهم المناديل فلما قابلوا الأمير بطا قيدهم وسجنهم بالقلعة " .

الظاهر برقوق انتصر فى النهاية على منطاش بعد أن أنهزم فى البداية عندما " وقع بينهما وقعة عظيمة حتى ضرب بها المثل وقتل فيها من العسكريين ما لا يحصى فانكسر الظاهر برقوق كسرة قوية وولى هاربا فدخل الأتابكى منطاش إلى دمشق " .... الظاهر برقوق الهارب صادفه الملك منصور وقد عسكر تحت جبل قرب دمشق ومعه الخليفة والقضاة الأربعة وخزائن المال وبعض عسكر ويعانى من ريح عاصف ومطر غزير فرق جنوده وجعلهم يهربون فانقض عليهم الظاهر برقوق " واستولى على خزائن المال وجلس على مرتبة الملك المنصور فتسامعت به العساكر وجاءوا إليه أفواجا فقويت شوكته " .

لما " طلعت الشمس ثار الحرب بين برقوق ومنطاش واستمر الحرب ثائرا بينهما حتى غروب الشمس فانكسر منطاش كسرة قوية وهرب ... وقتل فى هذه الوقعة من الفريقين ما لا يحصى حتى صاروا على الأرض مثل الحصى " .

الملك المنصور خلع نفسه " وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة و أشهد على نفسه بالخلع " " قام وباس الأرض إلى برقوق " فقال له الملك الظاهر برقوق " اطلع سلم على أمـك " " فلما

طلع دخل إلى دور الحريم وهو فى غاية التعظيم فأقام محتفظا به " فكانت مدة سلطنته الثانية ثمانية أشهر وستة عشر يوما ومات بعد ذلك فى فراشه عن سبع و أربعين سنة .

أما الظاهر برقوق فلقد رجع إلى السلطنة " ولم يجلس أحد على مرتبته إلى أن عاد إليها "

يوم " الأربعاء رابع عشر ربيع الأول سنة اثنين وتسعين وسبعمائة " فأفرج عن يلبغا الناصرى الذى سجنه منطاش وقام بحركة تنقلات واسعة حتى يضمن ولاء كل من أصبح فى السلطة له. " ثم أن الظاهر برقوق عزل من عزل وولى من ولى واستقامت أموره فى هذه السلطنة الثانية ونال قصده ممن كان يعارضه و أطاعه العسكر قاطبة وقرب جماعة من حاشيته " .

ثم " نزل السلطان إلى الميدان الذى تحت القلعة وجلس للحكم بين الناس على العادة " .

" منطاش أظهر العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من عسكر الشام ومن عسكر طرابلس وصفد واجتمع عنده من العشير والعربان ما لا يحصى عددهم وقد ملك مدينة بعلبك ونهب عدة ضياع من ضياع دمشق " .... " فعين له السلطان تجريده هرب منهم منطاش " .

ليستمر فى عصيانه حتى أعى برقوق ... فهو قد أرسل من يحاصر حلب لثلاثة أشهر حتى استطاع نائبها أن ينتصر عليه ... ثم أنه " توجه إلى طرابلس وحاصر من بها فملكه بالسيف وهرب نائبها " .... ثم " توجه إلى دمشق وحاصرها فأعانوه على ذلك العوام وكانوا يكرهون الظاهر برقوق فأشرف منطاش على أخذ المدينة " ... بعد ذلك تجمع حوله العديد من المماليك فاستطاع أن يملك عنيتاب ثم استردها منهم نائبها ثم " ملك حماه وحمص وبعلبك ولم يشوش على أحد من أهلها فمالوا إليه الرعية وسلموه المدن من غير قتال ". شجعته انتصاراته هذه على " التوجه إلى دمشق وحاصر المدينة وكان نائب الشام غائبا ففتحت له العوام باب كيسان الصغير فدخل منه إلى المدينة وملكها ونهب أسواقها وأخذ أموال التجار وكبس الإسطبلات السلطانية و أخذ منها الخيول وكانوا نحوا من ثمانمائة فرس فقوى بهم عسكره وقويت شوكته والتف حوله العربان والعشيرة والتركمان نحو ثلاثين ألفا " .

وهكذا أصبح منطاش خطرا على السلطان فجهز لمواجهته جيشا توجه به إلى دمشق فدخلها دون قتال و " نادى لهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء و أن الماضى ما يعاد ونحن أولاد اليوم وقد عفونا عنكم فضج الناس بالدعاء وسكن الاضطراب الذى عند أهل دمشق ".

يلبغا الناصرى المصاحب للسلطان فى تجريدته تآمر عليه بأن طلب من أمير التركمان " خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فمادام منطاش موجودا فنحن موجودين " .

أمير التركمان أعاد الرسالة للسلطان فسجن يلبغا وبعض الأمراء بقلعة حلب ثم أمر ـ كعادته ـ بقتلهم بعد فترة .

برقوق لم يظفر بمنطاش فعاد للقاهرة ومعه عروسه الجديدة ابنة نائب الشام ويتزوج بأخرى ابنة الشهابى أحمد معلم المسلمين ويرجع إلى سابق عهده فى ضرب وتسمير ونفى وقتل المماليك فهو " قبض على جماعة من الأمراء وسمرهم وأشهرهم فى القاهرة وقد بلغه عنهم أنهم أرادوا قتله "

" فلما حضر بين يدى السلطان عراه وضربه بالمقارع ثمانين شيبا " ... " فقبض على جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية فوسط منهم جماعة ببركة الكلاب فعز ذلك على بقية المماليك" " تغير

خاطر السلطان على الصاحب فخر الدين بن مكناس فضربه علقة قوية وعلقه من رجليه وهو منكس الرأس ... " " رسم السلطان بخنق جماعة من الأمراء منهم " .

منطاش أيضا عاد إلى سابق عهده بعد رحيل السلطان فهو قد تحالف مع " نعير " و " توجها إلى حماه و دخلا المدينة على حين غفلة فنهبوا أسواقا و أخذوا أموال التجار فلما بلغ الأمير جلبان نائب حلب بما فعله " نعير " ركب ومن معه من العسكر الحلبى وكبس على بلاد " نعير" فى غيبته ونهب أمواله و أخذ أولاده ونساءه و أحرق بيوته وقتل جماعة كثيرة من عربانه " .

" نعير " هذا فدى أولاده ونساءه بمنطاش وقد كان زوج ابنته فقد سلمه إلى جلبان نائب حلب عوضا عنهم " فقيده و أرسله إلى نائب حلب و أرسل صحبته جماعة كثيرة من العربان .... فسجنه بالقلعة و أرسل كاتب السلطان بذلك " .

" نسى السلطان ما قاساه من قهر من منطاش و ما أصرفه على التجاريد من الأموال بسببه وقد أفنى عمره فى قهر منطاش .... " " وجعل يعاقبه ويعصره وقدره على الأموال التى أخذها ونهبها من البلاد فلم يقر بشىء حتى مات تحت العقوبة " .

" فلما مات قطع رأسه ووضعها فى علبة .... فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويلة فعلقت بها ثلاثة أيام ثم دفنت " .

تيمور لنك " عقيب ذلك " أخذ تبريز ثم شيراز ثم بغداد حتى أصبح مجموع ما ملكه " ستة عشر مدينة من مدائن الشرق " ثم توقف أمام البصرة ففقد العديد من رجاله و أسر ابنه هناك وعندما حل الشتاء عاد إلى بلاده ..

السلطان برقوق عندما وصلته هذه الأخبار " رسم بعرض العسكر ونادى فى القاهرة بالنفير عاما والغزاة فى سبيل الله تعالى " " فاضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال وما صدق العسكر أن فتنة منطاش قد خمدت لتستأنف أخرى "

تيمور لنك بعد ذلك تحرك بجيوشه بعد أن وصل إلى " الرها " ثم أرسل إلى برقوق خطابا " عد مساوئ كثيرة لأهل مصر من جملتها أنهم يأكلون مال الأيتام بغير حق وحكامكم يقبلوا الرشا وعدد عليهم أشياء كثيرة من هذا النمط " .

برقوق رد عليه بخطاب كله تهديد ووعيد وجهز جيوشه لمواجهة الغزاة ولم ينسى أن يتزوج " بخاتون بنت حسين ابن أويس وهى بنت أخى القان أحمد وكانت حضرت مع عمها فتزوج بها ودخل عليها " .

جيش السلطان وصل إلى الريدانية ثم دمشق ثم حلب أما جيش تيمور لنك فقد وصل إلى البيرة " وصار جماعة من عسكر السلطان يعدوا لهم تحت الليل من الفرات ويكبسوا عليهم فغنموا من عسكر تيمور لنك أشياء كثيرة "

انتهت هذه الحملة برجوع تيمور لنك إلى بلاده كذلك السلطان " ولم يقع بينهما قتال ولا قابل تيمور لنك " .

أثناء غياب السلطان "اضطربت الأحوال وكثرت هموم الناس فى الحارات وقلة الأمن للناس وفساد العربان فى الشرقية والغربية والصعيد وسائر البلاد من ضواحى القاهرة " .

فلما عاد السلطان زاول هوايته من القبض على المماليك و إذلالهم ومصادرة أموالهم و أولادهم ونسائهم بعد تعذيبهم للإقرار بمخابئها ذكرت بالتفصيل لدى ابن اياس فى العديد من الأماكن بالأحداث و الأسماء وتفاصيل الأموال التى " حملت للسلطان " بواسطة ابن الطبلاوى الذى كان موكلا اليه استجواب وتعذيب من يرسلهم له السلطان تعذيبا مميتا انتهى دائما بالتدمير والوفاة والاستيلاء على أموال الضحية .

ابن الطبلاوى هذا دارت عليه الأيام وتولى يلبغا المجنون بأوامر من السلطان تعذيبه " واستخلاص الأموال منه ومن حواشيه و أهله فحمل ابن الطبلاوى على فرس وفى عنقه طوق من الحديد وشق به القاهرة نهارا حتى دخل منزله فأخرج منه اثنين وعشرين حملا .... و أخذ من داره ألفا ومائتا قفة فلوس .... " عندما حاول أن يمكر بالسلطان ويغتاله " عاقبه وعصره بالمعاصير فى أكعابه وأسقاه بالجير والملح وضربه كسارات و أذاقه ما كان يفعله بالناس ... " يلبغا المجنون أيضا عندما تصور أنه يتآمر مع آخر يسمى " إلى باى " لاغتيال السلطان " أخذه اللكم من وجهه ونزعوا ما عليه وألقوه على الأرض ليذبحوه فلولا ما كان من منع السلطان لهم لقتلوه فلما كنوا عن ذبحه سجنه السلطان ... "

أما " إلى باى " هذا فقد عذبه السلطان بنفسه " عذابا شديدا كسرت فيه رجلاه وركبتاه فلم يقر على أحد فتزايد حنق السلطان عليه فضربه بعكاز كان بيده وهو من الفولاذ فخسف صدره فأخذه إلى الخارج وخنق " .

" فتنكرت الأمراء وكثر خوفهم من السلطان .. ومن حينئذ فسد أمر السلطان مع مماليكه فلم ينصلح إلى أن مات ومن خوفه منهم لم ينزل بعد ذلك من القلعة " .

المماليك خوفا من بطش السلطان أخفوا ما يملكونه بالقاهرة فنقلوه من دورهم والسلطان " صلى صلاة عيد النحر فى جامع القلعة وقد خالف العادة بأن يصلى السلطان العيد فى جامع الميدان " .

وهو قد طارد حاشية " على باى " " فقبض على سبعة أنفس ورسم بتسميرهم فسمروا على جمال وطافوا القاهرة "

وقد أرسل تجريده إلى الشرقية و " أخذوا من عرب بنى وائل مائتى فارس وعادوا فسمروا منهم نحو الثلاثين وسجن البقية ... "

ثم " سمر مائة وثلاثة رجل آخرين من بنى وائل ... "

أحد النصارى بعد أن أسلم ارتد عن الإسلام " فلما عرضوا عليه الإسلام مرارا ورغبوه فى العود إليه لم يقبل و أصر على ردته إلى النصرانية .... فضربت عنقه " .

وهكذا لم يعد يشغل السلطان الا مقاومة المؤامرات التى تحاك ضده و احباط محاولات اغتياله سواء كانت قد نقلت إليه من مصدر موثوق به أو كانت ملفقة للنيل من آخرين ..

صحة برقوق بدأت فى الانهيار " فوعك بدن السلطان وحدث له إسهال مفرط لزم منه الفراش واستمر توعكه مدة تزيد على عشرين يوما " .

ثم هاجمته الحمى وشعر بدنو أجله فجمع الخليفة والقضاة ونائب السلطنة و أوصى لابنه الأمير فرج أن يخلفه فى السلطنة .

ليلة الجمعة 15 شوال 801 هـ توفى برقوق عن عمر يناهز الثلاثة والستون بعد أن حكم " منذ أعيد إلى أن مات لتسع سنوات وثمانية أشهر " .

ليصبح اجمالى ما حكمه أتابكيا وسلطانا (أحد وعشرون سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما).

برقوق ترك خلفه مليون وأربعمائة ألف دينار من الذهب وموجودات أخرى قيمتها مليون و أربعمائة ألف دينار وخمسة آلاف جمل وسبعة آلاف فرس هكذا ذكـــر المقريزى فى السلوك . أما مماليكه فقد كانوا من خمسة إلى سبعة آلاف مملوك جركسى .. " كان يحب الاستكثار من المماليك ويقدم الجراكسة على الأتراك والروم وبشره فى جمع المال بحيث لم يشبع منه ويرغب فى اقتناء الخيول والجمال " و " كان سفاكا للدماء قتل من الأمراء والمماليك والناس ما لا يحصى عددهم وكان كثير المصادرات للناس و أرباب الدول وكان يجب جمع المال من حرام وحلال " .

الملك السادس والعشرون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية و أول الملوك من أولاد الجراكسة فى مصر هو " الملك الناصر زين الدين أبى السعادات فرج " ابن الملك برقوق من " آمة رومية الجنس تسمى شيرين " " تولى الملك بعهد من أبيه وله من العمر ثلاثة عشر سنة " بعدها اجتمع الأمراء وقرروا " إبقاء الأمور على ما هى عليه " وقال الأمير أيتمش للمماليك السلطانية " اعلموا أن نحن مماليك فرد رجل واحد وذلك الواحد مات وتولى ابنه مكانه فلا تخرجوا عن طاعته وكونوا كما كنتم مع أبيه .. فأجابوا بالسمع والطاعة " .

السلطان كما هى العادة خلع على الأمراء والمماليك وثبت الأمير أيتمش فى الأتابكية والأمير تنم نائبا للشام " فلما قرئت مراسيم السلطان على تنم قام وباس له الأرض ودخل تحت طاعته و أجابه بالسمع والطاعة و أمر أن تزين مدينة دمشق فزينت سبعة أيام " .... وكالعادة أيضا قبض على مجموعة أخرى من الأمراء وسجنهم " وعصروا الأمير يلبغا ليحضر المال " .

الأمير تنم بعد أن باس الأرض للسلطان كان " يصرح بأنه صغير وكل ما يصدر ليس هو عنه وإنما عن الأمراء " و " أنا وصى السلطان لا يعمل شىء إلا بمراجعتى فترقب الناس بدمشق وقوع فتنة " . " وبلغ هذا نائب حمص فأخذ القلعة كذلك نائب حماه " .

" الملك بايزيد بن عثمان ملك الروم تحرك للمشى على البلاد الشامية وتيمور لنك القائم ببلاد العجم أخذ ممالك الهند " .

عندما ورد الخبر بأن ابن عثمان وصل إلى الأبلستين وملكها وانه قد عزم أن يمشى على البلاد الشامية اجتمع المماليك للنظر فى تجهيز جيش لمواجهة الغزاة وكما هى العادة اقترح الأتابكى أيتمش " أن يصادر التجار وأعيان الناس ويأخذ من متحصل الأوقاف أجرة سنة كاملة حتى يتقوى العسكر " .. " المماليك السلطانية أنكروا صحة ذلك وقالوا : هذه حيلة علينا حتى نخرج من القاهرة " .

" ابن عثمان وصل إلى ملطية وملكها ثم رجع إلى بلاده ولم يشوش على أحد من الرعية وأمر عسكره أن لا ينهبوا من الناس شيئا ما قيمته الدرهم الفرد فلما جاءت هذه الأخبار بطلت التجريده ومصادرات الناس" .

المماليك كعادتهم حارب بعضهم بعضا فى القاهرة وفى الشام ..

ففى القاهرة قام المماليك ضد الأتابكى أيتمش فصارت بينهم معارك " وتم النهب عمال يومين وصارت القاهرة مائجة ليس لها حاكم ولا والى ولا حاجب وطمع الناس فى السلطان لصغر سنه ولولا لطف الله بالناس لنهبت القاهرة عن آخرها " .. هذه المعارك انتهت بهزيمة الأتابكى أيتمش وهروبه ومن نجى معه إلى غزة و احتل مكانه بيبرس الدوادار ابن أخت الملك الظاهر.

فى الشام انقلب النواب فى المدن على نائب الشام تنم وقامت بينه وبينهم معارك تبادلوا فيها احتلال المدن الرئيسية خاصة حمص وحماه وطرابلس التى نهب نائبها يونس الرماح " أموال الناس كافة وفعل مالا تفعله الكفار وقتل نحو العشرين رجلا من المعروفين وقتل من العامة ما يقارب الألف وصادر الناس مصادرة كبيرة و أخذ أموالهم " .

الأتابكى أيتمش لما وصل إلى غزة أذن له الأمير تنم بالدخول هو ومن معه إلى دمشق " وخرج إلى لقائه وبالغ فى إكرامه ومن معه وقدم إليه تقادم جليلة وخير فى الإقامة فاختار النزول بالميدان وسكنى القصر الأبلق فأقام وعظم شأن تنم بقدوم أيتمش عليه و أطاعه من خالف عليه " .

عندما التف أمراء الشام حول تنم بعد وصول أيتمش " خرجا بمن معهما من العساكر من دمشق إلى جهة غزة طالبا الديار المصرية "

فلما تحقق السلطان " نادى للعسكر بالعرض ونفق عليهم فبلغت النفقة على الأمراء والعسكر خمسمائة ألف دينار " .

تلى ذلك انفراط عقد المماليك كل حسب هواه فوالى الشرقية أخذ مماليكه و انضم إلى حمله دمشق أنا أهل الكرك فانقسما إلى قسمين وحارب بعضهم بعضا " وكانت بين الطائفتين مقتله قتل فيها ستة وجرح نحو المائة ..... " نائب الوجه القبلى " خرج هو ومحمد الهوارى من الطاعة وكبسا عثمان بن الأحدب ففر إلى منفلوط وتبعاه إليها وخربوها " .... السلطان حاول أن يرسل تجريده للصعيد ولكن " لم يوافقوا على ذلك ولا سار أحد " . نائب حلب " ثار عليه جماعة من الأمراء وقاتلوه فكسرهم وقبض على جماعة منهم وسار إلى دمشق " .

وقاتلوه فكسرهم وقبض على جماعة منهم وسار إلى دمشق " .

ومع كل هذه الفوضى " كان بالقاهرة أمراض فاشية فى الناس من الحمى والبرد ومات فيها عده كثيرة مع توقف الأحوال وتعطل المعايش وتزايد السعار وخوف الناس من وقوع الفتن لشدة اختلاف أهل الدولة " .

الناس فى دمشق أيضا " كثر دعائهم على المماليك " فقد كان " الفساد قد عم بوصول العساكر إلى دمشق وظلموا الناس ونزلوا فى الخانات والحوانيت والدور والبساتين بغير أجرة وعاثوا وأفسدوا كثيرا لاسيما عسكر طرابلس " .

أما فى وجه بحرى بأن يلبغا المجنون " أخذ خيول الطواحين وسار بمن معه إلى مدينة دمنهور وطرقها بغتة وقبض على متوليها ونادى فى اقليم البحيرة بحط الخراج عن أهلها و أخذ مال السلطان " " ثم عدى من البحيرة إلى الغربية ودخل المحلة ونهب دار الوالى ودار كبيرها .... ثم عدى إلى سمنود .. وسار إلى الشرقية فارتجت القاهرة " و استعد أهلها لمواجهة الفساد الذى سيحدث لو دخلها .

فى ميدان القتال خرج السلطان فى نحو " سبعة آلاف فارس وترك بالقاهرة ألف مملوك " فى طريقه إلى الشام فوصل مدينة غزة .

فى المقابل وجه " تنم " نائب حلب وعسكره إلى جهة مصر ثم تبع المقدمة ومعه أيتمش وبقية العسكر وانضم إليه التركمان " و أنفق تنم من الأموال على العساكر ما لا يحصى وأنعم عليهم من الخيل والجمال والعدد وآلات الحرب بما لا يعبر عنه فصار فى جيش عظيم جدا " .

مقدمة عساكر حلب التقت مع عساكر السلطان " قاتلوهم من بكرة النهار إلى وقت الظهر " فانهزمت جماعة وهربت أخرى أما نائب حماه ونائب صفد وعدد آخر من المماليك فقد دخلوا فى طاعة السلطان .

المعركة التالية كانت بين تنم وكان معه خمسة آلاف فارس وستة آلاف رجل وعساكر السلطان " فقاتلوهم فلم يكن غير وقت يسير حتى انهزمت عساكر تنم " ووقع تنم نفسه الأسر وما ينيف عن مائة أمير " . أيتمش " فر مع ثلاثة آلاف فارس إلى دمشق ليملكها " ولكن نائب القبيه هناك " قبض عليه وحبسه فى دار السعادة " فى النهاية دخل السلطان دمشق " قدامه تنم وهو مقيد بالحديد ومعه عشرة من أمراء دمشق " فأمر بقطع رأس أيتمش و أرسلها للقاهرة لتعلق على باب زويلة . وحبس تنم ويونس الرماح نائب طرابلس حتى استخلص منهما الأموال التى نهباها ثم كعادة المماليك خنقهما ليلا ...

السلطان عاد إلى القاهرة بعد غيبة حوالى الشهر رتب فيها الأوضاع فى الشام بما يناسبه فوجد أن يلبغا المجنون قد وصل إلى الصعيد ويحاول الاستيلاء على الوجه القبلى فأرسل عليه تجريده حاربته وانتهى به الأمر إلى أن غرق و فرسه فى النيل وعندما طفت جثته كانت الأسماك قد أكلت معظمها .

أما العامة المرعوبين من هجمات المماليك " قبض والى القاهرة على جماعة من أرزال العامة وضربهم وشهرهم ونودى عليهم : هذا جزاء من يكثر فضوله ويتكلم فيما لا يعنيه" .

المماليك المناهضين للسلطان والذين تسببوا فى الفتن أثناء غيابه قبض على معظمهم وسجنوا فى " خزانة شمايل " .

خارج مصر كانت هناك ثورة فى بغداد انتهت بطرد سلطانها أحمد بن أويس وكسره ونهب ما معه و أخذ سيفه الذى يقال أنه سيف على بن أبى طالب .

سلمان بن عثمان هرب من مدينة سيواس أمام زحف تيمور لنك وعاد إلى أبيه تاركا المدينة للتتار .

فيروز شاه مات فاحتل تيمور لنك مدينة دله فى الهند وخربها ونهبها واستمرت غزوات التتار بحيث استولوا على " ملطية " ووصل تيمور لنك إلى " مرعش وعين تاب فأدركوا المسلمين ونهب المدينة و أحرق ضياعها وقتل أهلها وقيل كان يحفر للناس حفائر ويدفنهم فيها وهم بالحياة وكان يحرق الناس بالنار "

ثم أن تيمور لنك " أرسل قصاده إلى نائب حلب وعلى يدهم مكاتبه فيها تهديد ووعد ووعيد بأن يبادروا فى الدخول تحت الطاعة وأن يضربوا السكه باسمه ويقيموا بحلب الخطبة باسمه كما فعلوا ببلاد الهند وغيرها " .

والى حلب " حنق منه و أمر بضرب أعناق قصاده وشرع فى تحصين أسوار مدينة حلب ووضع بها المكاحل وهى معمره بالمدافع ونفق على جماعة من المقاتلين "

أما السلطان فقد أمر " يعقد مجلس ... وذكر لهم ما جرى من تيمور لنك و أن بيت المال مشموت من المال وليس به ما يقوم بنفقة العسكر لدفع العدو " .

تيمور لنك بعد ذلك ملك مدينة بهسنا ووصلت عساكره إلى عنيتاب .

فى القاهرة " خرج الأمير يلبغا السالمى إلى شبرا الخيام من ضواحى القاهرة وكسر بها جرار الخمر أربعة و أربعين ألف جرة و أراق ما فيها وخرب بها كنيسة النصارى وعاد فى آخره ومعه عدة أحمال من جرار الخمر فكسرها عند باب زويلة وتحت القلعة و من حينئذ تلاشى حال أهل شبرا ومنية السيرج فان معظمهم أموالهم كان من عصير الخمر وبيعه وكان الخمر لا يعمل إلا بشبرا بحيث أن خراج شبرا كان لا يغلق إلا من بيع الخمر " .

تيمور لنك " نزل على نزاغة ظاهر حلب و زحف إلى جبلان من قرى حلب و احتاط المدينة وصار عسكره ينهب فى ضياع حلب ويقتل أهلها ويسبى النساء ويحرق ما فيها من الأشجار".

فى دمشق " خرج القضاة ومعهم أهل النواجى بالميدان ونادوا بقتال تيمور لنك وتحريض الناس عليه " . أما تيمور لنك فقد أرسل لهم أنه " قصد بلاد مصر ليضرب بها السكه ويذكر اسمه فى الخطبة ثم يرجع بعد أن يقرر سلطان مصر بها .... وألا تصير دماء أهل الشام وغيرهم فى ذمتكم " .

تيمور لنك فى النهاية استولى على حلب بعد معارك " تشيب منها النواصى وقد دهمتهم عساكر تيمور لنك مثل أمواج البحار المتلاطمة فلم تثبت له العساكر الشامية ولا الحلبية وولوا على حميه وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة وحل بهم من البؤس كل داهية طامة " .

" اقتحمت عسكر تيمور لنك المدينة و أشعلوا بها النيران وجالوا بها ينهبون ويأسرون ويقتلون واجتمع بالجامع وبقية المساجد نساء المدينة فمال أصحاب تيمور لنك عليهن وربطوهن بالحبال ووضعوا السيف فى الأطفال فقتلوهم بأجمعهم و أسرفوا فى القتل....."

" وصارت الأبكار تفتض من غير تستر ولا احتشام بل أخذ الواحد الواحدة ويعلوها فى المسجد والجامع بحضرة الجم الغفير من أصحابه ومن أهل حلب فيراها أبوها و أخوها ولا يقدر أن يدفع عنها " .

ومن يريد المزيد يطلع على ابن إياس صفحة 598 الجزء الأول القسم الثانى.

حماه أيضا تكرر لها ما حدث " حتى صارت مثل حلب مقبرة خالية من الأنيس " ثم جاء دور دمشق فاختلف أهلها ما بين من يرى " ألا نشهر سلاحا ونسلم البلاد لتيمور لنك " .. و آخرين نادوا " بالاستعداد للحرب " ثم " تكاثر جمع الناس بدمشق بمن فر اليها من مملكة حلب وحماه واضطربت أحوال الناس بها وعزموا على مفارقتها وخرجوا منها شيئا بعد شىء يريدون القاهرة "

فى القاهرة أمر شيخ الإسلام الناس " بالجهاد فى سبيل الله لعدوكم الأكبر تيمور لنك ... " ثم وصف لهم ما حدث لأهل حلب وحماه .

" وكان الملك الناصر كلما طرقته تيمور لنك يتشاغل عنها بشرب الخمر وسماع الزمور حتى تمكن تيمور لنك من البلاد وعم الفساد " .

فى النهاية جهز السلطان الجيش وتحرك حتى وصل إلى دمشق وكان تيمور لنك قد وصل إلى حمص و أرسل مقدمة جيشه لاستطلاع موقف دمشق فقامت بينها وبين عسكر السلطان معركة انكسر فيها قوات تيمور لنك وانهزمت .

فى القاهرة قامت منافسة بين الأمير تمراز نائب الغيبة والأمير يلبغا السلمى الذى " أمر نساء النصارى أن يلبسن أزرا زرقاء ونساء اليهود أزرا صفراء و أن اليهود والنصارى لا يدخلن الحمامات إلا وفى أعناقهن أجراس .... " فنادى الأمير تمراز فى القاهرة " أن اليهود والنصارى على حالهم كما كانوا أيام الملك الظاهر " .

المعركة التالية لم تكن فى صالح السلطان إذ " نزل تيمور لنك إلى قطنا فملأت جيوشه الأرض وركب طائفة منهم إلى العسكر فقاتلوهم فخرج السلطان من دمشق ..... فكانت وقعة انكسرت ميسرة العسكر وانهزم أولاد الغزاوى ...... وحمل تيمور لنك حملة منكرة ليأخذ بها دمشق فدفعته عساكر السلطان " .

ولكن كعادة المماليك فى الحرب تآمروا على السلطان وهرب بعضهم من دمشق قاصدا القاهرة لخلعه و " ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسى " فطاردهم أمراء آخرون بعد أن أخذوا معهم السلطان إلى القاهرة " فارتجت البلد وكادت عقول الناس تختل وشرع كل واحد يبيع ما عنده ويستعد للهروب من مصر " .

فى دمشق استقر الرأى على مقاومة تيمور لنك " فركبوا أسوار المدينة ونادوا بالجهاد وزحف عليهم أصحاب تيمور لنك فقاتلوهم من فوق السور وردوهم و أخذوا منهم عدة من خيولهم وقتلوا منهم نحو الألف .... "

تيمور لنك حاول أن يكسب بالخديعة ما عجز عنه بالقتال فقال لهم " هذه بلد الأنبياء عليهم السلام وقد أعتقها " ثم فرض عليهم ألف ألف دينار جباية كى يرحل عن المدينة عندما جمعوها له طالب بالمزيد ... وبالرغم من معاناة أهل دمشق فى جمع الأموال والدعاء للسلطان محمود ولولى عهده ابن الأمير تيمور لنك كركان فى المساجد أيام الجمع ... وتسليمه أموال أهل مصر و أموال التجار الذين فروا خوفا منه " ألزمهم أن يخرجوا إليه سائر ما فى المدينة من الخيل والبغال والحمير والجمال فأخرج إليه جميع ما كان فى المدينة من الدواب ... " ثم " ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع آلات جليلها وحقيرها فتتبعوا ذلك ودل بعضهم على بعض " حتى " لا بقى مع أهل دمشق درهم ولا دينار " ثم قسم المدينة على أمرائه فعذبوا الرجال و أخذوا الأموال " ومع كل هذا تؤخذ نساؤه وبناته و أولاده الذكور وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير فيشاهد الرجل المعذب امرأته وهى توطأ وابنته وهى تفض بكارتها وولده وهو يلاط .... نهارا وليلا من غير احتشام "

" واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوما فهلك فيها بالعقوبة ومن الجوع خلق لا يدخل عددهم تحت الحصر " . بعد ذلك أسر النساء والأطفال و " أمر بطرح النار فى دمشق فطرحوا النار فى المنازل وكان يوم عاصف الريح فعم الحريق البلد كلها وصار لهب النار يكاد يرتفع إلى السحاب وعملت النار ثلاثة أيام " " ثم رحل تيمور لنك بالأموال والسبايا والأسرى بعدما أقام على دمشق ثمانين يوما وقد احترقت كلها " .

يقول ابن إياس " فانا لله وإنا إليه راجعون لعظم هذه المصائب و شناعة هذه النوائب فكم توقظنا حوادث الأيام ونحن فى ليل الغفلة نيام فلا نعتبر على ما جرى للأنام ولا نرجع عن ذنوبنا و الآثام " . ثم يقص عن تيمور لنك " أنه عندما أراد أن يرحل عن دمشق جمعوا له أطفال المدينة الذين أسروا أهلهم وقتلوا ما بين رضع و أبناء خمس سنين فجمعوا خارج المدينة فركب تيمور لنك و أتى إليهم فوقف ساعة طويلة وهو ينظر إليهم ثم قال لعسكره " سوقوا عليهم الخيل " فساقوا عليهم فماتوا أجمعين وكانوا نحو عشرة آلاف طفل فلما رجع إلى الوفاق لاموه أمراؤه فقال " انتظرت أن الله ينزل على قلبى فيهم رحمة فما نزل على قلبى فيهم رحمة " ثم قال " أنا غضب الله فى أرضه يسلطنى على من يشاء من خلقه " .

فلنستكمل مأساة ذلك الزمن الأسود " أمراء مصر وغيرهم لما علموا بتوجه السلطان من دمشق خرجوا منها طوائف يريدون اللحاق بالسلطان فأخذهم العشير وسلبهم ما معهم ولم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم .. فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجرى عليهم من عسكر تيمور لنك وقتلوا العربان منهم خلقا كثيرا " ثم " تتابع دخول المنقطعين بدمشق إلى القاهرة فى أسوأ حال من المشى والعرى والجوع وكان أكثرهم ينزل فى البحر المالح من على يافا ويطلعون على دمياط ويدخلون القاهرة فى أسوأ حال و أنحس هيئة ... " .

تيمور لنك " توجه إلى بغداد بعد رجوعه من دمشق و أخربها كما فعل فى الشام وقتل من أهلها نحو ثلثماية ألف انسان حتى بنى من رؤوس القتلى مصاطب ومآذن " أما العربان فقد جاءوا من بلاد الشام إلى بغداد بعد أن خربت " فنهبوا ما تبقى " .

الجراد أيضا " حجب من كثرته الشمس عن الأبصار فأتلف جميع ما تنبته الأرض بعامة أراضى الشام كلها حتى لم يدع بها خضرا من شجر ولا غيره من غزة حتى الفرات "

وهكذا انسحق سكان الشام ومصر وبغداد بين هجوم الجراد وهجوم التتار لتكتمل قصة نهب الرعاة للزراع كما لو كان قدرا عليهم أن تنهبهم وتسلبهم وتسبى نساءهم وتنتهكهم جحافل التتار والشركس والعرب ثم الأتراك من بعدهم .

فى القاهرة كان النهب مستمرا بعدما " أمر السلطان الأمير يلبغا السلمى أن يجهز عسكرا إلى دمشق لقتال تيمور لنك فشرع فى تحصيل الأموال وفرض على سائر أراضى مصر فرائض ... وجبى من سائر أملاك القاهرة ما أجرته عن شهر حتى أنه كان يقوم داره التى يسكنها ويأخذ منه أجرتها .. واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم المال على سبيل القرض وصار يكبس الفنادق وحواصل الأموال فى الليل فمن وجد صاحبه فتح مخزنه و أخذ نصف ما يجد من نقود فاشتد الضرر بالناس " .

الأمير يلبغا السلمى هذا استولى على ما جمع " فأسلم للقاضى سعد الدين إبراهيم ليحاسبه على الأموال المأخوذة من الناس فى الجبانات " ثم " سجن وعصر و أهين اهانة بالغة " حتى أوفى ما عنده فأفرج عنه .

المماليك الذين صدرت لهم الأوامر السلطانية بالذهاب للشام رفضوا الامتثال ودار بينهم وبين مماليك السلطان صراع وحرب كما يحدث دائما بين المماليك عندما يكون السلطان ضعيفا .

أما فى الشام فقد كان هناك صراع آخر بين العربان والمماليك العائدين والذين يبحثون عن أموالهم التى تركوها " فى نوبة تيمور لنك " .

كذلك فرضت الضرائب على معظم مدن الشام لاستخدام حواصلها فى تعمير دمشق والمدن الشامية المخربة .

" عرب بنى سالم خرجوا على الحجاج فتحارب معهم أمير الحج وكسرهم وقبض على شيخهم منجد بن خاطر و أحضره فى الحديد إلى مصر فلما مثل بين يدى السلطان أمر بشنقه فالتزم برد ما نهب للحجاج جميعه فسجن حتى يحضر ذلك ... "

الفرنج هجموا أيضا على مراكب فى طرابلس " من مراكب المسلمين التى قد شحنت بالبضائع لتسير إلى أرض أخرى و أخذوا منها مركبين فيهما مال كبير و أسروا خمسة وثمانين مسلما بعد ما قاتلوا قتالا عنيفا وغرق جماعة وفر جماعة و أصبحوا فى الغد على الحرب ..... فوقع الاتفاق على فكاك من أسروه بمال يحمل إليهم ... فلما حمل إليهم المال أسروا الرجل و أخذوا المال ... " الفرنج بعد ذلك ذهبوا إلى صيدا وقاتلوا أهلها ثم إلى بيروت فهزمهم نائبها وردهم إلى مراكبهم وقتل منهم عده وبعث إلى القاهرة سبع رؤوس منهم .

" فى دمشق كثر بها المناسر جدا فقبض النائب عليهم وعلقهم بكلاليب من أفواههم وكبس بيوتهم فوجدوا فيها أشياء كثيرة .. وصار كل من عرف له شيئا أخذه .. "

فى القاهرة كانت هناك حرب بين المماليك فقد " دبت عقارب الفتن بين الأمراء واختلافهم وكثر القيل والقال بين الناس ووزعوا قماشهم فى الحواصل وصارت الدروب تغلق فى المغرب واستمروا على ذلك و دخل رمضان وانقضى فلم يحضروا للهنا بالعيد ولا صلوا صلاة العيد مع السلطان " انتهت الحرب بالصلح وترك القتال " ولكن صلح على فساد وصارت القلوب معمرة بالعداوة بين الأمراء " ... فقد كان لابد من انتصار طرف على الأطراف الأخرى حتى تحسم الأمور .. فى الحرب التالية انتصر السلطان فشتتهم وسجن قادتهم وقيدهم ... لتهدأ الحال مؤقتا .

خارج مصر حدثت حرب ضارية بين تيمور لنك وابن عثمان الذى كان معه نحو سبعمائة ألف فارس وثلثماية ألف راجل ... تيمور لنك كعادته خادع ابن عثمان و أنهك جيشه بالحركة السريعة والمناورة ثم اصطدم معه فى معركة خسرها بن عثمان ووقع أسيرا فى يد تيمور لنك " وتغرق التيمورية فى بلاد الروم تعبث وتفسد وتنهب وتنوع العذاب على الناس و أحرقوا مدينة برصا ومكثوا ستة أشهر يقتلون و يأسرون وينهبون ويفسدون " .

" قيل أن تيمور لنك لما قبض على أبو يزيد ابن عثمان صنع له قفصا من حديد ووضعه فيه وصار يدخل به المدن .. فما طاق ذلك فابتلع فصا من الماس فمات وهو بالقفص الحديد " .

المماليك فى مصر عادوا للصراع ومحاربة بعضهم بعضا والسلطان لا يستطيع التوفيق بينهم فتارة ينضم لفريق وينكل بآخر ثم يعود ليحارب من انضم له ويعفو عن من نكل به .. بعض المماليك هربوا إلى الشام والتفوا حول الأمير جكم الذى حاول أن " يتسلطن ويتلقب بالملك العادل " و " منع الدعاء للسلطان على المنبر " أو حول الأمير سودون الجلب الذى أحدث الذعر فى البلاد ونهب المدن وسبى أهلها و أحرق كل ما طالته يده حتى عم العناء على الناس .

نواب السلطان أيضا " كثرت المصادرات بدمشق وغلت أسعار المبيعات بها .. " " وقد فرض حسن نائب القدس على الناس مالا .. فأبوا عليه فتركهم حتى اجتمعوا بالمسجد وغلق الأبواب و ألزمهم بالمال فاستغاثوا عليه فلبس السلاح وقتلهم وقتل بينهم بضعة عشر رجلا وجرح كثير .... "

تيمور لنك أرسل للسلطان يطلب منه قريبه أطلمس الذى كان قد أسر فى عهد الظاهر برقوق وسجن بالقاهرة .. فأعاده السلطان مع مندوب عنه .. فأكرم تيمور لنك وفادته " و أخلع عليه وأطلق من كان عنده من الأسرى و أرسل صحبتهم هدايا للسلطان .. مما تهدى للملوك " تيمور لنك مات بعد ذلك بسنتين " بعلة البطن وكان عمره ثمانين سنة " .

فى هذه الأيام توالت الكوارث على مصر الأوبئة ثم زيادة النيل " تعطل كثير من الأراضى لاتساع النيل بكثرة زيادته وعجز الفلاحين عن البذر سيما أراضى الصعيد فان أهلها بادوا موتا بالجوع والبرد وباعوا أولادهم بأبخس الأثمان فاسترق منهم بالقاهرة خلائق ونقل الناس منهم إلى البلاد ما لا يعد فبيعوا فى أقطار الأرض كما يباع السبى ووطئ الجوارى بملك اليمين " . تلى هذا انخفاض شديد " من شدة الجوع أكل الناس الكلاب والقطط الميتة وسبب ذلك شحه النيل وموت الفلاحين " .

يقول المقريزى " وقد كنت أسمع قديما أنه يتوقع لأهل مصر غلاء وجلاء وقباء فأدركنا ذلك كله سنة ست وسبع وثمانمائة وهلك فيها ما ينيف عن ثلثى أهل مصر ودمر أكثر قراها " .

وهكذا كانت مصر خرابا " حتى شمل الخراب إقليم مصر وتلاشى الصعيد ودثرت عدة مدن وكثير من القرى وتعطلت معظم أراضيه عن الزراعة " والشام فوضى فالمماليك يقاتلون بعضهم بعضا ويبدلون مواقعهم بين أطراف النزاع بأسرع من تبديل ثيابهم .. السلطان فى مواجهة هذا " علق الجاليش على قلعة الجبل للسفر و أنفق على المماليك خمسة آلاف لكل واحد ... و احتاج السلطان فاقترض من مال أيتام الدوادار ...... ورهن جوهرة ... وباع بلدا فى الجيزة و أخذ من تركة .... وبلغت النفقة على خمسة آلاف مملوك سوى ما أنفق فى الأمراء إلى مائتى ألف دينار وخمسين ألف دينار " .

الأمير " جكم " الذى كان يرى نفسه أفضل من السلطان و أحق بالسلطنة توجه إلى القاهرة هو والأمير شيخ والأمير يشبك ومعهم آلاف المماليك والأمراء فقابله السلطان بقواته ودارت معركة قرب بلبيس " فاقتتل الفريقان قتالا شديدا من بعد عشاء الاخره إلى بعد نصف الليل جرح فيه جماعة .... " وهرب السلطان إلى القلعة " وتفرقت العساكر وتركوا أثقالهم وسائر أموالهم فغنمها الشاميون ووقع فى قبضتهم الخليفة والقضاة الأربعة ونحو من ثلاثماية مملوك"

تحت القلعة حدثت معركة أخرى انتهت بأن " أقبل عدة من الأمراء إلى جهة السلطان طائعين له ..ففت ذلك من أعضاد من بقى وعاد طائفة منهم وحملوا خفهم و أفرجوا عن الخليفة والقضاة"

" وانجلت هذه الفتنة عن إتلاف حال العسكريين فذهب فيها من الخيل والبغال والجمال والسلاح والثياب والآلات ما لا يدخل تحت حصر " .

صراع المماليك على السلطة كان فى حقيقته صراع بين الجراكسة الذين ينتمى إليهم عن أمه ومحاولة كل فريق استخدامه لصالحه وصالح قومه حتى ولو بتعريض حياته للخطر عن طريق

السكر والعربدة " فجلس السلطان مع عدة من خاصكيته لمعاقرة الخمر ثم ألقى نفسه فى بحر ماء وقد ثمل " ... " فبادر إليه البعض وكان روميا وخلصه من الماء وقد أشرف على الموت "

انتهى الأمر بأن أخفت جماعة من المماليك السلطان عندها وادعت أنه قد هرب ولا يستدل على مكانه " فلما بلغ الأمراء هروب الملك الناصر ركبوا وطلعوا القلعة بعد المغرب ... ثم ضربوا مشورة فيمن يولوه السلطنة فوقع الاتفاق على سلطنة عبد العزيز أخو الملك الناصر فطلبوه من دور الحريم " .

عبد العزيز هذا تسلطن " وكان له من العمر لما تولى الملك نحو عشر سنين وكانت أمه أم ولد رومية الجنس تسمى قنقبارى " فبقى فى السلطنة لسبعين يوما " تحت كفالة أمه وليس له من السلطنة سوى مجرد الاسم فى الخطبة وعلى أطراف المراسيم " إذ أن الجماعة التى أخفت أخيه السلطان الهارب وجدت أن صراع السلطة لم يتجه لصالحهم فأظهروه وتجمعوا حوله " فملك السلطان القلعة بأيسر شيء وجلس فى المقعد الذى بباب السلسلة ... "

السلطان بعد ذلك أرسل أخويه " عبد العزيز وإبراهيم إلى الإسكندرية .... وخرج مع أخويه أمهاتهما وخدمهما .... " حيث ماتا هناك و " كثر لهج الناس بأنهما ماتا مسمومين " .

فى مصر " فشت الأمراض الحادة فى الناس بالقاهرة ومصر " ... " فشى الطاعون بصعيد مصر حتى خلت عده بلاد و أحصى من مات فى سيوط فكانوا عشرة آلاف سوى من لم يفطن له .... ومن مات فى بوتيج فبلغوا ثلاثة آلاف وخمسماية ... "

" فى القاهرة تزايد الطاعون حتى فشى فى الناس وكثر الموت ..... "

فى الشام ظل القتال بين المماليك و " تسلطن الأمير جكم بحلب وتلقب بالسلطان العادل أبى الفتوح عبد الله جكم وخطب باسمه من حلب إلى الفرات إلى غزة ماعدا صفد ... " ولكن ملكه هذا لم يدم إلا شهرين و أيام إذ أنه قتل فى معركة التركمان " وكفى الله تعالى الملك الناصر شر جكم و قتله بيد غيره وكان الملك الناصر قد تلاشى أمره وصار لا يتجاوز حكمه غزة " التركمان قطعوا " أعضاء جكم و أرسلوا كل عضو منها إلى مدينة من مدائن الشرق " فكان نصيب القاهرة رأسه التى ظلت معلقة على باب زويلة سبعة أيام .

الملك الناصر ذهب إلى الشام حتى يستطيع السيطرة على فوضى المماليك ولكته عاد إلى " قلعة الجبل ولم ينل غرضا وتلف له مالا كثيرا جدا ونقصت عساكره وظلت الفوضى على ما هى عليه فى الشام .

فى مصر كانت هناك خيبة أخرى للسلطان عندما " كبس يلبغا الناصرى بأطفيح على العربان وساق عدة من إبلهم فاجتمعوا عليه و أوقعوا بساقته و أخذوا عدة من بغاله وقتلوا منه جماعة وجرحوا طائفة "

أما عربان البحيرة " فأحاطوا بمن توجه إليهم من الأمراء وحصروهم فى مدينة دمنهور فخرجت النجدة إليهم ... ففرت العربان فى البرية " .

المقريزى فى كتابه السلوك قدم لنا درسا فى الاقتصاد حين شرح كيف أن المماليك تسببوا فى خراب إقليم مصر اقتصاديا بسياستهم القاصرة .

" وارتفعت أسعار المبيعات حتى بلغت أضعاف قيمتها المعتبرة بالفضة فصار من كان معلومه (أجره) مثلا مائة درهم فى الشهر ... يشترى بهذه المائة ما كان قبل هذا يشتريه بأقل من عشرين بكثير ... أما الأجراء و أصحاب الصنايع فان أجرهم تزايدت فكل من كانت أجرته درهما لا يأخذ الآن إلا خمسة دراهم فما فوقها كذلك التجار ضاعفوا ربحهم فى بضائعهم و أما أرباب الاقطاعات فإنهم جعلوا كل فدان بستة أمثال ما كان .... إلا أنه صار بهذا الاعتبار لا يرجى الرخاء بمصر .. فان الغلة (المحصول) تقوم على صاحبها بقيمة زائدة من أجل غلاء أجره الطين وثمن البذر و أجرة الحصادين ونحوهم وكل ذلك من سوء نظر ولاة الأمر " .

أسباب ذلك عند المقريزى

" إفساد أهل الدولة للدرهم ... فانه حملهم على ذلك كثرة ما عليهم من جوامك (أجور وطعام وخلافه) المماليك السلطانية وتبلغ فى كل شهر ألف ألف ومائتى ألف درهم .. فأكثروا من ضرب الفلوس فرخصت الفلوس واستمرت نفقة المماليك على ذلك وهم لا يشعرون بحقيقة الحال فعم الفساد وخص الفقهاء ونحوهم من ذلك أعظم البلوى " .

" مؤسس هذا الفساد بديار مصر رجلان هما سعد الدين إبراهيم بن غراب وجمال الدين يوسف الاستادار وذلك أن ابن غراب منذ ولى ناظر الخاصة ... لم يزل لكثرة ما ظفر به من الذهب يزيد من سعره حتى بلغ هذا القدر .... أما جمال الدين فانه يزيد أجرة الأراضى ... حتى عمل ذلك كل أحد وصار باعتبار غلاء سعر الذهب كل شىء يباع بأضعاف ثمنه وباعتبار غلاء الأطيان لا يرجى رخاء ".

"وهذان الفسادان سبب عظيم فى خراب إقليم مصر وزوال نعم أهله سريعا إلا أن يشاء ربى شيئا " .

درس فى الاقتصاد قدمه لنا بكفاءة تقى الدين المقريزى ليت مماليك مصر الجدد كانوا قد قرءوه فجنبوا مصر ما ألم بها فى نهاية القرن العشرين من فقر وفساد .

الأمير كفرى بردى زوج ابنته لناصر الدين محمد " وهو شاب ان بلغ الحلم أو لم يبلغ "

" ففخم أمره بمصاهرة الأمير ووجد بذلك أبوه سبيلا إلى تقديمه للتدريس مع صغر سنه وخلو وجهه من الشعر جملة " .

كذلك تم تعيينه أميرا للحج " مع صغر سنه ولعله لم يبلغ سبع عشرة سنة فسار بجاه أبيه وتمشت له الأحوال مع هرجه وسخفه " .

السلطان دار بينه وبين " شيخ " و " نوروز " والأمراء الذين استولوا على البلاد الشامية جولات عديدة من الشد والجذب جعلته يسافر إلى دمشق عدة مرات بما يلزم هذا من نفقات ومعاناة لشعب الشام وشعب مصر .. وكان يقبض على الأمراء ويسجن بعضهم ويقتل البعض ويعفو عن آخرين ويعود للقاهرة لينقلبوا عليه " فانه كان يسامح الواحد منهم المرة والمرتين والثلاث وهم يغدرونه ويخامروا عليه " فأدمن الخمر وكان يعطى الأوامر وهو سكران " بذبح جماعة من مماليك أبيه فصار يذبح المماليك بيده كالغنم " ... " ذبح السلطان عشرين مملوكا من مماليك أبيه ووسط خمسة عشر ثم ذبح فى تلك الليلة مائة مملوك من جنس الجراكسة وشق القاهرة بثياب جلوسه فكاد يسقط من ظهر فرسه من شدة السكر " ... " ذبح السلطان فى ليلة واحدة مائة وعشرين مملوكا

وصار الذبح كل ليلة عمال بحسب ما يختار من المماليك وكان يذبحهم فى الحوش ويرميهم من سور القلعة .. ."

فى آخر جولاته مع " شيخ " " كان الملك الناصر غارقا فى سكره فخرج من دمشق وهو سائق فأتعب العسكر من شدة السوق و انقطع منهم نحو النصف فما وصل إلى اللجون إلا بعد العصر وهو غارق فى السكر .. فلما رأوا الأمراء والعسكر هذه الأحوال الفاسدة تسحب من عنده جماعة من الأمراء والعسكر وتوجهوا إلى عند شيخ و نوروز .. حتى لم يبق مع الملك الناصر إلا القليل من العسكر وقد ظهر عليهم علامة الغلب " " فلما كانت ساعة الغروب هرب من كان بقى مع السلطان فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد ولى الملك الناصر هاربا وهو مكسور " .

فى دمشق " اجتمع الأمراء بدار السعادة وشرعوا فى كتابة محضر بأفعال الملك الناصر و أنه سفاك دماء , مدمن للخمر وقد وقع فى أشياء توجب الكفر فقامت عليه البينة فخلعوه من السلطنة " .

ثم قبض عليه وقتل وألقوه فى مزبلة خارج المدينة وهو عريان مكشوف الرأس وله من العمر أربع وعشرين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر ثلاث عشر سنة وثلاثة أشهر .

بعد وفاة الملك الناصر فرج انقرضت دولة الظاهر برقوق و اختلف المماليك فيمن يتسلطن فالأمير " شيخ " و الأمير " نوروز " كل منهما ادعى أنه الأحق بالسلطنة حتى " وقع الاتفاق أن يتسلطن الخليفة العباس فطلبوه و أحضروا له خاصة السلطان فامتنع عن ذلك غاية الامتناع ".

السلطان وافق فى النهاية بشروط " إذا خلعت من السلطنة تبقونى فى الخلافة على حالى الأول .. ولا يعزل أو يولى إلا باتفاق مع الأمراء فأجابوه " فنودى باسمه فى دمشق وتم " الدعاء للخليفة ابن عم سيد المرسلين " فى القاهرة باسم الخليفة المستعين بالله ابى الفضل العباسى . ثم قسمت السلطة بين الأميران " شيخ " و " نوروز " فنوروز يتصرف " فى أمور البلاد الشامية والحلبية والفرات والى غزة " .. والأمير " شيخ " " كان الخليفة لا يتصرف فى أمر من الأمور حتى يعرض عليه " .. بعد أن استقرت الأمور دعى الأتابكى " شيخ " إلى مجلس حضره القضاة الأربعة وقال " يا سادة القضاة ومشايخ الإسلام إن أموال الديار المصرية قد فسدت وتغيرت وعم الفساد برا وبحرا وزاد طغيان العربان فى البلاد ونهبوا الغلال و إن الأحوال مضطربة والوقت محتاج لإقامة سلطان من الأتراك له سطوة تقمع العربان وغيرهم وأن العسكر و أرباب الدولة وقع رأيهم على سلطنة الأتابكى شيخ .... "

الخليفة خلع نفسه من السلطنة " وبايع شيخ بالسلطنة و أشهد على نفسه بذلك " وكانت مدة سلطنته ستة أشهر و أيام وليس له من السلطنة إلا الاسم فقط

انتهت سنة 815 هـ - 1412 م

" الملك الثامن والعشرون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية والرابع من ملوك الجراكسة " هو الملك المؤيد شيخ ابن عبد الله المحمودى الظاهرى وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق اشتراه من الخواجا محمود شاه .... "

الأمير نوروز لما سمع عن تولى الملك المؤيد " أنكره واستمر يدعو للخليفة العباسى على منابر دمشق و أعمالها " ثم لماتحقق " أظهر العصيان ولم يدخل تحت طاعة شيخ " .

فى ذلك الوقت ادعى أحدهم " أنه السقيانى فأطاعه جماعة كثيرة من أهل دمشق وصار فى خدمته عربان وعشيرة " حتى أنه كان يكتب اسمه " السقيانى الملك الأعظم والتف عليه خمسمائة انسان " عندما نادى بأن " حكم الترك قد بطل " بعث له نوروز " من حاربه حتى ظفر به " فقتله وسجن زوجته التى " إدعت أنها حامل و أن الجنين يتكلم فى بطنها " .

السلطان بدأ توطيد ملكه بأن جمع طوائف اليهود والنصارى ... " ليؤخذ منهم الجزية على الوجه الشرعى " .. ثم قبض على جماعة من الأمراء وبعث بهم الى سجن الاسكندرية كذلك على ناظر القدس و أمراء طرابلس و آخرين كانوا من أصحاب نوروز وخلع الخليفة العباسى من الخلافة ثم أرسله الى السجن أيضا " بعد أن ولى أخاه داود خليفة " ثم " علق السلطان الجاليش وعرض العسكر وشرع فى التوجه الى الشام بسبب محاربة نوروز " و أطلق يد ابن أبى الفرج لجمع الأموال " فأظهر مظالم فى البلاد حتى شتت الفلاحين و أخرب غالب البلاد وجبى الأموال بالسيف وسار به الى السلطان " .

عندما وصل السلطان الى دمشق " بعث يسأل نوروز الصلح فأبى فوقع بينهما الحروب العظيمة التى يضرب بها المثل " فى النهاية لم يطق نوروز حصار الملك المؤيد لقلعة دمشق فاستسلم ليقتله صديق عمره ويرسل رأسه الى القاهرة فعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام .

بموت نوروز استقر الأمر للملك المؤيد شيخ فرتب الشام طبقا لتحالفاته الجديدة وقتل وسجن معظم مؤيدى نوروز ثم عاد الى القاهرة أقوى مما كان " فبدأ بالجلوس فى الاصطبل يوم السبت والثلاث ويكره يوم الجمعة للحكومات بين الناس وكان يسمع الدعوى بين الأخصام بنفسه مثل القضاة .

الملك المؤيد بعد أن ملك مصر والشام سار فى نفس الدرب الذى سار فيه من سبقه من الملوك العبيد فهو قد صفى منافسيه من الأمراء بحيث راح ضحيته طوغان ودمرداش وسودون و أسنبغا " خنقوا هؤلاء الأمراء فى ليلة واحدة فى السجن " وكانوا من خيار الأمراء .

ثم هدم " خزانة شمايل " وكان السجن الذى دخله وهو فى القاهرة من قبل فنذر أن يهدمه ان تسلطن ثم بنى مكانه جامع " حصل للناس بسببه غاية الضرر لأجل الرخام وصار المؤيد يكبس الحارات التى بها بيوت المباشرين و أعيان الناس بسبب الرخام وكان والى القاهرة يهجم على الناس فى بيوتها ومعه المرخمين فيقلع رخام الناس طوعا أو كرها و أخرب دور كثيرة ... " ثم بنى بدلا من " خزانة شمايل " سجن آخر عرف بعد ذلك " بالمقشرة ".

نواب الشام فانى باى نائب الشام وسودون طرابلس وطرباى غزة و اينال حلب أعلنوا العصيان على المؤيد فخرج عليهم بحملة جديدة وعندما قبض عليهم هم وغيرهم من " أكابر الأمراء " " ذبحوا بين يدى المؤيد فى ساعة واحدة ثم أن المؤيد أمر بذبح ابن اينال على صدر أبيه " . وعاد الى القاهرة .

الطاعون أيضا ساعد المؤيد فقد ساهم فى وفاة " عشرين ألف انسان " والفرنج هجموا " على ثغر الاسكندرية ورحل غالب أهلها خوفا على أنفسهم و أسر جماعة من المسلمين وكانت كائنة عظيمة " .

وانتشرت الخرافات " ظهر شخص أعجمى يدعى أنه يصعد الى السماء ويكلم البارى جل وعز فى كل يوم مرة و أنه صرفه فى الكون فاعتقدته جماعة كثيرة من أهل مصر فلما شاع أمره رسم السلطان أن يعقد له مجلس ... " فشهد جماعة من الأطباء أن فى عقله خلل " .

واستمر المماليك فى نهب أهل مصر " فان فخر الدين الاستادار قد سرح الى الوجه القبلى فاحتاط على أموال الناس ومشايخ العربان فأخذ من الأبقار ستة آلاف ومن الأغنام ثمانية آلاف ومن الجمال ألف جمل ومن قطر السكر ألف قنطار ومن الرقيق ألف رأس .... "

والنيل " توقف عن الزيادة وتقلق الناس لذلك و ارتفع سعر القمح بعدما كان قد انحط ..... "

هذا هو السلطان المملوكى النموذجى الذى سنجده ابتدأ من ابن طولون حتى قايتباى .

لم تكن حياة هؤلاء المماليك كلها حروب وخيانة وسجن وتعذيب فقط فقد كانوا يعرفون أيضا اللهو والصخب فالملك المؤيد كما يصفه ابن اياس " كان عنده رقة حاشية ويحب الخلاعة والمجون ويحتمل الدقة اذا جاءت عليه فى مجالس الشراب ولا يغتاظ من ذلك " ... أما المقريزى فقد كتب عنه " يتجاهر بالمعاصى و أكل الحشيش المستقطر وكان كثير المصادرات لأرباب الدولة ومحبا لجمع المال "

ومما يذكر عنه أنه بعد " استكمال جامع المؤيدى " أقام احتفالا و " أمر السلطان بأن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا فملئت ووقف رؤوس النواب يفرقوا السكر على الناس بالطاسات ... وكان يوما مشهودا " .

" ورجع السلطان من وسيم وهو فى المركب الذهبية وتوجه الى بولاق ونزل بقصر كاتب السر و أمر بوقده هائلة ببر انبابه وحرق نفط عظيم و أمر العوام بوقد قشر بيض ومسارج ويلقونها فى البحر ففعلوا من ذلك أشياء كثيرة فكانت ليلة لم يسمع بمثلها قط من القصف والفرحة و انسد البحر بالمراكب من المتفرجين وخرجوا فى التهتك عن الحد " .

" ثم خرج من عنده وتوجه الى بيت جقمق الدوادار على بركة الفيل فأقام عنده الى آخر النهار وحضر عنده المغانى و أرباب الآلات وانشرح فى ذلك اليوم جدا "

" وولد للسلطان ولد ذكر سماه سيدى موسى فدقت له الكوسات فى القلعة ثلاثة أيام وعمل السلطان عقيقة بلغ المصروف عليها خمسة عشر ألف دينار "

" ثم عام فى البحر وحوله جماعة من خواصه و استمر عائما من بيت البارزى الى منية السيرج " فقد كان السلطان " يحب التنزه والمفترجات لا يقيم بالقلعة الا قليلا وغالب أيامه فى بيت البارزى

الذى فى بولاق ويعمل المواكب هناك وكان يميل الى شرب الراح واستعمال الأشياء المخدرة وكان يغنى فن الموسيقا وينظم الشعر ويركز الفن " .

الترك والتتار بدأوا القتال " قرا يوسف التركى زحف على قرايلك بن تيمور لنك ... ففر منه قرايلك " ... " أهل حلب أخلوا منها خوفا من قرا يوسف وقد ذكروا عنه أشياء فاحشة من قلة الدين فلما تحقق الملك المؤيد ذلك تكدر عيشه بعد الصفاء ونقص سروره بعد وفاء ... " ولكن عندما وصل قرا يوسف الى حلب حاربه واليها و منعه عن المدينة فتنفس السلطان المؤيد الصعداء وعاد الى ما كان عليه من حبر ولهو ... كاتب السر ابن البارزى أخبر السلطان أن ابنه قد " عظم فى أعين الأمراء و اختاروا سلطنته دون أبيه ... " فتسبب السلطان فى وفاة ابنه بالسم " فلم ينجح أمر المؤيد بعد موت ولده وتكدر عليه العيش " ثم مرض ومات بعد ابنه بسبعة أشهر و أيام وكان عمره " نحو خمسة وستين سنة " بعد أن تسلطن " ثمان سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام " وترك خلفه فى الخزانة من المال ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار من الذهب العين " .

السلطان عندما شعر بمرض الموت أحضر الخليفة والقضاة الأربعة وعهد بالملك من بعده لولده أحمد الرضيع وجعل الأتابكى الطنبغا القرمشى مديرا للمملكة " .

الملك المظفر أبو السعادات أحمد ابن الملك المؤيد شيخ هو " التاسع والعشرون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو الخامس من ملوك الجراكسة " .

تولى الملك وهو فى المهد طبقا لوصية والده " وبايعه الخليفة و أشرط على الأمير ططر أن يكون هو القائم بأمور المسلمين الى أن يحضر الأتابكى الطنبغا القرمشى وكان غائبا فى التجريده نحو البلاد الشامية " .

الطنبغا القرشى لما علم بذلك " خرج عن الطاعة و أظهر العصيان " والتف على جقمق نائب الشام فخرج اليه نظام الملك ططر ومعه الملك المظفر " فانكسر نائب الشام وهرب وقبض ططر على الطنبغا القرمشى و آخرين قيدهم وسجنهم بسجن القلعة بدمشق " عندما ظفر بعد ذلك بنائب الشام الهارب جقمق " قتله وقتل معه عدة أمراء ونواب " وشعر بأنه قد استطاع السيطرة على مصر والشام فخلع السلطان الطفل بعد سبعة أشهر وواحد وعشرين يوما من سلطنته وحل محله .

الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد ططر الظاهرى الجركسى " هو الثلاثون من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد " بدأ ولايته بأن " أظهر أنه مريض فطلع الى قلعة الشام فلما بلغ الأمراء ذلك طلعوا يسلموا عليه فصار كل من طلع اليه من الأمراء يقبض عليه فقبض فى يوم واحد على واحد وأربعين أميرا .... وعلى نحو ثلاثمائة مملوك من مماليك المؤيدية وحبس الجميع بقلعة دمشق " .

ططر هذا " كان من مماليك الظاهر برقوق ومن مشترواته ثم أعتقه " بعد ذلك هرب من ابنه الناصر فرج وتوجه الى جكم العوضى لما تسلطن بحلب فلما قتل جكم التف على شيخ ونوروز فى عهد المؤيد شيخ تدرج من الوظائف حتى أصبح نظام ملك الملك المظفر الطفل ثم خلعه ليحل محله .

الظاهر ططر أنعم كالعادة على المماليك و الأمراء ومنهم الأمير برسباى الدقماقى دوادار كبير " وكان برسباى هذا من أعز أصحاب ططر حتى كان ما يخاطبه إلا بقوله " يا أخى " .

الظاهر ططر عندما عاد الى القاهرة كان " متمرضا فى ذاته وظهر عليه الضعف فلما أقام بالقلعة أياما عرض مماليك المؤيد ورسم لجماعة منهم أن ينزلوا من الطباق ويسكنوا المدينة ثم ثقل فى المرض ولزم الفراش وامتنع عن حضور الموكب وتزايدت الأقوال بأنه مسموم وأن زوجته خوند سعادات قد سمته فى منديل الفراش".

" خوند سعادات هذه كانت زوجة الملك المؤيد شيخ و أم الملك الظافر أحمد فتزوج منها ططر وخرجت مع ابنها الى الشام فلما خلع ابنها من السلطنة وتولى عنه قيل أنها سمته ".

" لما اشتد به المرض أرسل خلف الخليفة والقضاة الأربعة وعهد الى ولده محمد وحلف له الأمراء والعسكر وجعل جانى بك الصوفى وبرسباى الدقماقى مديرين مملكته بعده " ثم مات وله من العمر خمس وخمسين سنة " وكانت سلطنته بالشام ومصر أربعة وتسعين يوما ومات بغتة " .

" الملك الصالح ناصر الدين محمد أبى السعادات ابن الملك الظاهر ططر هو الحادى والثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بمصر وهو السابع من ملوك الجراكسة و أولادهم " . وكان " له من العمر إحدى عشر سنة " عندما تسلطن .

بدأت ولايته بصراع بين مدبرى مملكته جانى بك الصوفى الذى قدر فى الأتابكية والأمير برسباى الذى قبض على جانى وأمير آخر يسمى يشبك " فقيدا و أرسلا الى السجن بثغر السكندرية " " وانفرد الأمير برسباى بتدبير المملكة بمفرده وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام " .

بعد ثلاثة أشهر و أيام " خلع الخليفة الملك الصالح ناصر بن ططر من السلطنة " وبويع الأشرف برسباى فكأن ما فعله ططر فى ابن المؤيد شيخ فعله برسباى فى ابن ططر كما لو كان هذا هو قانون المماليك الدائم .

الملك الأشرف سيف الدين أبى النصر برسباى الدقماقى الظاهرى هو" الثانى والثلاثون من ملوك الترك .. والثامن من ملوك الجراكسة " .. كان فى الأصل عبد جركسى جلبه بعض التجار الى حلب " فاشتراه الأمير دقماق المحمدى نائب ملطية وقدمه الى الظاهر برقوق " انتهى الأمر بالأشرف برسباى الى السجن بقلعة دمشق " فلما توجه ططر الى الشام أفرج عن برسباى وجعله دودار كبير ... " وعندما شعر السلطان ططر بوفاته أوصى أن يكون برسباى " نظام ملك " ابنه " الملك الصالح " الذى تولى طفلا .. برسباى حفظا لجميل ططر سرعان ما خلع ابنه وتولى هو بدلا منه وان لم يسجنه كعادة المماليك .

السلطان الجديد بعد أن تولى سار على درب من سبقه فأنعم وسجن واغتال وقتل.. ونقل " ونادى بأن أحدا من الأمراء و أرباب الدولة لا يباشر من اليهود أو النصارى ولا فى ديوان السلطان فحصل لهم غاية الاضطراب " .. كذلك " نادى بمنع النساء من الخروج الى الترب فى يوم العيد ... " و أعاد " المكوس التى كان المؤيد أبطلها فى القاهرة وكان القائم على إعادتها الوزير ابن كاتب المناخات لا جزاه الله خيرا " وعندما " وصل شاه الأرستردار من بلاد الصعيد وقد جار على الفلاحين و أخذ أموالهم وغلالهم و أخرب الوجه القبلى من الظلم والجور " أنعم عليه السلطان . وعندما خرج " تانى بك نائب الشام عن الطاعة " أرسل له سودون عبد الرحمن " فوقع بينه وبين تانى بك وقعة مهولة عند باب الجابية فكبى الفرس بتانى بك فقبضوا عليه قبضا باليد ..... " " ثم جاءت الأخبار بقتل جانى بك فدقت البشائر بالقلعة ثلاثة أيام " .

كذلك هو جهز تجريده " عينت الى مكة المشرفة بسبب فساد العربان وعصيان أمير النيبع " .

و إن كان بخيلا الى حد ما حتى أنه " فرق الأضحية على المماليك كل واحد منهم دينارين فلم يرضيهم ذلك فلما كان فى يوم الأضحية رجموا السلطان بالحجارة من الطباق فدخل السلطان الى دور الحريم وهو مرجوف فلما ولى نزل المماليك من الطباق ونهبوا الأضحية عن آخرها وكثر القيل والقال بين الناس ".

الجديد بالنسبة لسلطاننا أن " متملك الإفرنج صاحب قبرص تحرك وصار يتعبث فى السواحل على المسافرين والتجار فضج الناس منه وشكوا الى السلطان "

ثم أن " الفرنج زاد أذاهم وصاروا يقطعون الطريق على المسافرين فتشوش السلطان من ذلك " وشرع " فى عمل مراكب حربية ليغزو بلاد الفرنج "

عندما اكتمل صنع " الأغربة التى عمرها السلطان فى بولاق وكانوا نحوا من مائة غراب وزينوا بالسناجق والطوارق وصير فيهم الطبول " ... " عين تجريده فخرج الى الغزاة فى سبيل الله " ... و " ملكوا جزيرة قبرص ونهبوا ما فيها وأحرقوا أشجارها وقتل من الفرنج نحو من خمسة آلاف إنسان و أسر الباقون " .. عدد الأسرى " كان نحو من ألف وستين أسيرا معهم سبعين جملا عليها الغنائم التى غنموها من قبرص .." فأمر السلطان ببيع الأسرى " و أن لا يفرق الابن عن أبيه " .. " ثم أن السلطان نفق على العسكر لكل نفر سبعة دنانير أو خمسة دنانير " .. ألم أقل لكم أنه كان بخيلا. المهم أن هذه الغزوة " جرت السلطان " الى غزوة تالية فتح فيها قبرص و أسر ملكها

من إبداعات السلطان أيضا أنه جعل فى ميناء جدة أميرا مهمته أخذ العشور خصوصا من " مراكب الهند القادمة من عدن الى جدة " " فبلغ ما يحمل من جدة من المال نحوا من سبعين ألف دينار تؤخذ من العشور على أصناف المتاجر " ... تزايد هذا بشكل غير طبيعى بعد ذلك الزمن حتى كان السبب الأساسى فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

أمير جدة هذا ابتدع " مظلمة على الحجاج " وهو أنه خرج بأعوانه " الى بركة الحاج وصار يأخذ على الهدية التى جاءت صحبة الحاج مكسا وصار يفتش محاير النساء و يأخذ ما معهم من الهدية يعوقها حتى يأخذ المكس عنها فكان يأخذ على القطع الواحد عشرة دراهم من الفلوس وكذلك بقية أصناف الهدية " ... " وصار يحمل من جدة الأموال الجزيلة الى السلطان بمصر "

فى مقابل ذلك طلب السلطان من القضاة الأربعة " أن يلزموا العامة والسوقة بالصلاة " فأشمروا المناداة للناس بأن السلطان أمر العامة بأن يلازموا الصلاة فى أوقاتها ولا يتكاسلوا عن ذلك " . كذلك هو أبطل " التعامل بالذهب الذى فيه الشخوص من ضرب الإفرنج وضرب السلطان معاملة جديدة "

ومع ذلك فقد " وقع الغلاء بالديار المصرية وعز وجود القمح ... وضج الناس من ذلك" " واستمر الحال متزايدا فى كل يوم و افتقر أكثر الأغنياء من الناس من أرباب العيال " " ونودى فى القاهرة بقطع ما ارتفع من الطرقات من الأراضى فشرع الناس فى أسباب ذلك وحصل لهم الضرر الشامل من شيل التراب "

فى مواجهة هذا الغلاء وتذمر الناس " شرع السلطان فى تجهيز عسكر الى قبرص وهى التجريده الثانية "

" وشرعوا فى الخروج الى الغزاة فى سبيل الله تعالى ... وكان عدة المراكب زيادة عن مائة مركب ... وكان قد بلغ السلطان أن جينوس صاحب قبرص بعث الى ملوك الإفرنج يستنجدهم ويشكو إليهم ما جرى عليه من سلطان مصر فطلب منهم نجدة "

" لما سافروا جاءت الأخبار بأن أربعة من المراكب قد انكسرت وغرق من كان بها فتنكد السلطان لذلك " ولكن " جاءت الأخبار بأن الأمراء لما وصلوا الى قبرص بعثوا الى صاحب قبرص مطالعة على يد قاض بأن يدخل تحت طاعة السلطان فلما وصل إليه القاضى بهذه الرسالة أمر بحرقه بالنار فلما بلغ الأمراء ذلك تهيئوا للقتال وباعوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله " .

" العسكر انتصر على الإفرنج و أخذوا جزيرة قبرص من يد الإفرنج وكانت هذه النصرة على غير قياس فان عسكر الإسلام كانوا فئة قليلة وصاحب قبرص جاءت نجدة كبيرة من ملوك الإفرنج الذين حوله " . ثم أن التجريده عادت الى مصر " فكان لهم يوم مشهود ودخل صاحب قبرص هو وولده وابن أخى ملك الكيتلان..... وهم فى قيود على بغال عرج وبقية الأسرى فى جنازير وكانت الأسرى نحوا من ألف وخمسمائة إنسان ودخل صحبتهم الغنائم وسناجق صاحب قبرص منكسة على رأسه"

" السلطان رسم بسجن صاحب قبرص وولده ومن معه من أعيان الإفرنج واستمر فى السجن حتى اشترى نفسه من السلطان بمائتى ألف دينار و أن يكون نائبا للسلطان فى قبرص ويحمل له فى كل سنة عشرين ألف دينار ومن الصوف ألفين ثوب وغير ذلك من الجوخ و أنواع الهدية الفاخرة .... " ثم أن السلطان بعد ذلك " باع جماعة كثيرة ممن أسر من الإفرنج من رجال ونساء وغير ذلك من القماش..... وكان من جملة الأسرى الذين ابتاعوا الأمير يرد بك الذى صار دوادار ثانى ... وجماعة كثيرة صاروا أمراء وخاصكية " .

غزوة قبرص هذه نموذجا لما كان عليه حكم المماليك .. و أصبحت دستورا لكل من تلاهم من مماليك قدامى ومحدثين .. فعند حدوث مشاكل داخلية حاول الأشرف برسباى لفت الأنظار بالانتصار فى الخارج وحول الغزو الى جهاد فى سبيل الله رغم أن هدفه النهائى كان السرقة والنهب ثم الجزية و أن الغزو تم بطريقة القرصنة أو الهجوم الخاطف من فئة قليلة (عصابة) على جماعة مستقرة فتأسر رجال ونساء لا دخل لهم بالحرب ثم يباعون فى الأسواق مثل " القماش " ليرتفع قدر البعض منهم فيصل الى مرتبة الحكام ويصاهر أحدهم ملكا ستأتى سيرته ويصبح " صاحب العقد والحل فى دولته " .

ومع ذلك

" فعجلان بن نصير " عندما عزله السلطان من إمارة المدينة المنورة وولى بدلا منه خشرم " فنهب عجلان المدينة الشريفة وأخرب سورها و أخذ ودائع الحجاج الذين بها ووقع منه أمور شنيعة بالمدينة الشريفة " كذلك " أزد مر شاه أحد المقدمين نفى الى حلب وكان غير مشكور السيرة " وقشتمر المؤيدى نائب الإسكندرية كان غير مشكور سيرته " و " على بك بن خليل كان من المفسدين فى الأرض " أما القاضى عبد الباسط فله قصة أخرى لقد طلع " يتقدمه حافلة للسلطان تقومت بعشرين ألف دينار و أرسل أضعاف ذلك الى الأمراء فعظم أمره فى تلك الأيام جدا وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية حتى أطلق عليه عظيم الدولة وصار السعى فى بابه فى جميع أشغال الناس وكان قد نال من تقربه الى الأشرف برسباى ما ناله جعفر البرمكى من

هارون الرشيد وكان الأشرف برسباى منقادا مع الزينى عبد الباسط كما ينقاد الطفل الى أبيه وهذا أمر مشهور بين الناس " .

فى ذلك الزمن " كان بداية بيع الفلفل على تجار الإفرنج بالإسكندرية " والحرب فى الأندلس بحيث تم " وقوع فتنه عظيمة بين صاحب غرناطة وبين صاحب الأندلس واشتدت بينهما الحروب حتى آل الأمر الى خراب غالب بلاد الغرب وتلاشى أمر غرناطة من يومئذ " عام 380 هـ - 1427 م .

التركمان وقع بينهم أيضا فتنة عظيمة " فعين لهم السلطان تجريده "

وصاحب رودس أرسل قاصده " يطلب من السلطان الأمان وقد بلغه أن السلطان قصد يغزوه فبعث للسلطان هدية حافلة قومت بستمائة دينار " .

وعندما لم يوفى النيل " فرسم السلطان للقضاة الأربعة ومشايخ العلم أن يتوجهوا الى المقياس و يقرئوا سورة الأنعام أربعين مرة ويدعوا الى الله تعالى بالزيادة فلما فعلوا ذلك نقص النيل ... فشرقت البلاد ووقع الغلاء بالديار المصرية " .

السلطان أيضا " أرسل مراسيم الى مكة المشرفة بمنع تحويل المنبر من مكانه فى يوم الجمعة الى أن يلصق بجوار الكعبة المشرفة ويترك مكانه ويخطب عليه ..."

" و أمر بأن لا أحد من الناس يزرع قصب السكر إلا السلطان نفسه فتضرر الناس من ذلك " " وشدد فى إراقة الخمور و إحراق الحشيش وحجر على ذلك جدا " .

وسَم الأمير جانى بك الداوادار الثانى (مملوك السلطان الذى انتهت اليه الرياسة فى دولة أستاذه) " لما ثقل عليه أمره " ثم " مشى فى جنازته " .

ولقد عانى الأشرف برسباى من المماليك أشد المعاناة فهو " قد أرسم بنفى العبيد الكبار الى بلاد ابن عثمان وكان قد تزايد منهم الفساد جدا " كذلك " أمر السلطان بمنع الناس من الأعراس والزفف خوفا على الناس من فساد مماليكه فان فى تلك الأيام تزايد شرهم وحصل منهم غاية الضرر فخشى السلطان من هجم جماعة من المماليك على النساء فأمر بإبطال الأفراح مطلقا " ..

كما " جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة فى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فقتل من بنى حسن ما لا يحصى " ... " وفتنة عظيمة فى تبريز وخرب غالبها .... وحصل على أهلها من الشدة ما لا خير فيه ".

ثم تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وعظم جدا وصار من الطواعين المشهورة حتى سمى بعد ذلك بالفصل الكبير وكان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين فقد وقع وسط قلب الشتاء " بدلا من أوائل فصل الربيع " فلما تزايد أمر الطاعون نادى السلطان فى القاهرة بأن الناس يتقوا الله تعالى ويصوموا ثلاثة أيام متوالية .. فلما تزايد الأمر خرج قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى وبقية القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الصوفية وتوجهوا الى خلف تربة الظاهر برقوق فجلس علم الدين هناك على كرسى وعمل الميعاد ووعظ الناس وكثر البكاء والضجيج والتضرع الى الله تعالى ثم انفض هذا الجمع ثم تزايد أمر الطاعون وعمل فى الأطفال والمماليك وكثر فى العبيد والجوارى جدا وتزايدت الأخبار بأن وجد فى البرارى و الأودية الوحوش مطروحة وهى ميتة وتحت إبطها الطواعين وشاهدوا الأطباء الأطيار تقع فى الجو وهى ميتة وشاهدوا الأسماك والتماسيح تطف على وجه الماء وهى ميتة وهى كالدم من شدة حمرتها .

وصار يموت من المماليك الذين بالأطباق كل يوم نحو من خمسمائة مملوك ثم تزايد عمله فى الغرباء حتى صار يحفر لهم حفرة كبيرة ويلقوا فيها عدة من الأموات وقل وجود الحمالين للموتى والغسالين والحفارين للقبور وصار الناس يموتون فى الطرقات حتى يأكلونهم الكلاب ما يجدوا من يواليهم التراب ... وكانت الأموات تبدل فى النعوش عند المصلاه فيصير العبد عوض السيد ... حتى انتهى عدة من يموت فى كل يوم نحو من أربعة وعشرين ألف إنسان .

بكلمات أخرى واجه الأشرف برسباى نفس الصعاب التى واجهها من سبقه من ملوك المماليك .. فقد حاولوا اغتياله وقامت ضده فتن ونكبت البلاد بالطواعين والغلاء وهبوط النيل وما تبع هذا من مجاعات ولكن ورغم كل هذا " كانت مصر هادئة فى أيامه وقلت الحروب التى كانت قائمة فى الدول الماضية " وذلك بفضل أنه كان " سديد الرأى عارف بأحوال المملكة كفوا للسلطة وكان عليه سكينة ووقار مع لين جانب " . وهو " كان قليل العزل لأرباب الوظائف ولا يسمع المرافعات عن أحد إلا عن يقين ". وهو " محبا لجمع المال وكان يتجر فى الغلال حتى فى التبن والسكر واللحم وغير ذلك من الأصناف حتى أصناف الخضر وما أشبه ذلك وما شاكله " .

ولكن فى آخر أيامه عندما اشتد عليه المرض " اعتراه ما خوليا " كما يقول ابن إياس بمعنى ملانخوليا فأمر بنفى الكلاب الى بر الجيزة فمسكوا من ثلاثة آلاف كلب فنفوهم الى بر الجيزة وهم فى حيال " " وأمر بان لا تخرج امرأة خلف جنازة مطلقا ثم نادى لا فلاحا ولا عبدا يلبس زنطا أحمر واستمر فى هذا ".

فى شوال من عام 841 " تزايد المرض على السلطان واجتمع عنده الأطباء فترجح أمره قليلا وخرج الى المركب غصبا و أخلع على الأطباء .. كل هذا فى البطال والموت حائط به فانتكس وعجز عن القيام فتوهم أن الأطباء يقصرون فى طبه ... فأمر السلطان أن يوسط (طبيبيه) الريس شمس الدين ابن العقيف الأسلمى والريس زين الدين خضر الاسرائيلى فوسطا وحملا الى دورهما ليدفنا " .

يعلق ابن إياس على هذا قائلا " وكانت هذه الفعلة من أقبح فعال الأشرف برسباى وختم عمره بقتل مسلمين من غير ذنب فكثر عليه الدعاء وتمنى كل أحد زواله ...".

ثم مات وله من العمر " خمس وسبعون سنة وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ستة عشر سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ".

بعد أن أوصى بالخلافة لابنه ولهذا قصة أخرى.

" عندما تجدد على السلطان أمر الاسهال وامتنع عن الدخول عليه فعند ذلك تكلم معه عظيم الدولة القاضى عبد الباسط والأمير جوهر اللالا فقالا له : ان الأحوال قد فسدت وافتتن العربان بالبحيرة والصعيد وكثر القيل والقال بين الناس من الرأى أن تسلطن سيدى يوسف فتعهد له بالسلطنة من بعدك .

فقال : احضروا الخليفة والقضاة الأربعة .

فلما تكامل المجلس طلب الأتابكى جقمق العلاى وسائر الأمراء وعهد الى ولده المقر الجمالى يوسف بالسلطنة من بعده فكتب العهد وقرئ على السلطان فأشهد نفسه و أمضى . . "

" ثم أخلع على الأتايكى جقمق وجعله نظام الملك ووصيا على ولده من بعده بأنه هو المتصرف فى أمر المملكة و لايقضى أمرا دونه " .

بعده توفى الأشرف برسباى وخلفه كما أوصى ابنه الملك العزيز أبى المحاسن جمال الدين يوسف وكان عمره حينئذ 14 سنة .

وكما هى العادة أطاح نظام الملك بالملك الطفل ولم يراعى ما أوصى به الملك المتوفى ... فى هذه المرة لم يدم حكم الملك الطفل أكثر من ثلاثة أشهر اتسمت بالصراع بين المماليك الذين انقسموا الى أربع فرق " دبت بينهم عقارب الفتن " وانتهت بانتصار جقمق على أهم منافسيه مماليك الأشرفية وخلع الملك العزيز و إعادته الى الحرملك لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل حكم المماليك الجراكسة .

الملك الظاهر سيف أبى سعيد محمد جقمق العلاى الظاهرى

" وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو العاشر من ملوك الجراكسة و أولادهم فى العدد ... "

" وكان أصل الظاهر جقمق جركسى الجنس جلبه الخواجا كزل فاشتراه منه العلاى على بن الأتابكى اينال اليوسفى وقدمه الى الملك الظاهر برقوق " .

لم يمر خلع الملك الصغير وتولى الظاهر جقمق هكذا بسهولة فلقد قاتله المماليك بقيادة قرقماش " و استمر الحرب سائرا من أول النهار الى قريب العصر .. وكانت النصرة للظاهر جقمق .. " و أعدم قرقماش بالسيف .

" وقد اضطربت الأحوال على الملك الظاهر فى أوائل سلطنته من كل جانب " .

" تغري يرمش نائب حلب ملك قلعتها "

و " اينال الجكمى نائب الشام خرج عن الطاعة وتوجه الى القاهرة ليحارب السلطان و جمع من العربان والعشير الجم الغفير " .

و " جماعة من الإفرنج الكيتلان جاءوا نحو سواحل الشام "

و " عرب الهوارة " تحركوا فى الصعيد .

و " وهرب السلطان " الطفل من الحرملك بمساعدة مماليك أبيه

ولــكن

" كان الظاهر جقمق يكره جماعة الأشرف برسباى قاطبة وقتل غالب مماليكه وصادر أعيان دولته و أخرب دور أناس كثيرة من حاشيته ونفى غالب مماليكه الى الواح (الواحات) وغيرها من البلاد وقد بلغ الظاهر جقمق قصده من جماعة الأشرفية ووقع له أمور غريبة لم تقع لأحد قبله من الملوك وظفر بأعدائه شيئا بعد شيء فى مدة يسيره دون السنة " .

حـــــتى

السلطان الطفل قبض عليه و أرسل الى الإسكندرية مع بعض الجوارى والطواشية ورتب له ما يكفيه معاش " بثغر الإسكندرية الى أن مات فى سنة خمس وستون وثمانمائة " أى عن عمر حوالى 31 سنة .

عندما استقر الأمر بالسلطان بدأ فى محاولة التوسع بغزو رودس مرتين فشل فيهما فى تحقيق أى انتصار و " هدم بعض كنائس اليهود والنصارى و أبطل منها عدة كنائس وصير بعضا منها مساجد ووقع بسبب ذلك أمور يطول شرحها " .

وكان إذا لم يعجبه حكم قاضى " ضربه ضربا مبرحا وكشف رأسه " وعندما سرق المماليك والعوام " قاصد من عند شاه روخ بين تيمور لنك " " قطع جوامك الكثير من المماليك وضرب من العوام جماعة بالمقارع ... ولولا أنه كان دينا لرسم بقتل سائر العوام ولكن دينه رده عن ذلك " .

وثار العبيد السود فى عهده " عدوا الى بر الجيزة و أقاموا به ونصبوا هناك خيمة وعلقوا عليها سنجق وجعلوا لهم سلطانا ووزيرا ..... ". " وصاروا العبيد يقطعون الطريق على الناس وينهبوا المغل ويأخذوا خراج المقطعين وضيافتهم " .

فعين لهم السلطان تجريده توجهت إليهم فى المراكب وتقاتلوا معهم " فكسروا سلطانهم وشتتوهم وسجنوا جماعة منهم وهرب الباقون " .

أما العربان فلقد قاتلوا بعضهم بعض بنى خزام ضد بنى العابد عندما تدخل طوخ الأبو بكرى بينهم بعسكره قالوا له " لا تدخل بيننا " فلما لم ينتهى وظل يحاربهم " قتل أشر قتلة " .

فى الصعيد تقاتل عرب هوارة مع محمد بن عمر أخو إسماعيل فكان له الغلبة " وقتل من عرب هوارة نحو من خمسمائة إنسان وكانت فتنة عظيمة " ولقد أرسل السلطان تجريده الى بلاد الصعيد بسبب فساد عربان هوارة .

سجناء " سجن المقشرة قتلوا من كان على الباب من السجانين وخرج الكل الى حال سبيلهم وقت الظهر ... "

ورغم هذا فان ابن إياس كتب عن السلطان " كانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد وكان عفيفا عن الزنا واللواط وكان كثير النكاح وعنده عدة سرارى وكان فصيح اللسان بالعربية متفقها وله فى الفقه مسائل عويصة ... " .

هذا السلطان عندما يشتكى له أحدهم فقد كانت القاعدة لديه " الدعوى لمن سبق لا لمن صدق " !!

وهو قد أمر بهدم الكنيسة التى بقصر الشمع بمصر العتيقة .. " ونقل جميع أنقاضها وأخشابها الى المسجد المجاور لها فعمر بتلك الأنقاض "

كذلك سجن بطرك النصارى اليعاقبة وعزله بسبب ملوك الحبشة و أمره " أنه لا يولى أحد منهم إلا بإذن السلطان ".

كذلك منع اليهود والنصارى من طب المسلمين .

" ورسم السلطان لأهل الذمة بأن لا يلبسوا العمائم الكبار و أن لا يزيد الواحد على سبعة أذرع " .

صادر أماء النصارى فقد بلغه أنهم " يشترون الإماء المسلمات فيستخدمونهم " فى عهده أيضا " ثار جماعة من العوام على المحتسب ورجموه و أنزلوه عن فرسه و أخذوا عمامته من على رأسه و أخذوا خواتمه .... فلما بلغ السلطان ذلك " أمر بأن يقبض على جماعة من الزعر والعبيد ويقطع أيديهم "

عندما ثار المماليك ورجموا الأمراء عند نزولهم من القلعة " قبض على عشرة من المماليك الذين كانوا سببا فى الفتنة ... حتى أطلقوا بعد أيام " أما الجنود عندما ثاروا " وامتنعوا من أخذ الكسوة وكان يومئذ ألف درهم ... رسم بأن يكونوا أربعة أشرفية فطاب خاطرهم " .

الفرنج " كثر أذاهم وفسادهم بالسواحل " فأرسل من يحفظ ثغر رشيد من " طروق الإفرنج " .

وهو قد أمر " بتحريق شخوص خيال الظل والزعطوطا (العرائس) وأبطل نوبة خاتون التى تدور بعد العشاء بالقلعة " (الترفيه)

وفى زمنه زادت الطواعين والأوبئة بحيث " كثر الموت فى القاهرة بأمراض حادة " وانخفض النيل لسنتين وعم الغلاء لمدة أربع سنين .

ثم مات وعمره 81 سنة بعد أن أوصى لابنه فى حياته وحكم مصر لمدة 14 سنة .

الملك المنصور أبى السعادات فخر الدين عثمان بن الملك الظاهر جقمق

تولى وكان عمره " تسع عشرة سنة و أمه رومية " " وكان الملك الظاهر لما عهد لولده لم يجعل له وصيا ولا نظاما فى المملكة من بعده " بعد أن تكرر اقصاء الملوك القصَر واحتلال أماكنهم بواسطة الأوصياء وفهم جقمق نفسه .

ومع ذلك لم يمنع هذا أن يحدث انقلابا عسكريا " فيه وثب العسكرى على الملك المنصور وحاصروه وهو فى القلعة وقد اتفق عسكر الأشرفية مع عسكر المؤيد والتف عليهم جماعة كثيرة من المماليك السيفية " فعزلوا المنصور ونهبوا بدلا منه الأتابكى اينال الأجرود فلم يحكم المنصور الا ثلاثة و أربعين يوما .

سلطنة الملك الأشرف أبى النصر سيف الدين اينال العلاى

السلطان السادس والثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية والثانى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بويع بالسلطنة بعد خلع الملك المنصور بن الظاهر جقمق سنة 857 هـ .

والملك اينال جركس الجنس الذى جلبه الخواجا علاء الدين على فاشتراه الملك الظاهر برقوق و أعتقه ابنه الناصر فرج وسافر مع الأشرف برسباى فجعله نائب الرها ثم أعاده إلى القاهرة و أنعم عليه بالإضافة إلى نيابة الرها بأن يكون تقدمه ألف وصار يتقدم فى المناصب حتى صار فى زمن الظاهر جقمق أتابكى سنة 849 هـ ثم نصبه العسكر سلطانا وتلقب بالملك الأشرف فأنعم على من نصبوه ووزع بينهم المناصب ثم سجن الملك المنصور فى الإسكندرية هو ومن ناصره من الأمراء .. كما أنه صادر أموالهم " وعلى ذلك الخزائن مشحونة من المال وهذا القدر ما تحصل إلا من المصادرات " فوزع منها على الجنود والضباط (الأمراء) الذين لم يكن لهم عملا الا التآمر وصراع كل منهم للآخر للاستيلاء على أمواله كما حدث بين سونجينا اليونس وتغرى بردى القلاوى اللذان تقاتلا وهما على ظهور الخيل " فقتل كل منهما صاحبه بالخناجر فماتا معا فى يوم واحد ". أو قيادة تجريدة " الى البحيرة بسبب فساد العربان" وقتلهم كاشف البحيرة حسن الدكرى .

وفى العشرين من جمادى الأولى دقت البشائر بالقلعة ونودى فى القاهرة بالزينة بعد أن وصل " قاض ملك الروم محمد بن عثمان يخبر السلطان بفتح القسطنطينية العظمى وقد صنع المكائد فى فتحها " .

ورغم التعامل بعنف مع العربان " سمر السلطان شخصا من العربان يسمى الفضل وكان قد اشتهر بالشجاعة وقتل الأنفس فأشهره فى القاهرة و أولاد عمه ثم سلخوهم وبعثوا بهم الى بلاد الشرقية وكانوا من المفسـدين " . إلا أنهم كانوا يتربصون بقوافل الحج " وقد دخل الحاج الى القاهرة وأخبر بما قاساه من الشدائد من السيول وموت الجمال وقطع الطريق من العربان وقد أخذ ركب المغاربة وكانت سنة صعبة مهولة " .

المماليك أيضا فى جمادى الأول 859 هـ تزايد شر المماليك الجلبان وتوجهوا إلى بولاق ونهبوا شون الأمراء لأجل الشعير وصاروا ينزلوا الفقهاء والمباشرين من على خيولهم وبغالهم ويأخذونها من تحتهم وحصل منهم فى حق الناس غاية الضرر ولا سيما التجار فى الأسواق فكانوا

يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع واستمروا على ذلك حتى وقع فيهم الطاعون كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه " .

" وفيه ثارت فتنة عظيمة وكان من ملخص خبرها أن طائفة من المماليك الظاهرية استمالوا بعض جلبان السلطان وكان السلطان عين تجريدة قبل ذلك للبحيرة وكتب غالب الجند فيها من المماليك الظاهرية .. فلما جرى ذلك وقفوا فى الرحلة حتى نزل الأمير يونس الدوادار الكبير فلاقوه بالدبابيس وجرح فى ذلك اليوم شخص من المماليك وقطعت أصابعه ثم الأمير يونس الدوادار تحيل فى صعوده إلى القلعة و أعلم السلطان بذلك فطلب جانى بك المرتد ومرجان مقدم المماليك وبعث بهما لكشف الأخبار وما سبب وثوب المماليك على الأمير يونس الدوادار ثم بعث نوكار الزرد كاش إلى مماليكه الجلبان الذين وثبوا مع طائفة من المماليك الظاهرية ليستميلهم عن ذلك ويسترضيهم معاد الجواب مثل الجواب الأول بأن يسلمهم الأمير يونس الدوادار ... "

" فلما استهل رجب بدأ السلطان يضرب الكره فلم يطلع غالب الأمراء الى القلعة ثم أن المماليك أصبحوا وهم لابسون لامة الحرب ووقفوا بسوق الخيل وقد اشتد الأمر ومنعوا الأمراء من الصعود إلى القلعة فبعث السلطان يقول للخليفة غيب فى بيتك حتى تسكن هذه الفتنة " السلطان اضطر إلى إعلان الحرب عليهم ووقع قتال هين انصرف بعده المماليك كل إلى داره وأدى إلى إدخال الخليفة إلى سجن الإسكندرية لعدم طاعته تعليمات السلطان حيث مات هناك وخلفه المستنجد بالله أبى الحسن يوسف بن محمد المتوكل على الله " ثم أن السلطان قبض على جماعة من المماليك الظاهرية ممن كانوا سببا لإقامة هذه الفتنة وسجنهم بالبرج واختفى جماعة كثيرة ونفى منهم جماعة إلى البلاد الشامية " .

فى العام التالى 860 هـ " ثار المماليك الجلبان على ناظر الخاص يوسف وضربوه و أخذوا عمامته من على رأسه وصار مكشوف الرأس و لولا هرب كانوا قتلوه لا محالة وكانت المماليك الجلبان تزداد شرهم جدا ... وفيه ثارت الغلمان والعبيد على الوزير ونزلوا من القلعة وتوجهوا إلى بيت الوزير وصاروا ينهبون بعض دكاكين القاهرة وخطفوا عمائم الناس حتى وصلوا إلى دار الوزير سعد الدين فرج فاختفى من داره فنهبوا ما وجدوه فى الدار ... "

يعزو ابن اياس أسباب هذه الفتن الى ظهور نجم بذنب طويل جدا وهو يقتبس من صاحب مرآه الزمان الآتى " ان أول ما ظهر نجم الذنب عندما قتل قابيل أخاه هابيل وظهر عند وقوع الطوفان وعند وقود نار إبراهيم الخليل عليه السلام وظهر عند هلاك قوم عاد وثمود وظهر عند هلاك فرعون وظهر عند قتل الإمام عثمان بن عفان وظهر عند قتل الإمام على وعند قتل جماعة كثيرة من الحلفاء وفى الغالب يحدث عقيب ظهور نجم الذنب حادث عظيم وقد جرب ذلك وصح من فناء وغير ذلك من قتل وفتن وخسف وزلازل .. "

المماليك الجلبان استمروا فى " تزايد الأذى فى حق الناس " ونهبهم وسرقتهم ولم ينجوا من ذلك حتى السلطان ففى صفر عام 861 هـ ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الجلبان وكان السلطان فى الدهيشة فلما تزايد الأمر منهم خرج إليهم السلطان وهو ماشى من الدهيشة وقد هموا بأن يهجموا عليه فلما عاينوه رجموه بالحجارة فولى وهو مستعجل حتى وقع أحد نعليه من رجله فلم يلتفت إليه ومر حافيا ويقال أنه قد أصابه طوبة من الرجم فى ظهره وكانت حادثة شنيعة قل أن يقع فى الحوادث أشنع منها .. فلما دخل السلطان الدهيشة أغلقوا عليه الباب وكان عنده بعض الأمراء

... ترددت الرسل بين السلطان وبين المماليك الجلبان فآل الأمر فيها بأن زاد لهم ألفى درهم فى الكسوة فصارت من يومئذ ثلاثة آلاف درهم لكل مملوك و زاد لهم فى الأضحية رأسا من الغنم فى كل سنة ... وقد استطالوا على الناس بعد ذلك ووقع منهم أمور شنيعة يطول الأمر فى شرحها وعظم أذاهم بالناس جدا ووقع منهم أمور ما وقعت من مماليك السلاطين قبلهم قط " .

فى سنة 862 هـ " وقع حريق ببولاق فى يوم الجمعة وقت العصر فاستمرت النار تعمل من ربع الصاجاتى إلى ربع ناظر الخاص يوسف إلى البوصة التى خلف بولاق فعجز الناس عن طفيها وقام عقيب ذلك ريح أسود عاصف فهيج النار فاحرق نحوا من ثلاثمائة دار وربوع ودكاكين وشون وكان أمرا مهولا جدا وقيل أن بعض الناس رأى وقت صلاة الجمعة صاعقة عظيمة نزلت من السماء على بعض الأماكن التى ببولاق فاحترقت و أقامت النار تعمل فى البيوت نحوا من أسبوع وكان قد كثر الفسق والفساد ببولاق جدا حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد ومن يومئذ تلاشى أمر بولاق وانحط قدرها " .

أما سنة 864 هـ فقد كانت سنة الطاعون " فى شعبان ارتفع الطعن فى القاهرة جملة واحدة وقد ضبط عدة من مات فيه من المماليك الجلبان فكانوا نحوا من ألف وخمسمائة مملوك من مماليك السلطان الجلبان فقط وفيه انحط سعر الغلال لكثرة من مات من الناس وقد فنى فى هذا الطاعون من أهل مصر ما لا يحصى من كبار وصغار وقد أخلى دورا كثيرة من سكانها .. "

السلطان أينال مرض فى جمادى الأول عام 865 هـ وعندما أشرف على الموت خلع نفسه من الملك وعين ولده الأتابكى أحمد بدلا منه وتوفى بعدها بيوم واحد . وكان عمره 81 سنة ومدة ولايته ثمان سنين وشهرين وستة أيام .

وكان " عنده شح زائد ومسك يد وكان خاليا من العلم وقراءة القرآن ورب أنه ما كان يحسن قراءة الفاتحة والغالب عليه العجمة فى لسانه عاريا من الفضائل فى أمور الدين ومن محاسنه أنه زاد الكسوة للجند حتى بقيت ثلاثة آلاف درهم و أصلح المعاملة فى نقود الفضة وكانت قد كثر فيها الغش وكانت دولته ثابتة القواعد " .

سلطنة الملك المؤيد أبى الفتح شهاب الدين أحمد ابن الأشرف اينال

وهو السابع والثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية والثالث عشر من ملوك الجركس و أولادهم فى العدد بويع بالسلطنة فى حياة والده بعد أن ذكر الأمير بردبك صهر السلطان لزوجته " إن الأحوال فاسدة و الأمور فى اضطراب ومن الرأى أن السلطان يعهد إلى ولده بالسلطنة فدخلت خون على السلطان و هو فى النزع وذكرت له ذلك فأمر بإحضار الخليفة والقضاة الأربعة " وخلع نفسه وولى ولده .

" وكان له من العمر لما ولى السلطنة نحوا من ثمانية وثلاثين سنة أو يزيد عن ذلك " وكالعادة منح السلطان المنح وعين خاصته و أغضب البعض و أسعد البعض " ظهر بالقاهرة وضواحيها الأمن والأمان والعدل والرخاء و أحبوا الرعية السلطان حبا شديدا ومالت إليه النفوس قاطبة " .

ومع ذلك " بجزيرة بولاق وكان فى الظلمة نصف الليل هجم المنسر على المتفرجين فنهبوا من الناس شيئا كثيرا وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى الفتك والقصف بسبب الفرجة ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر وصاروا يقيمون فى الرمل ليلا ونهارا من نساء ورجل وهم فى غاية التزخرف فهجم عليه المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ولم تنتطح فى ذاك شاتان " .

ولم تكد تمضى أربعة أشهر على سلطنته حتى وثب جماعة من المماليك الأشرفية والظاهرية و استمالوا معهم جماعة من المماليك الاينالية فلبسوا لامه الحرب وطلعوا الى الرملة بعد أن أشيع بين الناس أن السلطان قد عول على مسك جماعة من الأمراء الأشرفية .. فلما عظم الأمر نزل السلطان إلى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرملة فاشتد الحرب فى ذلك اليوم وفطر فيه غالب العسكر وجرح جماعة من الجند و استمروا على ذلك حتى حال بينهم الليل و لم يطلع إلى السلطان أحد من الأمراء وتقلب عليه أغلب مماليك أبيه وركبوا مع المماليك الأشرفية وقد لعبوا بهم و أفسدوا عقولهم وضحكوا عليهم .

فلما أصبح يوم الأحد نزل السلطان إلى المقعد المطل على الرملة وثبت للقتال فلما رأى مماليك أبيه قد وثبوا عليه تحقق أنه مكسور لا محالة فطلع من باب السلسلة وتوجه الى قاعة البحرة و أمرهم أن يغلقوا عليه الباب ثم طلب أخاه الناصرى محمد و أغلق عليهما الباب " وكسر آخر الملوك الشراكسة .

المماليك توجهوا إلى بيت الأتابكى خشقوم فأركبوه غصبا وهو يتمنع من ذلك غاية الامتناع وتم خلع السلطان أحمد بن الأشرف اينال من السلطنة ومبايعة الأتابكى خشقوم بالسلطنة لتبدأ دولة ملوك الروم .

سلطنة الملك الظاهر أبى سعيد سيف الدين خشقدم الناصرى المؤيدى

وهو الثامن والثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو أول ملوك الروم بمصر تم سلطنته فى السابع عشر من رمضان عام 865 هـ وهو رومى الجنسية جلبه الخواجا ناصر الدين محمد لذلك يعرف بالناصرى فاشتراه الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه تدرج فى المناصب حتى قرره المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فى الأتابكية عوضا عن نفسه فأقام فيها نحو أربعة أشهر حتى اتفق الأمراء على سلطنته بعد خلع المؤيد أحمد وسجنه بالإسكندرية وكالعادة أخلع السلطان الجديد على جماعة الأمراء وعدل فى المناصب حتى استتب له الأمر فى مواجهة منافسه جانم المكمل نائب الشام الذى تأخر فى الحضور من الشام عندما كاتبه الأمراء ليحل محل السلطان أحمد بن الأشرف اينال و اكتفى عندما حضر بخلعه السلطان الجديد من أموال وسلطات غير محدودة فى إدارة الشام دون الرجوع له (أى الاستقلال بها) .

الملك الظاهر خشقدم " أخذ فى أسباب تفرقة الاقطاعات على المماليك السلطانية فاشتغلوا بذلك إلى أن رحل جانم من بلبيس ... " كذلك " ابتدأ بتفرقة البيعة على الجند وصار يفرق كل جمعه طبقة .... وقد صادر خند أم الملك المؤيد ويردبك صهر السلطان وجماعة من حاشية الأشرف اينال " . كما أنه " رتب للخليفة فى كل يوم من السماط خمسة أطيار ورأس غنم ومن السكر رطلين من البطيخ حبة واستمر فى ذلك طوال مدة الظاهر خشقدم الى أن مات " . كذلك أمر بالإفراج عن الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى والملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق المحبوسان بالإسكندرية " ورسم لهما أن يسكنا فى أى دار شاءا بالإسكندرية " .

خلاصة القول : أن الظاهر خشقدم كان أكثر حنكة من سابقه المؤيد أحمد بن الاشرف اينال فاهتم بتحييد مراكز القوى المؤثرة ورشوتها فدام ملكه فى حين أن المؤيد أحمد اهتم بالشعب فغلبته المماليك و أطاحت به وتم سجنه بالإسكندرية وقيد رجله بالأصفاد ومطاردة أهله ومؤيديه ومصادرة أموال أمه وصهره .

على الجانب الآخر استمر العربان فى العصيان فخرجت لهم تجريده إلى البحيرة و أخرى الى الصعيد وتم " القبض على ناظر الخاص وسلمه إلى قائم التاجر ليستخلص منه مالا .. " وتم خروج تجريده الى قبرص بعد أن تحركت هناك الفرنج .. ودارت معركة بين فرعين من المماليك حاول أحدهما خلع السلطان وتعيين الأتابكى جرباش مكانه بل لقبوه بالملك الناصر ولكنه رفض " و أخذ فى أسباب الهرب " . وعندما انتصرت المماليك الموالية للسلطان وقويت شوكته قبض على أمراء الجانب المهزوم وسجنهم فى الإسكندرية وبطبيعة الحال كانت فرصة للتخلص من منافسه جانم نائب الشام فأرسل من قبض عليه وسجنه وعين بدلا منه أحد خلصائه .

فى عام 866 هـ " توقف النيل عن الزيادة فى مبتدأ الزيادة واستمر على هذا التوقف نحوا من أربعة عشر يوما فحصل للناس القلق الشديد بسبب ذلك و ارتفع سعر الغلال وتشحطت منه السواحل وتزاحم الناس على مشترى القمح وصار كل يوم فى تزايد .." تمر والى القاهرة تصور أن السبب فى ذلك المعاصى التى يرتكبها الناس فصار " يكبس أماكن المقترحات ويكف الناس عن المعاصى وفى يوم الجمعة كبس بولاق فوجد بها خياما كثيرة فمسك من بها من الناس فقبضوا عليهم و أركبوهم على حمير وشقوا بهم القاهرة " واستمر النيل فى التوقف .

" ثم أن السلطان بعث الشيخ أمين الدين الأقصر آى يستفتيه فى أمر النيل فأشار الشيخ أمين الدين بأن تجمع بنو العباس من كبير وصغير ويضعون فى أفواههم شيئا من الماء ثم يمجونه فى إناء ويصبونه فى فسقية المقياس فرسم السلطان لبنى العباس بذلك .... وفعلوا ما قاله الشيخ أمين الدين وصبوا ذلك الماء فى فسقية المقياس فما عن قريب حتى زاد واستمرت الزيادة حتى أوفى .... "

فى عام 868 هـ " عقد مجلس بالصالحية وحضر القضاة الربعة بسبب أهل الذمة وكان السلطان منع أهل الذمة من التكلم فى مباشرات الأمراء ونودى بذلك فى القاهرة فلما عقد المجلس بالصالحية أحضروا العهود التى كتبت عليهم قديما بأنهم لا يباشروا فى ديوان أحد من الأمراء ولا يتعمموا بأكثر من عشرة أذرع فوقع فى ذلك المجلس كلام كثير وضيقوا عليهم فأسلم منهم فى ذلك اليوم جماعة وانفض المجلس بالمنع لهم من المباشرة فى الدواوين مطلقا ما عدا الطب والصرف فقط ثم بعد ذلك سعوا بمال له صوره أوردوه للخزائن الشريفة حتى أبقاهم السلطان على حالهم الأول فى المباشرة بالدواوين " .

زمن حكم الظاهر خشقدم والذى دام لستة سنوات كان كله مؤامرات ودسائس واغتيالات طالت معظم الذين ساندوه للوصول إلى الحكم أهمهم جانى بك نائب جده الذى ناصره فى مواجهة نائب الشام وباقى المناهضين لحكمه من أمراء ومماليك فكان جزاءه الاغتيال بالقلعة وتهشيم رأسه ومطاردة أقاربه ورجاله وبدأت فى عصره المنافسة بين حكام مصر والعثمانيين " جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم قد جهز عساكره إلى اسحق بن قرمان وقد تعصب لأحمد دون أخيه إسحاق فلما بلغ السلطان ذلك تأثر له وخشى لما يأتى بعد ذلك " كما زادت الرشاوى للحصول على مناصب الدولة و زادت المصادرات للأموال والفتن والحروب الداخلية خصوصا مع العربان سواء فى البحيرة أو الصعيد أو الجيزة وقرب نهاية حكمه زاد عربان الهوارة من ثورتهم " على الأمير يشبك محمد مهدى وكسروه كسرة قوية فلما بلغ السلطان ذلك عين إليه قايتباى المحمدى بأن يخرج إليه نجدة ....." كما زادت المماليك الجلبان من فسادها ونهبها للدكاكين وترويع الناس . " حصل من المماليك الجلبان فى تلك الأيام غاية الضرر من الخطف والنهب وغير ذلك فلما كانت ليلة دوران المحمل أحرق السلطان نفطا حافلا بالرملة وكانت ليلة مشهودة جدا فطار بعض الصواريخ على القلعة فأحرق سقف الاصطبل وعملت فيه النار ساعة حتى بادروا بطفيها فتفاءل الناس بزوال السلطان عن قريب وكذا جرى " . وقام شاه سوار بالزحف على بلاد السلطان فى جماعة كثيرة من التركمان ويونس ابن عمر أمير عربان هوارة بالخروج عن الطاعة وثار على يشبك كاشف أسيوط و أصبحت القاهرة فى اضطراب ليلا ونهارا وصارت الأسواق والحوانيت تقفل من بعد المغرب . . . ." ثم عندما أصبح السلطان فى النزع اجتمع الأمراء فى المقعد الذى بباب السلسلة و اختاروا أمير كبير يلباى بعد وفاة السلطان الملك الظاهر أبى سعيد خشقدم سنة 872 هـ فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست سنين وخمسة أشهر وواحد وعشرين يوما . وكان عمره نحو من سبعين سنة . " وقيل أنه خلف فى بيت المال من الذهب النقد سبعمائة ألف دينار حصلها لغيره وقد جمعها من حلال وحرام ومصادرات والرشا على الوظائف وغيرها وكانت عده مماليكه إلى أن مات زيادة عن ثلاثة آلاف مملوك من مشترواته وخلف من الخيول والجمال والبغال والسلاح أشياء كثيرة وحصل للناس من مماليكه الضرر الشامل وتزايد أذاهم و جورهم فى حق الناس جدا " .

الملك الظاهر أبى سعيد سيف الدين يلباى المؤيدى

" وهو التاسع والثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية والرابع عشر من ملوك الجراكسة ممن تسلطنوا بمصر جلبه الأمير اينال من بلاد الجراكسة فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه ثم تدرج فى المناصب حتى بقى أتابك العساكر بمصر وبوفاة الملك الظاهر اختاره المماليك ليتسلطن بعده , عام 872 هـ بشهر ربيع الأول .

ثم أن الأخبار جاءت من حلب بأن شاه سوار قد قويت شوكته و التف عليه جماعة كثيرة من التركمان فكسر العسكر الشامى والحلبى وقتل جماعة كثيرة من الأعيان واستولى على عدة مدن وقلاع و أسر بردبك البجمقدار نائب الشام وقتل قانى باى الحسنى المؤيدى نائب طرابلس وقتل قراجا الظاهرى أتابك دمشق وقتل .... ومن العساكر ما لا يحصى وهذا هو أول استظهار شاه سوار على العسكر السلطانى و أول فتكه بهم و استمرت هذه الفتنة تتزايد حتى صار من أمرها ما سيأتى الكلام على ذلك " .

العربان الذين قبض عليهم أمر الظاهر يلباى " رسم بتوسيط العربان الذين أحضروا هم وشيخهم مبارك وكان فى العربان من هو صغير السن دون البلوغ فوسطهم جميعا ولم يعرف الظالم من المظلوم فعد ذلك من مساوئه .. ".

ولكن السلطان يلباى " ظهر عليه العجز وقصرت كلمته وحار فى رضى المماليك الخشقدمية وسار فى يدهم مثل اللولب يديروه حيث شاءوا فكثرت الإشاعات بأن الجلبان الخشقدمية قصدهم إثارة الفتن و أن يقبضوا على جماعة من الأمراء المؤيدية فامتنعت الأمراء من الصعود إلى القلعة ....." .

وهكذا قامت معارك بين المماليك " فعند ذلك كثر الهرج و الاضطراب " وتزايدت الفتن ووقع قتال لعدة أيام انتهى بهروب جانب منهم بعد أن انكسروا كسرة قوية فعند ذلك نهب العوام بيوتهم .... " وتلى ذلك " دخل جماعة من فجار الخشقدمية على الظاهر يلباى و أقاموه من على مرتبته و أدخلوه فى سجن المخبأة وقد وقع الاتفاق على سلطنة الأتابكى تمريغا الظاهرى فكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام " " وكان يلباى قليل المعرفة وعجز عن تدبير الملك وكان يعرف بيلباى المجنون وكان من مبتدأ أمره إلى أن بقى سلطانا وهو فى غلاسة هو ومماليكه وكان ملبسه غلس وسماطه غلس وشكله سمج سيء الخلق سوء الطباع مقت اللسان وكان عنده شح زائد وبخل كثير وكانت سلطنته غلط وزال سعده جمله واحدة " .

الملك الظاهر أبى سعيد تمريغا الظاهرى

وهو الأربعون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو الثانى من ملوك الروم بمصر وكان أصله رومى الجنس من مشتروات الملك الظاهر يلباى فلما خلع وقع الاتفاق بين الأمراء على سلطنة الأتابكى تمريغا " فى جمادى الأول سنة 872 هـ .

بدأ الملك الظاهر تمريغا عهده بإطلاق سراح المؤيد أحمد بن الأشرف اينال من السجن وذلك ترضية لخاطر طائفة الاينالية و أطلق سراح أمراء آخرين كان يلباى قد سجنهم و أعاد ما قطع سابقه من جوامك المماليك الاينالية .

وعين قايتباى المحمودى وقرره فى الأتابكية عوضا عنه كما أحدث عدة تعديلات أخرى بين أهم المناصب وضع فيها أقاربه و أنسباءه و مؤيديه كما فرق الإقطاعيات على جماعة من المماليك فأقطع نحوا من سبعين مملوكا .

على الطرف الآخر نفى جماعات أخرى و قطع نفقة البعض و أرسل آخرين إلى سجون الإسكندرية ونفى بعضهم خارج الديار المصرية .

وكعادة المماليك بدأوا من التآمر منذ اللحظة الأولى لتولى تمريغا " وكان خاير بك لما تسلطن تمريغا استمال طائفة الاينالية واتفق معهم بأن يتسلطن هو و أن يقبض على طائفة الظاهرية قاطبة و الأشرفية قاطبة و أن تكون الخشقدمية و الاينالية شيئا واحدا ويقتسموا المملكة بينهما " .

وهكذا " لبسوا آلة الحرب ثم أن خاير بك ندب جماعة من الجلبان و أمرهم بأن يهجموا على الظاهر تمريغا ويقبضوا عليه وعلى من عنده من الأمراء الظاهرية .. .. فأقاموه من على مرتبته وسحبوه غصبا و أنزلوه فى المخبأة ... " مسجونا .

ثم أنهم رشحوا خاير بك بأن يتولى السلطنة " فتوضأ وجلس على كرسى المملكة بالقصر الكبير وتلقب بالملك الظاهر وقيل تلقب بالعادل ... "

ولـكن

" ثار المماليك الجلبان على كل من بالقلعة ونهبوا الحواصل السلطانية .. و دخلوا دور الحريم ونهبوا كل ما كان فيها وفسقوا فى عيال الظاهر تمريغا ... "

الأتابكى قايتباى عندما علم بذلك توجه إلى قادة الاينالية فانبطح بين أيديهم وقال " اقتلونى أنتم ولا المماليك الجلبان ...." ولكنهم أجابوه " لا تمريغا و لا خاير بك أنت تكون سلطانا".

و هكذا أصبح الأتابكى قايتباى سلطانا بعد أن أيده المماليك و أجلسوه على مقعد الحكم و زالت دولة تمريغا ولم يمض عليها أكثر من ثمانية وخمسون يوما لا غير فخرج من مقر الحكم منفيا إلى " ثغر دمياط " دون أن يقيد أو يسجن " رجب 872 هـ .

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى

" وهو الحادى والأربعون من ملوك الترك و أولادهم بمصر " .

وهو جركسى جلبه الخواجا محمود سنة 839 هـ فاشتراه منه الملك الأشرف برسباى بخمسين دينارا لصالح بيت المال تسديدا للضريبة وضمه إلى مجموعة المماليك الكتابية و استمر على حاله حتى اشتراه من بيت المال الظاهر جقمق الذى اعتقه ثم ظل يتدرج فى المناصب حتى أصبح أتابك العساكر فى زمن الظاهر تمريغا عوضا عن نفسه " وقيل تولى الملك وله من العمر نحو من خمسة وخمسين سنة " . وذلك " يوم الاثنين سادس رجب سنة 872 هـ " .

و كالعادة أجرى تعديلات فى الوظائف الأساسية ليضمن أن يتولاها من ظاهروه و أمر " بتقييد خاير بك هو و ابن العينى " وعلى العكس أكرم الظاهر تمريغا " غاية الإكرام " ولأول مرة " أشرط على العسكر أنه ما ينفق عليهم نفقة البيعة فرضوا بذلك ... !! "

" ثم أن السلطان أخذ فى أسباب القبض على أعيان الخشقدمية " " يشتت شملهم ويسجنهم بالقلعة ما بين أمراء وخاصكية " أما كبارهم فقد أمر بنفيهم إلى القدس وحلب و أماكن أخرى خارج الأقطار المصرية بما فى ذلك الظاهر تمريغا الذى أرسله إلى دمياط " فخرج وهو فى غاية العز والإكرام " .

" ثم أن السلطان أخذ فى أسباب مصادرة خاير بك الذى تسلطن و ابن العينى فطلب من خاير بك نحوا من ستين ألف دينار خارجا عن بركه خيوله وسلاحه وغير ذلك وعلى ابن العينى نحو من مائتى ألف دينار خارجا عن بركه وسلاحه وغير ذلك " .

" ثم أخذ السلطان فى أسباب تعيين تجريده إلى شاه سوار بن ذلفادر وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقيل من التركمان وغيرهم وقد أظهر العصيان والمخامرة فخشى السلطان من أمره و أراد أن يأخذ أموره بالقوة وكان يمكنه أن يرسل إلى سوار خلعه وهدية وتخمد هذه الفتنة فلم يوافق على ذلك و أخذ الأشياء بالعترسة فعين له تجريده ثقيلة ... الغالب فيهم من المماليك الخشقدمية وقصد السلطان بذلك عوضا عن نفيهم " بمعنى إلهائهم بالحرب فإما قضوا على شاه سوار فاستراح منه أو قضى هو عليهم فانتهى من أمرهم وهكذا تكون حكمة المماليك الذين دام لهم الملك لسنين " وبه زالت دولة الخشقدمية كأنها لم تكن فسبحان من لا يزول ملكه و لا يتغير " .

فى مقابل هذا " ابتدأ السلطان بتفرقة الأقاطيع على الجند وكان أكثرهم من الاينالية و أمر منهم جماعة كثيرة حتى رضوا ..."

و للصرف على التجريده التى أعدها لإخضاع شاه سوار " ضيق على أولاد الناس و ألزمهم بالسفر أو يقيموا لهم بديلا فصار يأخذ من كل ابن ناس مائة دينار عوضا عن البديل إلى السفر " ثم وزع المال الذى جمعه على الأمراء والجنود الذين تضمنتهم التجريده فكانوا " نحوا من عشرين أميرا مابين الدف و طبلخانات ومن الجند فوق الألف مملوك ..... "

ابن العينى بعد أن تقاعس فى توريد ما أمر به السلطان تعرض للضرب من السلطان نفسه حتى تشققت كعوبه ثم سلمه للأمير يشبك الدوادار فعذبه حتى التزم " ابن العينى بأن يرد فى كل شهر

عشرين ألف دينار من الذهب النقد فكان جملة ما أورده للخزائن الشريفة من الذهب النقد مائة ألف دينار وتسعة وتسعين ألف دينار وذلك خارجا عن بركه وغلاله وخيوله وجماله ورزقه و اقطاعاته ومراكبه ومماليكه وغير ذلك ما يساوى نحوا من مائة ألف دينار فكان مجموع ما أُخذ منه نحو من ثلاثمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار .. وهذه من النوادر الغريبة التى جمع ابن العينى هذه الأموال الجزيلة فى دون الأربع سنين منذ أن قرر فى التقدمة إلى أن قبض عليه ... " وهكذا كانت تنهب مصر .

أما التجريده التى أرسلت " جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه إلى شاه سوار قد انكسر كسرة شنيعة و أسر الأتابكى جانى بك وقُتل جماعة من الأمراء ومن الجند ما لا يحصى وكان غالب العسكر من المماليك الخشقدمية ... " وقد قوى أمر سوار " وأشيع بين الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجده من عسكره إلى سوار " كذلك العربان " جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان قد تحالفوا على الخروج عن طاعة السلطان فوثبوا هناك أحرقوا الجرون ونهبوا ... فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريده .. وعين تجريده إلى الشرقية وتجريده إلى الوجه القبلى بسبب أولاد ابن عمر أخبار الهزيمة ظلت تتوارد " فماجت القاهرة وحار السلطان فى أمره ..... فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس القلعة وصارح المجلس بأن " بيت المال مشحوت من المال " . و أنه لابد من " تجهيز حملة أخرى لتحمى البلاد من البغاة وهذا يتطلب نفقة " ولهذا سيحول أموال الأوقاف إلى الخزانة العامة ويبقى للجوامع ما يقوم بالشعائر فقط أما الباقى فسيشترى به سلاح و ذخيرة

شيخ الإسلام أمين الدين الأقصراى الحنفى اعترض على قرارات السلطان " وقال فى الملأ العام فى ذلك المجلس : لا يحل للسلطان أخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى و إذا نفذ جميع ما فى بيت المال ينظر إلى ما فى أيدى الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج إليه و إذا لم يوف بالحاجة ففى ذلك ينظر فى المهم ان كان من الضرورى فى الدفع عن المسلمين حل ذلك بشرايط متعددة ... وهذا هو دين الله تعالى ان سمعت أجرك الله على ذلك و إن لم تسمع فافعل ما شئت " " و انفض المجلس من غير طائل " .

السلطان فى مواجهة هذه الأحداث أعلن ما نطلق عليه الآن أحكام عرفية وخطة تقشف فنادى " فى القاهرة بأن أحدا لا يخرج من داره بعد صلاة العشاء و لا يحمل السلاح و لا يكثر من الكلام وحصل للناس فى تلك الأيام غاية القلق " .

وعندما زاد سعر القمح وتخطى السبعمائة درهم للإردب " فتح السلطان شونة وباع منها بأقل من السبعمائة ... "

" توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس ... " كذلك " قطع مرتبات اللحوم التى كانت للفقهاء والمتعممين قاطبة ورسم على جماعة من المتعممين وقصد أن يأخذ منهم ما أكلوه فى الماضى و حصل للفقهاء والمتعممين فى هذه الحركة غاية الضرر والبهدلة ... " وقصر صرف اللحوم على المماليك فقط

ابن إياس يقول بهذا الصدد " فتح باب أول المظالم وصار الأمر يتزايد من بعد ذلك ...." فشمل النساء والعواجز من الجند والأيتام الذين حرموا شهر بعد شهر من جوامكهم " لإنشحات الديوان وخراب البلاد "

الظاهر تمريغا السلطان المنفى إلى دمياط هرب بمساعدة شيخ العرب محمد بن عجلان فى مركب نقله إلى الشام فأرسل السلطان خلفه تجريده سريعة قبضت عليه و أعادته " من غير تقييد " إلى ثغر الإسكندرية " ثم أن السلطان رفق به فلم يسجنه " الظاهر تمريغا فى مقابل ذلك أرسل للسلطان خطابا بخط يده قال فيه " المملوك تمريغا يقبل الأرض وينهى " .

التجريده التى أرسلها السلطان إلى الوجه القبلى عادت بقيادة " الأمير يشبك الدوادار وقد نهب البلاد و أسر نساء العربان و أولادهم حتى قيل أحضر معه نحوا من أربعمائة امرأة وقد مات منهن من الجوع عده كبيرة " فى المقابل عندما عادت التجريده " حصل من العربان بسبب ذلك ما لا خير فيه من نهب البلاد وسلب المسافرين ووقع منهم غاية الفساد " .

التجريده الثانية لتأديب شاه سوار تم تجهيزها من قطع الجمايك (المرتبات) وتوفير اللحم وفرض بدل نقدى على من لا يريد السفر من أولاد الناس أنفقه على الأمراء والجنود " فكان جملة ما صرف على هذه التجريده نحو من أربعمائة ألف دينار " . وكان عدد الجند " نحو من ألف وخمسمائة مملوك "

الطاعون انتشر " وعمل فى الأطفال والمماليك والعبيد والجوار والغرباء عملا ذريعا حتى عظم الأمر فى ذلك ..... والتجريدة خارجة والعسكر فى غاية الضرر على أولادهم وعيالهم ومات من العسكر فى أثناء الطريق جماعة كثيرة ... "

" الأمير يشبك الدوادار شرع فى بناء مغسل بالقرب من مدرسة السلطان حسن وصارت تحمل إليه الطرحاء من الموتى فيكفنهم ويخرجهم ويدفنهم ويصرف عليه من ماله ..."

وهكذا " اشتد أمر الغلاء والفناء بمصر والشام وحلب .... " " وقطع أرزاق الناس من جوامك وغيرها ... " ورغم أن

التجريدة عندما وصلت إلى حلب اشتبكت مع قوات شاه سوار وقتلت " مال باى الاقطع أخو سوار وجماعة كثيرة من عسكره وبعث برأس مال باى ومعها رأسين من أمرائه فلما حضرت تلك الرؤوس طيف بها فى القاهرة ثم علقت على باب زويلة وباب النصر " ولكن لم تكد تمضى أيام معدودة حتى جاء من يخبر السلطان " بكسره العسكر ورجوعه إلى حلب وهذه ثانى كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة بمن فيها وكان سبب كسرة العسكر أن سوارا تحيل عليهم حتى دخلوا فى مواضع مضيق بين أشجار فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسى والنشاب والسيوف والأطبار فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم " فصار فى كل حارة نعى ليلا نهارا مثل أيام الوباء "

ترى هل برع المماليك إلا فى السلب والنهب وقهر الشعب والتآمر .

جاء " العسكر من بعد ذلك إلى القاهرة وهم فى انحس حال من العرى والجوع وبعضهم مجروح وبعضهم ضعيف وكان يدخل بعضهم راكبا حمار أو جمل أو يدخل ماشيا وهو عريان وما قاسوا من هذه التجريدة خيرا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم " .

فى العام التالى ربيع الأول 874 هـ انقلب الحال بفضل ما قام به ـ وجاءت أخباره من حلب ـ قرقماش الصغير نائب مالطة " تقاتل مع عسكر سوار فكان بينهما واقعة هائلة وقتل فيها من

عسكر سوار مقتلة عظيمة فوق خمسمائة إنسان وأسر جماعة كثيرة من أمرائه و أقربائه وكان ذلك بمكيدة صعدت بيد قرقماش حتى بلغ بها ذلك " .

ابن رمضان أمير تركمان أيضا " كبس على أعوان سوار و أخذ منهم قلعة سيس " فسعد السلطان بعدها " أطلق شاه سوار الأتابكى جانى بك وبعث به إلى حلب وقد أكرمه غاية الكرم وقصد بذلك أن يسترضى خاطر السلطان وقرر مع الأتابكى جانى بك بأن يكون سفيرا بينه وبين السلطان فى أمر الصلح " .

السلطان أصدر مرسوما " بمنع جانى بك من دخول القاهرة وأن يقيم بحلب فقدم جانى بك قبل وصول المرسوم إلى حلب بسبعة أيام فلما حضر قام له السلطان و اعتنقه وترحب به ثم أخلع عليه .... وقرر فى أمره السلاح "عجبا لهؤلاء السلاطين .

بعدها بدأ السلطان يدعم أركان دولته التى دامت لمدة 28 سنة

" الأمير يشبك الدوادار عاد من الوجه القبلى ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لا يسمع بمثله حتى قيل أنه شوى بالنار محمود شيخ بنى عدى وخوزق من العربان جماعة وسلخ جلد جماعة ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب ما لا فعله أحد من قبله فدخل الرعب منه فى قلوب العربان " .

" نودى من قبل السلطان بأن من أخذ منه شيء من أولاد الناس وعيرهم بسبب بعث البديل إلى التجريدة فليصعد إلى القلعة ليرد إليه ما أخذ منه من مبلغ كان أورده إلى الخزائن الشريفة فتعجب الناس من ذلك .... فلما صعد أولاد الناس إلى القلعة رد لهم ما أخذ منهم بحكم النصف ... " كذلك " أعاد إلى جماعة ما كان أخذه منهم من المال لما صادر الناس فى التجريدة الأولى .... "

" وفى رمضان أمر السلطان بفتح شونتين من شونه و أبيع منها القمح سعر ألف درهم كل إردب وكان وصل سعره إلى أربعة أشرقية كل إردب فحصل للناس بعض الرفق وكثر الخبز على الدكاكين ..... "

" ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى أنشأها بالصحراء وجعل بها جامعا بخطبه وقرر به صوفة وحضورا بعد العصر و أنشأ هناك عدة خلاوى برسم الصوفة وحوضا وصهريجا و أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف " .

" نادى السلطان فى القاهرة بأنه قد أبطل عدة مكوس منها مكس قطيا ومكس الخشب و الأطرون بالبحيرة وغير ذلك عدة مكوس فدعوا له الناس بسبب ذلك " .

" عين تجريدة ثقيلة إلى سوار " بعد أن فشلت مفاوضات الصلح وحاول حسن الطويل التحرك نحو حلب " وقد طمع فى عسكر مصر بموجب ما فعله بهم سوار فتأثر السلطان وقصد أن يخرج الى حلب بنفسه " .

" وفى هذه الأيام وقع العدل والرخاء بالديار المصرية .. وكثر اللحم والأجبان و انحط سعر سائر البضائع " .

فى شوال من عام 875 هـ " خرج العسكر المعين إلى سوار بقيادة الأمير يشبك ومعه من الجند نحوا من ألفين مملوك فرجت لهم القاهرة " وهم راحلون أفواجا أفواجا وكانوا من نقاوة العسكر

من أعيان الشجعان "

شاه سوار حارب قرقماش نائب مالطة " فلما ظفر سوار بقرقماش قتله أشر قتلة قيل انه أوقفه فى مكان وبنى عليه حائطا وقيل بل علقه فى شجرة و استمر ينشب بالنشاب حتى مات " .

الأمير يشبك أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار وتحارب مع شاه سوار حتى طردهم عن تلك البلاد وملكها "

سوار " أخذ أولاده وعياله وماله و أودعهم بقلعة زمنطوا وصار على رأسه طيره من العسكر بخلاف العادة ... " فقد " انحل أمره وفل عسكره عنه و هو خائف من العسكر " .

العربان بعد أن رأوا انشغال السلطان فى الحرب مع شاه سوار أظهروا العصيان فأرسل لهم الأمير تمر حاجب الحجاب " قبض على جماعة من العربان المفسدين ورسم السلطان بتوسيط زعيمهم موسى بن عمران ومعه جماعة من بنى سعد وبنى حرام وبنى وائل فلما بلغ العربان قتل هؤلاء أظهروا العصيان و أفسدوا فى البلاد فرسم السلطان للأمير تمر بأن يعود الى الشرقية فعاد " .

تجريدة الأمير يشبك الدوادار " وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة مهولة على نهر جيحون .... فزحف العسكر على عسكر شاه سوار فكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصى فانكسر عسكر سوار كسرة قوية وقتل منهم ما لا يحصى عددهم فولوا مدبرين وكانت النصرة لعسكر مصر على عسكر سوار " .... " فلما رأى سوار الكسرة عليه هرب مع نفر قليل من عسكره وطلع إلى قلعة زمنطوا فاختفى بها " .

الأمير يشبك سارع إلى محاصرة القلعة ورمى عليها بالمدافع ثم أن شاه سوار بعد ذلك " تلاشى أمره وفل عنه غالب عسكره و أرسل يطلب الصلح من الأمير يشبك و أن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة دندرة و أنه يبعث ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان على ذلك إلا أن يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان "

فى النهاية استسلم شاه سوار مع نفر قليل من عسكره للأمير تمراز الذى وعده " بألا يشوشوا عليه " ولكن الأمير يشبك ونائب الشام برقوق كان لهما رأى آخر فلقد قبضوا عليه ووضعوا الزنجير الحديد حول رقبته و ساقوه أسيرا إلى القاهرة حيث أفتى العلماء بأنه " خارجى و أنه لا يبقى فى قيد الحياة .

فى ذلك الوقت كان السلطان يوطد ملكه يحكم بين الناس ويعفو عن بعض المساجين ويعمر المساجد و يأمر " بإنشاء البرج العظيم بقرب ثغر رشيد فجاء غاية من الحسن فى البناء والإمكان " ويقمع عربان الشرقية بعد أن تقدموا إلى القاهرة و " وصلوا إلى رأس خط الحسينية ونهبوا الدكاكين وسلبوا أثواب الناس " فأرسل لهم تجريدة ترجعهم إلى ديارهم وتقبض على زعمائهم .

وعندما سقط نجار وهو يعمل بالقلعة أمر لأولاده بمائة دينار " وللميت بثوب بعلبكى وثلاثة أشرفية يجهزونه بها " وعندما ولدت امرأة أربعة توائم وكان أبوهم فقيرا " رسم لأبيهم بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح " .

وهكذا كان دائما ما ينزل من القلعة ويتوجه " إلى نحو دمياط ورشيد وتروجه وغير ذلك من البلاد فسار فى البحر بعده مراكب وكان بصحبته " .

وعندما قبض نائب ثغر إسكندرية على " جماعة من الفرنج كانوا يتعبثون بسواحل البحر المالح ... رسم بسجنهم فى المقشرة فأسلم منهم جماعة وجماعة سجنوا " .

كانت عودة الأمير يشبك ومعه أسراه " سوار و أخوته وهم فى زناجير " يوم عيد فى القاهرة فالسلطان " نادى فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة ورجت القاهرة لدخول سوار حتى بلغ كرا كل بيت فى الشارع أربعة أشرفية وكل دكان أشرفى ذهب بسبب الفرجة على سوار .. فخرجت البنت من خدرها تنظر إلى سوار الذى قتل العباد ويتم الأطفال ونهب الأموال " . وبعد مشاهد وصفها ابن إياس بالتفصيل تم صلب شاه سوار و أخوته على باب زويلة وظل معلقا هناك حتى مات هو و أخوته " وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعدما ذهب عليه أموال و أرواح وقتل جماعة كثيرة من الأمراء وكسر العسكر ثلاث مرات " .

ولـــكـــن

" حسن بك الطويل ملك العراقين جمع من العساكر ما لا يحصى وهو زاحف على بلاد السلطان وقد بعث ولده محمد مع عسكر ثقيل وقد وصلوا الرها .... " ولهذا " عين السلطان تجريدة إلى حسن بك الطويل .... و أمرهم بالمسير إلى حلب بسرعة من غير تأخير " .

" عسكر حسن الطويل استولت على كختا وكركر " فلما علم السلطان عين تجريدة أعظم من سابقتها يقودها الأمير يشبك الدوادار وتحوى فوق الألفين من الجند المماليك .

السلطان أنفق على " التجريدة فيما نفقه على العسكر الذى توجه للسفر مبلغ أربعمائة ألف دينار وعشرين ألف خارجا عن أشياء كثيرة بعث بها الأمراء "

فى حلب " تم القبض على جماعة من أربعين فردا وقد نسبوا كلهم إلى المواطأة مع حسن الطويل ويكاتبونه بأخبار المملكة فأمر نائب حلب بشنقهم أجمعين فشنقوا ... "الأمير يشبك الدوادار عندما وصل هناك أرسل له حسن الطويل " قاصدا وعلى يده مكاتبة شرحها أنه أرسل يطلب جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب و أنه إذا أطلقوهم يطلق من عنده من أسراء " .

الأمير يشبك أرسل جنوده إلى البيرة فانتصروا على جنود حسن الطويل وجرح ولده " جراحات بالغة وآخر من أولاده أصيب فى عينه ووقع بين الفريقين مقتلة مهولة ... "

حسن الطويل أرسل يكاتب الفرنج بأن يكونوا عونا له على قتال عسكر مصر ولكن ابن عثمان " ظفر بقاصد حسن الطويل وهو قاصد نحو بلاد الفرنج فقبض عليه فى أثناء الطريق وهو فى مركب و أسر " ووجدوا بصحبته " مكاتبة حسن الطويل إلى بعض ملوك الفرنج بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر من البحر وهو يمشى عليهم من البر "

ابن عثمان أرسل للسلطان ما وقع بيده من مكاتبات كما " أرسل قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكونوا عونا للسلطان على قتال حسن الطويل " .

وفى كلا الحالتين تم الاحتفال بقاصد ابن عثمان وإرسال الهدايا له مع سفراء تصاحب قاصديه " لكى ينشىء بينه وبين السلطان مودة بسبب أمر حسن الطويل " .

ومع ذلك وعلى الرغم من تكلفة حرب سوار ثم مقاومة حسن الطويل ومشاكل العربان والفرنجة الذين " تعبثوا ببعض سواحلها و أسروا من المسلمين تسعة أنفار " وما صاحب ذلك من " خروج

الأمير قجماش بعد العصر وسافر من البحر فى عدة مراكب "

و أوامر السلطان له بتتبع الفرنج .. إلا أن الرخاء " وقع فى سائر الحبوبات وفى سائر المأكولات قاطبة ... " هل يعنى ذلك أنه عندما انشغل المماليك فى حروبهم عن الشعب فان هذا الشعب المصرى أصبح قادرا على الإنتاج وتحقيق الرخاء , أم هى حكمة السلطان قايتباى فى إدارة شئون الدولة .

من على الجبهة جاءت الأخبار " بأن ابن عثمان بعث عسكر لمحاربة حسن الطويل فكسر عسكر حسن الطويل " .

وطلب الأمير يشبك العودة " فان العسكر قد تقلق من قلة العليق فلما سمع السلطان بذلك حنق و اغتاظ ثم أذن لهم فى الحضور بعد ذلك " .

الأمير يشبك نصح السلطان أيضا بأن يطلق سراح أسيرين عراقيين كانا ضمن الحجاج العراقيين وقبض عليهما أمير مكة لأنهما " ضيقوا على قضاة المدينة و أمروهم بأن يخطبوا فى المدينة باسم العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين " و أرسلهما إلى مصر فسجنهما السلطان فى القلعة وفعلا " أطلق السلطان رستم أمير حاج العراقى و أطلق القاضى الذى صحبه و أخلع عليهما وبعث بهما إلى بلاد حسن الطويل ترضيا لخاطره " .

يشبك بعد ذلك عاد إلى مصر وصاحبه فى العودة " من الجند جماعة كثيرة ممن كان فى التجريدة .... " ثم استعفى من الوزارة ومن الإستدارية فأجابه السلطان إلى ذلك ... " تعاقب بعد ذلك عدد من الحوادث فقد " ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا إلى جهة بولاق فنهبوا ما فيها ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوادار فنهبوا ما فيها " ولم يتوقف الأمر إلا بعد نزول السلطان لهم ثم " قصد جماعة من المماليك الجلبان الأخراق بالأمير يشبك الدوادار بل قصدوا قتله ففر منهم وتوجه إلى بعض ضواحى الجيزة حتى تخمد الفتنة قليلا فاستمر غائبا نحوا من خمسة عشر يوما "

السلطان أيضا تدخل وعاقب مماليكه ... ثم أن المماليك الجلبان ثاروا ثانيا " وقصدوا قتل الأمير يشبك وهو فى داره فلما بلغ ذلك للسلطان بعث للأتابكى أزبك وبقية الأمراء بأن يلبسوا آلة السلاح و أن يوثبوا على المماليك الجلبان فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة وغلقت الأسواق " ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن " بعث السلطان الماسى استادار ومعه عدة وافرة من المماليك و أخلع على الماسى وترضى الجلبان بالكلام وسكنت الفتنة "

" وصار السلطان ينفى منهم جماعة بعد جماعة ممن كان رأس الفتنة فى هذه الحركة ".

من جهة أخرى " قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكاتبة تتضمن الاعتذار عما كان منه و إن ذلك لم يكن باختياره فأكرم السلطان ذلك القاصد و أظهر العفو عما جرى منه ..."

كما جاء أيضا " قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة تتضمن الشفاعة فى اينال الحكيم .... فقبل السلطان شفاعته " .

وهكذا عادت الحياة الطبيعية لمصر .. فالسلطان يحكم بين الناس والعدل أصبح سمة يحرص ابن إياس على إظهارها فعندما جاء شخص يحتكم السلطان ضد كاتب السر الذى " يجلس بين يديه على دكة لقراءة القصص " أمره السلطان بأن " ينزل ويقف بإزاء خصمه حتى يدعى عليه "

حدث هذا أيضا لكل من يشبك الدوادار وجانى بك الفقيه عندما تعرضا كل منهما لدعوى ضدهما طلب منهما السلطان الوقوف بجوار المدعى لسماع الشكوى .

والعربان أيضا عادوا للإفساد " واستمروا يعرون الناس من المنيا إلى قنطرة الحاجب وكان ذلك بعد العصر وكان أوان الربيع فسلبوا أثواب المتفرجين وكانوا نحوا من عشرين خيالا ... " حدث هذا أيضا فى الشرقية والجيزة وفشل كل من حاول أن يوقفهم بما فى ذلك يشبك الدوادار مع أولاد بن عمر بالصعيد .

عندما قاضى القدس وجماعة من أعيانها كنيسة لليهود جاءوا بهم مكبلين بالحديد وعقدت لهم محاكمة حضرها القضاة ومشايخ العلم .. أفتى بعضهم بجواز هدمها و أفتى آخرون بعدم جواز هدمها و أنها تعاد على ما كانت عليه " وكان السلطان مائلا إلى عدم هدم الكنيسة و إعادتها لما كانت عليه وقد مال جماعة من العلماء مع غرض السلطان وحكم بإعادتها على ما كانت عليه " .

جارية بيضاء جركسية " حملت فى طريق الحجاز من بعض المماليك الجلبان فلما وضعت قتلت الولد من خوفها فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية و أغرق المملوك وقيل بل أخصاه ونفاه إلى الشام " .

كاشف البحيرة عندما " تجمد عليه جملة من المال " أمر السلطان بتوسيطه فمات " شيخ قليوب أيضا " شهر على جمل ووسط بقليوب ".

حسن الطويل حاربه ابنه محمد أوغلوا ثم أخيه أويس ثم " أن الطاعون قد هجم فى بلاد ومات من عسكره ما لا يحصى وقد تلاشى أمره " . عندما قدمت زوجته إلى القاهرة " تستجير لولدها محمد بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ويصلح بينهما .. أكرمها السلطان و أنزلها بدور الحرم " . ولم تقم حروب بعد ذلك بينه وبين السلطان حتى وفاته شعبان 883 هـ .

السلطان كان دائم السفر ومعرفة أحوال الناس فهو اليوم فى طره وفى اليوم التالى فى الفيوم أو دمياط يستخدم المراكب ويصطاد الطيور أو السمك البورى وقد يمضى خارج القلعة أياما عديدة " وعلى حين غفلة خرج السلطان وقصد التوجه إلى بيت المقدس وكان معه .. فلما دخل القدس أظهر به العدل و أقام ثلاثة أيام ثم زار الخليل عليه السلام وتصدق بستة آلاف دينار و أزال ما كان بهما من مظالم " .

فى هذه الزيارة مر على القرين وأمر ببناء جامع وسبيل هناك ودخل غزة و أحدث بعض التنقلات بين المسئولين ثم عاد حاملا الهدايا " وقدامه الأمراء بالشاش والقماش وخرج طائفة من اليهود والنصارى بأيديهم الشموع الموقد وشق فى القاهرة وكان له يوم مشهود "

" بعض تجار الفرنج احتال على تجار الإسكندرية حتى أسرهم وخرجوا بهم من إسكندرية فى الوقت والساعة وتوجهوا بهم إلى بلاد الفرنج فاضطربت أحوال الإسكندرية وكادت أن تخرب" السلطان أمر " بالقبض على تجار الفرنج الذين بالإسكندرية جميعهم " والذين أيضا " بسائر السواحل وضيق عليهم و أودعهم فى الحديد و ألزمهم بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب التجار "

" آخر الأمر اشتروا التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج بمال له صورة حتى أطلقوهم و أتوا بهم إلى الإسكندرية " .

"سنة ثمانين وثمانمائة هجرية كان ابتدأ منشأ الأزبكية على يدى الأتابكى أزبك الذى نسبت الأزبكية إليه وكانت هذه البقعة أرض ساحة خراب ذات كيمان فى أرض سباخ وبها أشجار أثل وسنط وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم و كان فى هذه الأرض جامع خراب يسمى جامع الجاكى وهو باق إلى الآن (زمن ابن اياس) وكانت هذه الأرض قديما عامرة بها المناظر والبساتين وتسمى مناظر اللوق وكانت قريبة من بحر النيل ثم أن بعض الملوك حفر بها خليجا و أجرى إليه الماء من فم الخور وصار هذا الخليج يعرف بخليج الذكر وبقى من جملة مفترجات القاهرة ... واستمرت هذه البقعة على ما ذكرناه إلى سنة خمس وخمسين وستمائة فلما تلاشى أمرها وضعف جريان الماء من خليج الذكر وحفر الناصر بن قلاوون خليجه المسمى بالخليج الناصرى وذلك سنة أربعة وعشرين وسبعمائة فطم خليج الذكر وخربت مناظر اللوق التى كانت هناك وصارت هذه البقعة خربة مقطع طريق و استمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت إليها أحد من الناس ثم أن شخصا من الناس عمد إلى سراب حمام كانت هناك وفتح لها بجموق من الخليج الناصرى فجرى فيه الماء فى أيام زيادة النيل فلازال يجريه حتى أوصله بأرض الأزبكية فصار يدخل إليها الماء فى آخر الزيادة ويروى بها بعض أراضيها وتزرع البرسيم والشعير.

واستمرت على ذلك مدة إلى سنة ثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى فحسن ببال الأتابكى أزبك أن يعمر هناك مناخا لجماله وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة .. فلما عمر المناخ حلا له هناك العمارة فبنى القاعات الجليلة ثم الدوار والمقعد والمبيتات والحواصل وغير ذلك ثم أنه أحضر أبقار ومحاريث وجرف الكيمان التى كانت هناك ومهدها ثم حفر بها هذه البركة الموجودة الآن ـ زمن ابن إياس ـ و أجرى إليها الماء من الخليج الناصرى وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر ثم بنى على هذه البركة رصيفا محتاط بها وتعب فى ذلك تعبا عظيما حتى تم له ما أراد من ذلك ... و أصرف على ذلك مالا له صوره ما يزيد عن مائتى ألف دينار وكان ذلك فى غير طاعة الله تعالى ولا به نفع للمسلمين .

ثم شرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة والأماكن الجليلة ولازالت تتزايد فيها العمارة إلى سنة أحدى وتسعمائة وقد رغب كثير من الناس فى سكنى الأزبكية وصارت مدينة على انفرادها ثم إنشاء الجامع الكبير وجعل به خطبة وانشأ المئذنة العظيمة وجاء غاية فى الحسن والتزخرف والبناء ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع والحمامات والقياصر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع وسكن فى تلك القصور وتمتع بها مدة طويلة حتى مات وبقى له تذكار بالأزبكية .

وكان يوم فتح سد هذه البركة تجتمع عنده الأمراء المقدمون بالقصر وتأتى الناس أفواجا للفرجة ويكون لها يوم مشهود وكان يصنع بها فى كل سنة وقده حفلة وتحرق بها حراقة نفط وتدخل إليها المراكب قاطبة ويكون لها ليلة حافلة لم يسمع بمثلها وتنفق بها فى تلك الليلة أموال جمة بسبب الفرجة بها وتضرب حول البركة عدة خيام وتقع بها من القصف والفرجة أشياء غريبة .

ولما كملت عمارة الأزبكية ودخل الماء إلى بركتها أنعم السلطان قايتباى على الأتابكى أزبك بأرضها وكتب له بذلك مربعة شريفة وكانت أرض الأزبكية وقفا على خزائن السلاح " .

السلطان كان كثير التجوال من الزعفرانة إلى الخانكة حيث يصلى الجمعة أو يحيى المولد النبوى أو وفاء النيل وختم البخارى وقيل " بأن السلطان يتزايا بزى المغاربة وينزل إلى جامع الأزهر ويصلى به وكان يسأل فى بعض الطرقات من الناس عن سيرة نفسه ووقع له فى هذا الأمر أشياء غريبة يطول شرحها .. وبعض الناس كان يحط عليه فى أفعاله وهو يسمع ذلك بأذنه ممن يسأله " .

وقد " نزل السلطان وتوجه إلى الجامع الأزهر وكان معه كاتب السر وبعض الأمراء فلما دخل الجامع طلب قضاة القضاة وصعد وإياهم إلى سطح الجامع ورسم بهدم ما كان بسطح الجامع من الخلاوى وحكم القاضى المالكى بهدم الجميع ثم أنه رسم بترميم ما فسد من عمارة الجامع و أصرف على ذلك نحوا من عشرة آلاف دينار وفى ذلك اليوم تصدق على الفقراء المقيمين بالجامع بنحو من ألف دينار " .

ما عجز الأشرف قايتباى عن مقاومته والسيطرة عليه كان الطاعون فلثانى مرة خلال فترة حكمه " تزايد أمر الطاعون وكان طاعونا مهابا يموت منه الإنسان فى يومه وفتك " بالأعيان كما فتك " بالمماليك والأطفال والعبيد والجوار والغرباء فتكا ذريعا " لم تنج منه أى طائفة بما فى ذلك الأمراء ورجال الدين الاسلامى والقبطى حيث مات " بطرك النصارى اليعاقبة المسمى ميخائيل المنفلوطى وكان مشكورا فى بطركته محمود السيرة من أهل ملته " عدد من مات " من مماليك السلطان نحو من ألفين مملوك وزيادة خارجا عن مماليك السيفية والقرافصة ومات من الطواشية نحو من خمسة وعشرين طواشيا حتى قيل أن السلطان حمل بنفسه بطيخة صيفية حتى دخل دور الحرم لقلة الطواشية "

" ولما دخل خماسين النصارى خف أمر الطاعون بالنسبة لما كان عليه بعد ما أفنى من الناس ما لايحصى ... "

الأمير يشبك الدوادار " شرع فى أمر توسيع الطرقات والشوارع والأزقة فأمر القاضى فتح الدين السوهاجى بأن يحكم بهدم ما وضع فى الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وربوع وحوانيت وسقايف ورواش ومصاطب وغير ذلك "

" فحصل بذلك بعض النفع فى توسيع الطرقات ولكن حصل غاية الضرر لجماعة من الناس بسبب هدم ربوعهم وحوانيتهم " .

الملك قايتباى زار الإسكندرية فاحتفلوا به احتفالا لم تشهده المدينة من قبل ثم " انه توجه الى نحو المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا معظما وهو الموجود الآن " .

زار بعد ذلك رشيد و ادكو ودمنهور " وغير ذلك من البلاد الغربية "

" وانشرح السلطان من هذه السرحة للغاية واستمر يرحل من مكان إلى مكان على سبيل التنزه نحوا من أربعين يوما حتى عاد إلى القلعة " .

" خرج السلطان على حين غفلة من العسكر وتوجه إلى الصالحية ثم بعد أيام أشيع بين الناس أن السلطان توجه من هناك إلى البلاد الشامية فتعجب الناس من ذلك وكان فى نفر يسير من العسكر بحيث كان معه من المماليك نحو من أربعين مملوكا من خواصه ... " ثم

" حضر هجان من عند السلطان وعلى يده مراسيم إلى الأمراء الذين بالقاهرة فكان من مضمونها أن السلطان توجه إلى نحو البلاد الشامية ليكشف على أمر النواب والقلاع بنفسه" " ولم يتفق لأحد من السلاطين مثل هذه الواقعة " . " ومن جملة ألطاف الله تعالى أن فى غيبة السلطان لم يقع الخلف بين الأمراء بل كان الأمان والأطمان فى القاهرة وجميع ضواحيها حتى عد ذلك من النوادر " .

" ولما عاد السلطان من هذه السفرة عظم أمره جدا وقد وصل إلى الفرات وكشف على عدة قلاع بنفسه ودخل إلى الشام وحلب وحماة وطرابلس وغيرها من البلاد الشامية . . . . وكانت مدة غيبة السلطان فى هذه السفرة نحوا من أربعة أشهر إلا أيام " .

" فى السبت رابع عشر فيه من محرم 884 كانت وفاة أمير المؤمنين الجمالى يوسف المستنجد بالله العباسى وكان الثالث عشر من خلفاء بنى عباس فى مصر بعد أن دام فى الخلافة خمس وعشرين سنة وبضعة أشهر . . . . ومات وله من العمر زيادة عن ثمانين سنة . . . وقد مات عن غير ولد ذكر بل خلف بنتا تسمى ست الخلفاء فعهد بالخلافة من بعده لابن أخيه العزى عبد العزيز وسمى المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله بن المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله سليمان بن الإمام الحاكم بأمر الله أحمد العباسى الهاشمى " فأصبح الخليفة الرابع عشر " وكان سنه لما تولى الخلافة نحوا من اثنين وستين سنة أو أكثر " .

" ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم - جمادى الأولى 884هـ - فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية و أجل الآثار الحسنة ومن نوادر أفعال الملوك وقيل صنعة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر المالح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج وقد بنى على أساس المنار القديم الذى كان بالإسكندرية و أنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ينظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهى داخلة إلى الميناء وجعل بهذا البرج جامعا بخطبه وطاحونا وفرنا و حواصلا و أشحنهم بالسلاح وجعل حول البرج مكاحلا معمرة بالمدافع ليلا ونهارا بسبب أن لا تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما و أجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر وجعل عليهم شاوا من خواصه يقال له قنصوه المحمدى وهو الذى ولى نيابة الشام بعد ذلك وصار يعرف بقانصوه البرجى وقيل أن السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على مائة ألف دينار و أوقف عليه الأوقاف الجليلة وجاء من أحسن الآثار والمعروف . . . "

لم تكن قلعة الإسكندرية هذه المبنى الوحيد الذى أمر بإنشاءه ففى رشيد أيضا قلعة أخرى كذلك " ربع بمدرة الكبش وكان الشاد على العمارة فائق المؤيدى " و " سبيل برأس سويقة عبد المنعم التى بالرمل وكان الشاد على عمارته الأمير تابى بك قرا " ثم بناء تلك الربوع التى أنشأها فى باب النصر وفى البندقانين والخشابين والدجاجين وغير ذلك من الأماكن " هذا غير " قناطر بالجيزة شادها الأتابكى أزبك فجاءت من أجل آثار الملوك وقيل أن السلطان أصرف على عمارة هذه القناطر نحوا من مائة ألف دينار " و عند " قناطر المرج والزيات " حيث " أمر ببناء زاوية هناك وحوض وسبيل وجاء فى أحسن البناء " وفى الروضة بنى جامعا " جاء غاية فى الحسن والتزخرف وعرف بجامع السلطان الأمير يشبك الذى خاض حروبا عديدة وشهد انتصارات فاصلة فى زمن الملك قايتباى دارت عليه الدوائر بعد أن عبر الفرات متوجها إلى مدينة الرها " فلما رأى كثرة تلك العساكر التى معه فطمعت آماله فى أخذ مدينة الرها ويزحف بعد ذلك على ملك

العراق كما قد حسنوا له ذلك فزعق النفير وركب العسكر قاطبة فبرز اليهم بايندر بمن معه من العساكر وتحارب معهم .. فلم يكن الا ساعة يسيرة وقد كسر عسكر مصر وبقية العساكر قاطبة فأسر الأمير يشبك وهو راكب على ظهر فرسه فأتوا به إلى بايندر " بعد أن قتل من الأمراء ما لايحصى " وقتل من العساكر التى كانوا مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم فكانت حوافر الخيل لا تطأ الا على جثث القتلى من العسكر ... " " و أما ما كان من أمر يشبك الداودار فانه أقام عند بايندر فى الأسر ثلاثة أيام ثم فى اليوم الرابع بعث إليه بعبد أسود من عبيد التركمان قطع رأسه تحت الليل و أحضرها بين يدى بايندر " .

" لما ورد هذا الخبر على السلطان اضطربت أحواله وماجت القاهرة عن آخرها وكان يوما مهولا " " ثم أن السلطان عين الأتابكى أزبك إلى السفر إلى حلب ... قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب ولولا فعل ذلك لخرج من يده غالب جهات حلب .. "

الأتابكى أزبك بعد أن وصل إلى حلب " أرسل جانى بك حبيب قاصدا إلى عند يعقوب ابن حسن الطويل فتلطف به فى الكلام وكان جانى بك حبيب سيوسا دربا حلو اللسان فأكرمه يعقوب وأجله ثم أطلق من كان عنده من الأمراء ... فسلمهم جانى بك حبيب فأتى بهم إلى حلب صحبته " .

" سقطت صاعقة عظيمة فى أواخر الليل على المسجد الشريف النبوى فاحترق منها المنارة التى تجاه القبر الشريف واحترق سقوف المسجد جميعها والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب وما سلم من ذلك سوى القبة الشريفة وبعض حيطان المقصورة وقتل المؤذن الذى كان على المئذنة وقت نزول الصاعقة .....

وتعجب الناس لهذه الواقعة كيف جرت فى مثل هذا المكان الشريف .... ثم أن السلطان شرع فى تجديد عمارة المسجد الشريف فعين الخواجا شمس الدين حمد بن الزمن بأن يتوجه إلى المدينة الشريفة لعمارة المسجد .... حتى انتهى من العمل فى أواخر سنة سبع وثمانين وثمانمائة فجاء غاية فى الحسن و أجل الأبنية و أعظمها حتى قيل أن السلطان أصرف على بنائه نحوا من مائة ألف دينار " .

من أين يأتى السلطان بكل تلك الأموال

" أخلع السلطان على شخص من الأراذل كان أصله من العوام يقال له محمد بن العظمة وكان صنعته فران ثم سعى له عند السلطان وسائط السوء بأن يقرره فى نظر الأوقاف ... فلما استقر فى الوظيفة حصل على الناس منه غاية الضرر الشامل فالتزم للسلطان بمال يورده كل شهر ... فصار يرسل خلف أعيان الناس من رجال ونساء ويرسم عليهم بسبب الأوقاف ويحاسبهم على الماضى والمستقبل ويأخذ منهم جملة مال وصار بابه أنحس من باب الوالى والتف عليه جماعة من المناحيس وصاروا يفرعون له الأذى تفريعا .. وكان هذا فى صحيفة الأشرف قايتباى الذى قرب مثل هذا وسلطه على الناس فكان يرد هذه الأموال للسلطان لا يدرى هى من حلال أو حرام " .

واستكمالا لمسلسل أرزال ذلك الزمان

" فى هذه الأيام تزايد شر جماعة من المماليك الجلبان وصاروا يأخذون شىء الناس ببلاش من دكاكين التجار وغيرهم وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل " .

ما أشبه اليوم بالبارحة .. أم هو داء مستوطن لدى من يتولون السلطة بمصر .

ولنتابع دروس التاريخ

" ثار من المماليك الجلبان وتوجهوا إلى دار برسباى قرا ونهبوا كل ما فيها و أحرقوها عن آخرها ونهبوا الربوع التى بجوارها و أحرقوها حتى نهبوا بسط المدرسة الأبو بكرية والقمرية حتى أخذوا القناديل التى بهما وكانت مصيبة شنيعة وهى أول فتك الجلبان بالقاهرة و استخفافهم بالسلطان واستمرت الفتن من يومئذ تتزايد .... "

" وكان سبب كابيه برسباى قرا أن شخصا من المماليك الجلبان دخل إلى سوق الشرب ليشترى ثوب بعلبكى من بعض التجار فتعترس عليه وضربه ضربا مبرحا و أخذ منه الثوب البعلبكى غصبا فشكاه التاجر من باب برسباى قرا وكان يومئذ رأس نوبه النواب الثوب فطلب ذلك المملوك فلما حضر قامت عليه البينة بما فعل فى سوق الشرب فأدبه برسباى قرا وضربه بين يديه ... فلما بلغ خشداشيته ذلك ثاروا على برسباى قرا وفعلوا به ما فعلوا وراحوا يحرقون سوق الشراب .... ثم أن الأتابكى أزبك مشى بين المماليك الجلبان وبين برسباى قرا بالصلح".

ومن أرزال الناس أيضا

شمس الدين الحليبى رأى كتاب النصوص لابن عربى فقال " هذا الكتاب ينبغى أن يحرق و أن ابن عربى كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبده الأوثان فقال له بعض الحاضرين كيف تحرق كتاب النصوص وفيه آيات من كتاب الله تعالى ؟ فقال و لو كان فمسكوا عليه ذلك و أرادوا تكفيره وكشفوا رأسه .. ثم حكم بإسلامه وحقن دمه "

وهكذا تكون نتيجة تحكم الأرزال

" كان عيد النحر يوم الجمعة وكانت الأضحية مشحوتة وغالية بسبب قلة الجالب من أذى المماليك الجلبان " و " كثر الأذى من العبيد والزعر وكثر قتل القتلا حتى أن شخصا من البياطرة قتل بالجزيرة الوسطى و لا يعلم من قتله ووجد شخص من المماليك الإينالية مقتولا بمنزله و لا يعلم من قتله وغير ذلك جماعة كثيرة .... "

ثم يطمع الخارج فى الداخل

عين السلطان تجريده إلى حلب " وكان سبب تعيين هذه التجريده أن السلطان قد بلغه أن أبن عثمان ملك الروم قد أمد على دولات بن ذلفادر بعساكر كثيرة وهذا أول تحرك ابن عثمان فى بلاد السلطان واستمرت الفتن من بعد ذلك تتزايد " .

" العسكر الذى خرج من القاهرة قد تقاتل مع على دولات أفى سوار وقد كسر العسكر وقتل منهم جماعة كثيرة من الجند ومن الأمراء ... ومن أمراء الشام ... "

تجريده أخرى خرجت للقتال بها نحو ألف مملوك و انضم لها قانصوه الغورى الذى سوف يكون له دور أكبر بعد ذلك . وقبض السلطان على " محمد بن العظمة ناظر الأوقاف وسلمه إلى خشقدم الزمام وألزمه بعمل الحساب " و أعاد ترتيب قياداته فى محاولة لتجاوز الأزمة . وهكذا " الأمير تمراز ركب هو و ازدمر أمير مجلس والعسكر وتوجه إلى نحو على دولات فاتقع معه فانكسر على دولات هو وعسكر بن عثمان ونهب جميع بركهم و أخذوا صناجق ابن عثمان ودخلوا بها إلى حلب وهى منكسة " .

أما محمد بن العظمة فقد ضربه السلطان " بالمقارع فى وسط الحوش وكتب عليه قسامة أن لا يعود قط يسعى فى نظر الأوقاف ومتى سعى يكون دمه قد هدر ثم بعث به إلى سجن المقشرة".

كذلك " رسم السلطان بقطع يد مملوك من جلبانه وقد سرق غير ما مرة فلما أرادوا قطع يده شفع فيه بعض الأمراء فحنق منه السلطان فرسم بقطع رجليه أيضا "

سياسة السلطان كانت الترغيب والترهيب سياسة ورثها عن من سبقه من حكام مصر و أورثها لمن بعده .

فهو قد جهز لعلى دولات تجريده أخرى كلفته زيادة على مائة ألف دينار ثم تجريده أكبر بقيادة " الأتابكى أزبك ومعه تسعة أمراء مقدمين وثلاثة آلاف جندى وكانت هذه التجريدة من أعظم التجاريد "

و أرسل جانى بك حبيب ـ الذى سبق وفك أسر من كانوا لدى يعقوب بن حسن الطويل بحسن سياسته ـ إلى ابن عثمان ومعه هدايا قيمتها تزيد عن عشرة آلاف دينار بالإضافة إلى هدايا أخرى كان قد أرسلها ملوك الهند لابن عثمان و " احتاط عليها نائب جده و أحضرها صحبته إلى السلطان وكان فى جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مثمنة فطمع السلطان فى تلك الهدية و أخذ الخنجر " .

ولكن هل نجحت سياسة قايتباى وتغييراته فى إحداث تحسن

جانى بك حبيب عاد من مهمته ثم " خلا بالسلطان و أخبره عن أحوال ابن عثمان بأنه غير راجع عن أذاه لعسكر مصر و أنه لم يرضه إقبالا و لا أكرمه و أنه غير ناصح للسلطان " .

" وعساكر ابن عثمان استولى على أطراف بلاد السلطان و أرسل أزدمر نائب حلب " يستغيث بالسلطان .

أما على دولات فقد " أرسل يسأل فى الصلح بعدما اتسع الخرق على الراقع " .

تجريده الأتابكى ازبك فى أول صدام لها " تقاتلت مع عسكر ابن عثمان فكان النصرة بها لعسكر مصر على عسكر بن عثمان وقتل منهم جماعة كثيرة نحو من أربعين ألف من توابع عسكره وقبض على أحمد بك ابن هرسك وكان من أجل أمراء بن عثمان و أودع الحديد " .

" وقد أخذ العسكر المصرى فى النهب ما لا يحصى من خيول وسلاح وبرك وغير ذلك ... وقطعت عدة وافره من رؤوس عساكر بن عثمان ... "

ولكن السلطان كسرت رجله بعد أن سقط من فوق فرس حرون كان " يركبه فى الحوش فشب به و انقلب على السلطان " لم يمنعه هذا من مزاولة أعماله من فوق سريره حتى شفى ونزل إلى الجامع بعد ثلاثة وخمسين يوما من الحادث .

تجريده الأتابكى أزبك عادت إلى القاهرة " وكان قدامهم الأسرى من عسكر بن عثمان وهم مشاة فى زناجير وصناجق ابن عثمان منكسة وكان صحبتهم جماعة من أمرائه وهم فى زناجير على خيول والأمير أحمد بن هرسك وفى عنقه زنجير فلما عرضوا على السلطان عاتب ابن هرسك ووبخه بالكلام ثم سلمه إلى الأمير قانصوه خمسمائة " .

المماليك الجلبان ثاروا أكثر من مرة " بسبب تسعير البضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك " " وصاروا جماعة من المماليك الجلبان يقفون للأمراء بسلم المدرج ويقولون لهم قولوا للسلطان ينفق علينا وإلا يقع منا فتنة كبيرة وصاروا يغلظون القول " " ثار جماعة من الجلبان على السلطان ولبسوا آلة الحرب و أشهروا السلاح فاضطربت الأحوال ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم فى الحواصل وغلقت الأسواق والدكاكين وجاءت الذعر أفواجا أفواجا " " وكان قبل ذلك توجه جماعة من المماليك الجلبان إلى بيت أقبردى الدوادار وتكلموا معه فى أن يتكلم مع السلطان بأن ينفق عليهم بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم على عسكر بن عثمان و أن يعمل مصالحهم فى مرتب اللحم والعليق " السلطان رفض فثاروا عليه و " اتسعت الفتنة وغلقت الأمراء أبوابها " . الأتابكى ازبك اجتمع مع السلطان " فتقرر الحال على أنه ينفق عليهم على كل مملوك منهم خمسين دينارا ثم نادى فى القاهرة بأن النفقة ستكون فى أول السنة الجديدة فخمدت هذه الفتنة " . و ان كانت " الأسعار مشتطة فى سائر البضائع وتشحط الخبز من الدكاكين . . . . وصار الغلاء فى المأكول والمشروب هذا والمماليك قد طغوا فى حق الناس وتزايد بهم الضرر الشامل والعربان قد تزايد شرورهم فى البلاد من الشرقية والغربية وابن عثمان فى غاية التحرك على البلاد الحلبية والسلطان فى غاية الظلم والمصادرات للناس بسبب خروج التجريده إلى ابن عثمان ثانيا ...." فأخذ من التجار أربعين ألف دينار و " أحضر بطرك النصارى ورئيس اليهود وقرر على طائفة اليهود والنصارى مالا له صورة بسبب خروج التجريده إلى ابن عثمان وهذا أول فتح باب المصادرات للناس "

" جاءت الأخبار من حلب بأن أبا يزيد بن عثمان جهز عسكرا وقد وصل إلى أدنه فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله " .. فجهز الأتابكى أزبك باش عسكر ومعه أربعة آلاف مملوك وإحدى عشر أميرا بالإضافة إلى ستين رئيسا ثم أرسل فرق استطلاع لتقدير الموقف مع إرسال جباه لجمع الأموال من عرب نابلس توطئة لمواجهة ابن عثمان ثم جاءت الأخبار أن " عساكر ابن عثمان قد استولى على قلعة اياس من غير قتال ولا مانع " وهكذا جهز التجريده فأنفق عليها ألف ألف دينار " ولم يسمع ذلك فيما تقدم من الدول الماضية أن أحدا من السلاطين فعل مثل ذلك " " فلما أخذوا المماليك النفقة أطلقوا فى الناس النار و أخذوا الأبغال والخيول حتى أكاديش الطواحين وحصل منهم الضرر الشامل فى حق التجار وغير ذلك " حتى خرجت التجريده من الريدانية " ولم تخرج من مصر تجريده أعظم من هذه حتى ولا فى أيام برقوق " .

" ابن عثمان بعث بنحو ستين مركبا من البحر المالح وهى مشحونة بالعساكر و آلة السلاح " للالتفاف خلف القوات المصرية ولكن " بعث الله تعالى عليهم بريح عاصف فأغرق غالب تلك المراكب فى البحر المالح والذى فر من العثمانية وطلع إلى البر فقتلهم العسكر المصرى ... وكان هذا على غير قياس " .

" فى الثامن من رمضان وقعت معركة عظيمة بين عسكر مصر والعثمانية وقتل من الفريقين مالا يحصى .... وقد هزموا العثمانية وغنموا منهم عسكر مصر أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك " . " وصل مقلباوى .... وصحبته عده روس ممن قطعت من عسكر ابن عثمان وكانوا نحوا من مائتى راس " " عسكر ابن عثمان بعد ما حصل له هذه الكسرة عاد إلى أدنه والعسكر المصرى شرع فى حصارهم بها " حتى أخذها العسكر المصرى بالأمان بعد معارك طويلة دامت لثلاثة أشهر .

" صار العسكر من المماليك السلطانية يدخلون القاهرة شيئا فشيئا قبل حضور الأتابكى أزبك .... وبلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من التجريده يقصدون أن يثيروا فتنة كبيرة ويطلبوا من السلطان نفقة بسبب هذه النصرة "

" السلطان اجتمع بالقضاة الأربعة وذكر لهم أن الخزائن نفذ ما كان بها من المال ... فاتفق الحال على أن يفرضوا على أرباب الأملاك والأوقاف التى بمصر والقاهرة أجره شهرين مساعدة للسلطان على النفقة ".

عندما عاد الأتابكى أزبك ومن كان معه مسافرا فى التجريده " صمموا على أخذ نفقة لكل واحد مائة دينار ... " " قال السلطان للقضاة والأمراء هذه المماليك يرومون منى نفقة وقد نفذ جميع ما فى الخزائن من المال على التجاريد ثم أقسم بالله أنه قد أنفق من حين ولى السلطة والى الآن سبعة آلاف آلاف دينار ومائة وخمسة وستين ألف دينار ثم قال للأمراء اختاروا من تسلطنوه غيرى .... ثم قام وقال للقضاة اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من السلطنة .... " " تعلق به القضاة ومنعوه من ذلك وشرع قاضى قضاة المالكية يبكى ... وصار يتفارش ويتترب " .

وبعد مفاوضات مع المماليك الجلبان " تقرر الحال بعد جهد كبير على أن السلطان ينفق على الجلبان لكل واحد منهم خمسين دينارا من ذلك أربعين دينارا معجلا ويتأخر عشرة عليهم بعد مضى شهرين " .

تجريده أخرى خرجت إلى البلاد الشامية بعد أن استغاث نائب حلب " بأن عسكر ابن عثمان لما بلغهم رجوع العسكر المصرى طمع فى أخذ البلاد الحلبية "

" فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحوا من خمسمائة ألف دينار وكانت هذه التجريده آخر تجاريد الأشرف قايتباى إلى ابن عثمان وغيره ولم يجرد بعدها أبدا " .

" خرج الأتابكى أزبك من القاهرة قاصدا للبلاد الحلبية وصحبته .... زيادة على الخمسين أميرا أما المماليك السلطانية فكانوا زيادة على ثلاثة آلاف مملوك .. .. "

" زحف العسكر المصرى على أطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا إلى قيسارية وقتلوا بها ونهبوا عده من ضياعها و أحرقوها ثم فعلوا مثل ذلك بعده أماكن .... " ثم أن " العسكر على حصار قلعة كواره ... ثم أخذت وهدمت إلى الأرض " .

" تكاثر دخول العسكر إلى القاهرة من غير تستر وقد جاءوا طالبين وقوع فتنة وصرحوا بذلك ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريده يصعد إلى القلعة فامتنع المماليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة ...."

" كان دخول الأتابكى أزبك ومن معه من الأمراء والعسكر ... وهذه آخر تجاريد الأتابكى أزبك إلى البلاد الحلبية " .

الحروب والإنفاق على المماليك التى لا ترتوى أبدا جعل خزينة قايتباى فارغة دائما .. ولكى يوقف عصيان مماليكه فرض أخذ الضرائب والرسوم والإيجارات لخمسة أشهر مقدما وصاحب ذلك عنف وظلم " وكانت هذه المصيبة عامة على الناس حتى أخذ من أوقاف البيمارستان خمسة أشهر وانقطع معلوم الأيتام والضعفاء فى رواتبهم عن مدة خمسة أشهر وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والترب وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية .. وفى دمشق أظهر بها من المظالم

أشياء كثيرة .... " " أرسل السلطان مراسيم إلى نائب الشام بأن يجمع أعيان التجار بها وسائر الناس ويفرض عليهم الأموال الجزيلة ... كل حسب مقامه مساعدة للسلطان على خروج تجريده كما فعل فى مصر " "وكتب بذلك المعنى المراسيم إلى الإسكندرية ودمياط .... " .

ابن عثمان أرسل قاصدا " يقال له شيخ على جلبى فلما صعد إلى القلعة أكرمه السلطان وبالغ فى تعظيمه جدا فأحضر على يده مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استولى عليها فسلمها إلى السلطان و أشيع أمر الصلح بين ابن عثمان والسلطان " .

السلطان أطلق سراح الأسرى بعد أن كساهم و أحسن إليهم " وتوجهوا إلى بلادهم صحبه القاصد لما سافر " .

وهكذا وقع الرخاء بالديار المصرية فى سائر البضائع ... ورخص سائر الغلال جدا ولكن الطاعون كان له رأى آخر فبعد 16 عاما من آخر طاعون أصاب البلاد جاء ثالث طاعون وقع فى دولة الأشرف قايتباى " وكان طاعونا مهولا " بدأ " من حلب وكان فى مدة انقطاع الطاعون عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر و أكل الرباء وجور المماليك فى حق الناس " ولقد مات منه " نحوا من مائتى ألف إنسان وزيادة " . منهم " اثنى عشر ألف بنت بكر فى مصر والقاهرة والضواحى " . وفى رأى ابن إياس عن العلامة شهاب الدين ابن حجر أن " الزنا حده إزهاق الروح فى المحصن فإذا لم يقم فيه الحد فيسلط الله تعالى الجن عليهم يقتلونهم ولما كان الزنا يقع من بنى آدم سرا فسلط عليهم الجن يقتلونهم سرا من حيث لا يرونهم وقاعدة العذاب انه إذا نزل يعم المستحق له وغيره " " وقال بن مسعود رضى الله عنه ... وإذا كثر الزنا وقع الطاعون .... "

وما أن انتهى الطاعون حتى نشب حريق مهول استمر ثلاثة أيام فى القلعة " فى حواصل السلطان التى عند قاعة البحره وكان فيها خيام كثيرة فاحترق غالبها .... فقومت الخيام فكانت بنحو من مائتين ألف دينار وقيل بل أكثر " " ثم أشيع بعد ذلك أن النار كانت من مطبخ بيت الخليفة .. فعند ذلك رسم السلطان للخليفة بأن ينزل من القلعة ويسكن بالمدينة ".

" الحاج الشامى لما رجع إلى الشام خرج عليه فى أثناء الطريق طائفة من عربان بنى لام فاحتاطوا على الركب عن آخره وسبوا الحريم ونهبوا الأموال و أسروا أمير الركب وكان أمرا مهولا " .

" هجم المنسر على سوق باب اللوق وأخذ منه أشياء كثيرة من القماش والأمتعة وقتل تحت الليل جماعة من أرباب الإدراك .... " ثم تكرر ذلك فى الحسينية وسوق التجار بابن طولون. ثم بدأت صحة السلطان قايتباى تتدهور " وظهر عليه أشاير الموت فضرب الكره فى هذه السنة ضربا هينا بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من قوة فسبحان مغير الأحوال " .

مع نهاية القرن التاسع الهجرى وبداية القرن العاشر 901 هـ

" إن السلطان نادى للعسكر بالعرض فلما طلعوا إلى القلعة أحضر لهم المصحف الكبير العثمانى وحلفهم عليه قاطبة وكذلك الأمراء أن لا يخرجوا عن طاعته ولا يخالفوه فيما يريد ثم نفق عليهم نفقة كاملة ... فبلغت هذه النفقة زيادة على الأربعمائة ألف دينار " " مال هذه النفقة كان مجهزا حاضرا وهى الخمسة أشهر التى أخذها من أجرة الأملاك والأوقاف ومن أوقاف الجوامع والمدارس والبيمارستان وصادر فيها طائفة اليهود والنصارى وتجار الفرنج وتجار المغاربة والبرالسة وغير ذلك من أعيان التجار ومشاهير الناس .... فلما خمدت فتنة ابن عثمان التى كانت سببا لذلك فما وفقه الله تعالى أن يرد للناس ما أخذه منهم كما فعل الأشرف برسباى " " والأشرف قايتباى جمع هذا المال من وجوه المظالم وحصل للناس بسبب ذلك مشقة زائدة فأخرجه فى غير مستحقه " .

" ثم أن السلطان زاد به الألم وقوى عليه أمر الإسهال المفرط وعجز عن الحركة " " فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه من ذى القعدة 901 طلع الأتابكى تمراز إلى القلعة ودخل على السلطان فى المبيت فوجده فى السياق فقال له يا مولانا السلطان إن الأحوال قد فسدت ومن الرأى أن تسلطن سيدى .. فلم يرد عليه السلطان جوابا فأخذ سيدى ابن السلطان ونزل إلى باب السلسلة فأجلسه فى المقعد الذى هناك وجلس معه ليوليه السلطنة " المماليك هاجمت الأتابكى تمراز وقبضوا عليه وقيدوه وسجنوه بالبرج ونزلوا به وهو مقيد بقيدين .. ثم اتفقوا على سلطنة ابن قايتباى محمد .

" يوم السبت سادس عشرين اجتمع الأمراء والعسكر بباب السلسلة و أرسلوا خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله ... والقضاة الأربعة ... تكلموا فى خلع الأشرف قايتباى بحكم أنه قد أشرف على الموت فبايعه الخليفة بالسلطنة عوضا عن أبيه " .

" يوم الأحد كانت وفاة الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى وله من العمر أربعة وثمانين سنة .... وكانت مدة سلطنته تسعة وعشرين سنة و أربعة أشهر وواحد وعشرين يوما " حارب خلالها " شاه سوار وحسن الطويل و ابن عثمان " و أنشأ مع ذلك الكثير من المبانى الفاخرة فى الحجاز وبيت المقدس ودمشق والإسكندرية وغزة وفى القاهرة جامع الصحراء مكان تربته وجامع الروضة وجامع الكبش وجامع باب الخرق والسبيل والمكتب قرب سوق تحت الربع ومدارس و أسبله وصهاريج وخانات وقناطر وربوع وحوانيت وله " عدة أماكن قد أنشأها وحصل بها النفع للمسلمين "

" وكانت محاسنه أكثر من مساوئه وكان خيار ملوك الترك بالنسبة لمن جاء من بعده من السلاطين " .

سلطنة الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد

" صاحب اللقبين وقد تلقب أولا بالناصر ثم تلقب بالأشرف ابن الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى الظاهرى و هو الثانى والأربعون من ملوك الترك و أولادهم فى العدد وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة و أولادهم بالديار المصرية " .

" وكان له من العمر أربعة عشر سنة و أشهر وقد قارب البلوغ " .

بدأ السلطان الجديد عهده بأن عين قانصوه خمسمائة فى الأتابكية عوضا عن تمراز الذى تم سجنه و أحدث بعض التعديلات الأخرى التى أرضى بها مماليك قانصوه على حساب آقبردى الدوادار ورجاله المنافسين لقانصوه خمسمائة .

" كثرت الإشاعات بوقوع فتنه فبادر قانصوه خمسمائة وقبض على جماعة من طائفة الاينالية " ونفاهم إلى الشام ثم ظل يطارد آقبردى الدوادار ورجاله وينفى الأمراء والمماليك المنافسين حتى تغلب عليهم " و عظم أمر الأتابكى قانصوه إلى الغاية . حتى لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ولا صلاة الجمعة " .

ثم " كانت نفقة البيعة - ... فنفق على الجند كالعادة ... و أحضر السلطان المصحف العثمانى وحلف عليه سائر الأمراء والعسكر ولم يطلع الأتابكى قانصوه خمسمائة و لا حلف ولكن طلع بعد أيام وحلف أيمانا غير صادقة .... "

السلطان الصغير كان يلعب مع أولاد العامة وله تصرفات طائشة منها أنه ضرب امرأة بالمقارع وشهر بها على حمار على خلاف العادة لذلك وكل به عدد من المشرفين يمنعونه من اللعب والتصرفات الغير مناسبة له كسلطان حتى أن تانى بك الجمالى نظام الملك كان يبات كل ليلة بالقلعة " ومع ذلك فما أرعوى ولا حصل من هذا طائل وزاد من الطيشان حتى خرج فى ذلك عن الحد ... "

قانصوه خمسمائة لما وجد أنه المصرف لجميع أمور الدولة و أن السلطان الطفل لا يمثل قوة حاول أن يستولى على الحكم وفعلا بايعه الخليفة والقضاة وعدد من الأمراء والعسكر .. ولكن عندما حاول القبض على الملك الصغير تعصب له مماليك والده و أقاربه وحاربوا قانصوه خمسمائة حتى انهزم وهرب ولكنه أصيب أثناء الهرب فأغمى عليه فحمله غلمانه ثم اختفى .

" فلما انكسر قانصوه خمسمائة وخرج من باب السلسلة على أنحس حال نزل المماليك الجلبان ونهبوا كل ما وجدوه من سلاح وقماش وغير ذلك ونهبوا طستخانات الأمراء والخليفة وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم وكانت هذه النصرة للملك على قانصوه على غير قياس " .

الخليفة والقضاة طلعوا إلى القلعة لتهنئة السلطان بهذه النصرة ثم أن الخليفة أعاد الملك الناصر إلى السلطنة وبايعه ثانيا ... "وقيل أن الملك الناصر رشد فى ذلك اليوم وثبت رشده و أباحوا له التصرف فى المملكة بما يختار ".

الملك الجديد أعاد ترتيب أوراقه فأخرج عن تمراز وعينه أتابكى بدلا من قانصوه و أمر بتعيين أقاربه و أنصاره فى الوظائف الهامة والقبض على أنصار قانصوه فاضطربت الأحوال " وتزايد

فساد العربان فى الطرقات والقاهرة مائجة بأهلها يترقبون وقوع فتنة كبيرة " وهجم المنسر على سوق أمير الجيوش " و أماكن أخرى ونهبوا منها أشياء كثيرة .

قانصوه خمسمائة ظهر بعد ذلك ومعه شيعته من أمراء ومماليك واحتلوا قصر الأتابكى أزبك فى الأزبكية ولكن الأتابكى تمراز طاردهم فهربوا إلى غزة عازمين على مقاتلة آقبردى الدوادار ... فى خان يونس كانت المعركة بين الأميرين المتنافسين انتهت بهزيمة قانصوه وقتل معظم قواته و أسر حوالى مائتى مملوك وزيادة على عشرين أمير .. الملك أمر بقتل الأمراء وعفى عن المماليك وهكذا دخلت رأس قانصوه ورؤوس أمراءه على الرماح " وخمدت فتنة قانصوه خمسمائة " الملك بعد ذلك طارد كل من " أظهر البشر والفرح " يوم عزله وسلطنة قانصوه ومنهم القاضى كاتب السر بدر الدين بن مزهر الذى عذبه ووقع عليه غرامة لم يستطع تسديدها .

وللمرة الثانية " السلطان عمل الموكب وحضر الأتابكى تمراز و .. ثم أحضر المصحف العثمانى إلى القلعة " فحلفوا " بأنهم لا يخامروا ولا يعصوا ولا يركبوا على السلطان " .

أما خاله قانصوه فقد زاد نفوذه وقويت شوكته " وقد صار السعى لأرباب الدولة من بابه واجتمعت فيه الكلمة " . منافسا آقبردى الدوادار العائد منتصرا من خان يونس انتهت المنافسة إلى معركة بين الاثنين ومحاصرة آقبردى للقلعة " وصار الحرب ثائرا بين الفريقين " ومناصريهما من العربان " فكانت الأتراك تنقع مع بعضها العربان تنقع مع بعضها " حتى " انكسر آقبردى كسره مهولة فهرب إلى البلاد الشامية " .

" قال بعض المؤرخين لم يقع فى مصر من يوم فتحها وهلم جرا مثل واقعة آقبردى الدوادار ... وفى مدة المحاصرة كانت الأسواق معطلة والدكاكين مقفلة وامتنع البيع والشراء ولم تظهر فى تلك الأيام امرأة بالأسواق ولا الطرقات وكثر القتل والنهب وكانت القاهرة مائجة والناس فى أمر مريب "

و أصبحت القاهرة بعد هروب آقبردى إلى الشام غير آمنة بسبب المماليك حتى أن الأتابكى تمراز بنفسه " لاقاه طائفة من المماليك الجلبان فقنطروه من على فرسه فوقع على الأرض ... فنزعوا أثوابه من عليه وضربوا رأسه بالسيف فلم تنقطع فكسروها حتى تخلصت عن جثته " وكان عمره ثمانين عاما !! " واضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ونزلوا المماليك الجلبان وعطعطوا فى المدينة وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت حتى نهبوا الربوع التى هى سكن العوام ... ونهبوا بيوت اليهود .. واستمر النهب والقتل عمالا ثلاثة أيام متوالية ولم يجدوا من يردهم عن ذلك .. " " فقتل من الجند والعرب حول ألف إنسان فلا حول ولا قوة إلا بالله ".

السلطان بعد أن هدأت الأحوال أعاد ترتيب أوراقه فعين خاله قانصوه فى الدوادارية الكبرى وأرسل فى طلب الأتابكى أزبك من مكة ليتولى الأتابكية بدلا من تمراز الذى قتل ووزع المناصب التى خلت على أنصار خاله المنتصرون .

أما الخليفة المتوكل فقد اشتد مرضه ثم توفى وولى الخلافة بعده " ولده الشرفى يعقوب " وكان قد بلغ الرابعة والثمانون عندما توفى بعد أن ظل خليفة لمدة تسعة عشر عاما . أما ولده الذى ولى الخلافة باسم أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب ابن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله فقد " كان نحو من خمسين سنة " واستمر فى الولاية مدة طويلة .

آقبردى الدوادار الذى هرب إلى الشام ومعه ألف مملوك " حاصر الشام وقصد يملكها فما قدر على ذلك فنهب الضياع التى حول دمشق و أخرب غالبها وفعل ذلك بضياع حلب فوقع الاتفاق من الأمراء على خروج تجريده له فنفق السلطان على العسكر المعين لها " ومع أن أمراء دمشق وحلب قاوموه " ففر ومن كان معه من الأمراء والعسكر ... وتوجهوا إلى على دولات فالتجأوا إليه " إلا أن التجريده بقيادة كرتباى الأحمر الذى تقرر فى نيابة الشام وجانبلاط يشبك الذى تقرر فى نيابة حلب خرجت متوجهة إلى الشام كما كان مقررا لها .

الأتابكى أزبك حضر من مكة بعد " غيبته سنتين وثلاثة أشهر و أيام " وتولى الأتابكية عوضا عن تمراز الشمس .

ومع ذلك استمر المماليك فى غيهم وقتالهم بعضهم لبعض " وجاروا على الناس بخطف القماش من الدكاكين والبضائع من الأسواق وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء " .

ولم يوقفهم إلا الطاعون الذى تسبب فى خروج ثمانمائة جنازة يوميا حتى وصل ضحاياه إلى مائتى ألف إنسان " من المماليك والأطفال والعبيد والجوار " منهم ألف ومائتين مملوك سلطانى فى مدة ثلاثة شهور .

أما التجريده التى تعقبت آقبردى الدوادار إلى بلاد على دولات " اتقعوا معه هناك فانكسر كسرة مهولة وقتل من عصبته جماعة كثيرة ... وقتل لعلى دولات ولدان ... " فهرب آقبردى ومن معه من الأمراء ومن بقى من العسكر إلى الفرات . وأرسلت عدد من رؤوس القتلى إلى القاهرة فعلقت على أبواب المدينة . ثم عادت التجريده ومع عودتها عاد آقبردى إلى ما كان عليه " وصار ينهب البلاد ويقطع الطريق على التجار فلما بلغ الأمراء بذلك أعياهم أمره " وطالب المماليك السلطان أن ينفق عليهم بسبب نصرته على آقبردى " وطلعوا الرملة وحاصروا السلطان بالقلعة " .... حتى وافق لكل مملوك خمسين دينارا .. و لأن الخزينة فارغة فانه أوكل خاله بجمع الأموال " فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسم وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك فكثر الدعاء على الناصر وخاله " .. " ولما تكامل جمع الأموال ابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على الجند " .

وهكذا عانى الناس من الغلاء والفناء والمصادرات وجور السلطان و أذى المماليك " وقد صارت الناس فى غاية الاضطراب وما كفى هذا كله حتى فشى فى الناس داء يقال له الحب الأفرنجى ـ أعاذنا الله منه ـ وقد أعى الأطباء أمره ولم يظهر هذا بمصر قط سوى فى أوائل هذا القرن 903 هـ ومات به من الناس ما لا يحصى " .

وكان الناصر فتى نزق " اذا رأى امرأة جميلة فى بيتها يهجم عليها ويطلع لها الطاق و يأخذها غصبا يضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته ".

" وكانت أيام الناصر كلها فتن وشرور وقلاقل ... وكل هذا عقل الصغار ووسائط السوء التى كانت حوله " . " وتغيرت عليه خواطر الأمراء قاطبة وهو فى غفلة مما يراد به وقد حقدوا عليه مما يقع منه من الأفعال الشنيعة " .

وقد قتله المماليك بعد ذلك " فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه فلم يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام نحو من خمسين مملوكا وهم لابسون آلة السلاح فاحتاطوا

وعالجوه بالحسام قبل الكلام فقتلوه أشر قتلة .... وقتلوا معه أولاد عمه جانم وأخيه جانى بك وكانا شابان جميلان الهيئة " .

" فلما قتل صارت جثته مرمية على الأرض هو ومن قتل معه فلما دخل الليل حملوه جماعة شيخ الطالبية وأدخلوه فى مسجد هناك وألقوه على حصير وهو مخبط فى دمه ... فلما جاءت الأخبار إلى القاهرة .. اضطربت أحوال المدينة ولبس العسكر لامة الحرب وباتوا تلك الليلة فى اضطراب " " قتل وله من العمر نحو سبع عشرة ... ولقد كان جاهلا عسوفا سفاكا للدماء سىء التدبير كثير العشرة للأوباش ... وسار بالمملكة أقبح سير ... وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما " .

سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه بن قانصوه الأشرفى

" وهو الثالث و الأربعون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو السابع عشر من ملوك الجراكسة و أولادهم فى العدد " .

" فلما قتل الناصر وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يلى السلطنة بعد الناصر فاجتمع الأمراء بدار الظاهر تمريغا وحضر الأتابكى أزبك وبقية الأمراء " وعرض السلطة على أزبك ولكنه رفضها " ثم حضر قنصوه خال الملك الناصر .... فوقع الاتفاق على سلطنته وكان القائم فى ذلك طومان باى الدوادار الثانى " وكان عمره دون الثلاثين سنة .

جزاء طومان باى على التآمر لقتل الملك ثم ترشيح قانصوه للسلطنة أن عينه الملك الجديد فى الدوادارية الكبرى عوضا عن نفسه ثم أضاف له بعد ذلك الوزارة والاستادارية بينما ثار عليه مجموعة من المماليك الناصرية " ورجموه من الطباق وقصدوا قتله غير ما مرة وقد أشيع عنه أنه كان سببا لقتل الناصر " .

وكالعادة أعاد الملك الجديد ترتيب أوراقه وتعيين خلصائه و أتباعه فى الوظائف الهامة والقبض على معارضيه وسجنهم واستخلاص أموالهم ومصادرتها .

من الشام جاءت الأخبار " أن آقبردى الدوادار قد حاصر حلب أشد المحاصرة و أحرق ما حولها من الضياع و أشرف على أخذ المدينة بعد أن " التف عليه الجم الغفير من التركمان وحصل منه غاية الضرر فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريده ثقيلة إلى آقبردى وكان باش العسكر تانى بك الجمالى أمير السلاح " .

السلطان الجديد كان عليه دفع نفقة البيعة على الجند ولهذا " كثرت المصادرات للمباشرين و أعيان الناس بسبب النفقة وقد عجز السلطان عن سدادها " .

أما الأمير طومان باى الدوادار فلقد عاد " من السرحة التى سرحها نحو بلاد الصعيد و أحضر صحبته من الأغنام فوق الربعة آلاف رأس زعموا أنها من أغنام عرب عزالة " و " احتال على حميد بن عمر أمير عربان هوارة فلما ظفر به قتله وحز رأسه وأرسلها إلى مصر فعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام " .

الأتابكى أزبك توفى " وله من العمر نحو من خمس وثمانين سنة " " فوضع السلطان يده على تركته من صامت وناطق قيل وجد له من الذهب العين ستمائة ألف دينار وقيل سبعمائة ألف دينار خارجا عن البرك والخيول والقماش والتحف ... وقد قوم ذلك بنحو مائة ألف دينار محمل ذلك جميعه إلى الخزائن الشريفة " .

عرب عزالة ردا على نهب أغنامهم تحركوا فى اتجاه القاهرة حتى طرة " ثم نزلوا بالمعيصرة وهى ضيعة هناك فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريده ....فأتقعوا معهم واقعة مهولة .. فانكسروا الأتراك وتشتتوا وقتل من المماليك السلطانية نحو الخمسين مملوكا ومثل ذلك من الغلمان والعبيد وجرح رأس نوبة النوب فى وجهه وجرح من العسكر ما لا يحصى ثم أن العرب نهبوا بركهم عن آخره وتوجهوا نحو الصعيد " .

الأمير طومان باى عندما علم بما حدث من عرب عزالة " فكبس عليهم فى مكان بالوجه القبلى وقبض على جماعة منهم نحو من ثلثمائة إنسان من رجال ونساء وصغار فوصلوا بهم إلى بولاق " " الرجال فى زناجير والنساء والصغار فى حبال وعلقوا رؤوس من قتل من الرجال فى أرقاب النساء " .

السلطان " أمر بتسميرهم على جمال فسمروهم وشقوا بهم القاهرة " .

" ثم أنهم كلبوهم وعلقوهم على أبواب المدينة ... ثم رسم بأن نساء العربان يدعوهم فى الحجرة حتى يكون من أمرهم ما يكون " .

التجريده التى ذهبت للشام بعد أن طال مكوثها هناك عرضت على آقبردى الدوادار الصلح فوافق " وكتب له تقليدا نيابة طرابلس ومالها من المتحصل كل سنة "

ثم أنه بعد ذلك توفى " على فراشه من غير أن يقتل " وخمدت فتنة آقبردى هكذا .

السلطان أحدث حركة تنقلات بين رجاله فعين جان بلاط فى الأتابكية بدلا من أزبك الذى توفى والأمراء الذين كانوا صحبه آقبردى وجد لكل منهم وظيفة أو إقطاعية وعين قصروه فى نيابة حلب و أبقى على طومان باى فى مكانه دوادارا كبيرا فزاد نفوذه .

الأتابكى جان بلاط تزوج خوند أصل باى أم الملك الناصر و أخت الملك الظاهر قانصوه " فنزل جهازها من القلعة وشق القاهرة .. فكان عدة الحمالين أربعمائة حمال والبغال نحو من مائتين بغل " .

قصروه نائب حلب " عصى وخرج عن الطاعة واستولى على قلعة الشام وعلى ما فيها من المال " " فلما تحقق السلطان من ذلك تنكد ... و أظهر أنه يخرج إلى الشام بنفسه وشرع فى أسباب ذلك " " أشارت الأمراء على السلطان أن يبعث إلى قصروه قاصدا وعلى يده مراسيم بأن يكون على نيابته بالشام ويسلم قلعة الشام إلى نائبها ولا يؤاخذه بما فعل فعين إليه آقباى الطويل فخرج عن قريب " " فعاد الجواب بأن قصروه مستمر على العصيان ولم يدخل تحت الطاعة " فجهز السلطان تجريده إلى قصروه بها ثلاثين أمير ونحو ألفى مملوك .

المنسر " هاجم سوق الوراقين وسوق الهرامزة وكسروا عدة حوانيت ونهبوا ما فيها ... وكان المنسر نحوا من مائة نفر ... فنهبوا قماشا بنحو عشرة آلاف دينار " .

الأمير طومان باى أيضا " أظهر العصيان ... وقد تقلب على الظاهر قانصوه غالب الأمراء والعسكر " فتحصن فى القلعة وخزن المؤن استعدادا لحصار طويل .

الأتابكى جان بلاط انضم للأمراء " ولبس العسكر لامة الحرب .. وتوجهوا إلى القلعة " فقامت معارك عديدة لمدة ثلاثة أيام بين المماليك حتى " انكسر الظاهر قنصوه وتشتت من كان عنده بالقلعة فلما رأى عين الغلب دخل الحريم وتزايا بزى النساء ونزل من القلعة وتوجه نحو الترب واختفى خبره "

فكانت مدة حكم الظاهر قانصوه سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما منذ أن تواطىء على قتل ابن أخته الملك الناصر محمد وحل محله .

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط يشبك الأشرفى

" وهو الرابع والأربعون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة و أولادهم فى العدد "

ولقد كان عبدا جركسيا ثم عتق وتدرج فى المناصب حتى حل مكان الأتابكى أزبك فى الأتابكية وتزوج من سرية السلطان قايتباى و أم ابنه الناصر محمد وأخت السلطان قانصوه خوند أصل ماى " واستمر على ذلك حتى وثب طومان باى الدوادار على الظاهر قانصوه وانكسر" ثم هرب فباتت القاهرة بدون سلطان لمدة يومين .. ثم فاضل الأمراء بين تانى بك الجمالى أمير السلاح وبينه لسلطنة أحدهما فانتصر طومان باى له على منافسه وتم سلطنته بعد عزل الظاهر قانصوه الذى نجح فى الهرب لمدة أربعة وعشرون يوما ثم قبض عليه " وقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه " وانتهى به الأمر فى سجن بالإسكندرية .

السلطان بعد أن استقر له الأمر أرسل إلى قصروه ليعود ويتولى الأتابكية ولكنه ظل على عصيانه ولم يستجب فعين السلطان تانى بك الجمالى فى الأتابكية بعد أن خلت بسلطنة جان بلاط .

طومان باى جمع فى يده بالإضافة إلى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية وكشوفية الكشاف أمره السلاح التى كان يشغلها تانى بك " فعظم أمره جدا وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام " جزاء تأييده للسلطان .

وعندما طالب العسكر بنفقة البيعة أخذ السلطان " فى أسباب جمع الأموال فأطلق فى الناس المصادرة وقبض على جماعة من العيان وقرر على القضاة ما لا له صورة .. وعمت هذه المصادرة طائفة اليهود والنصارى والتجار والطواشية .. حتى جمع هذا المال من الظلم والمصادرات ففرق على جماعة مخصوصة من العسكر " .

خوند أصل ماى زوجة السلطان انتقلت للسكنى بالقلعة فى موكب حافل " من الصليبة وهى فى محفة زركش وحولها الخدام من أعيان الطواشية وقدامها أعيان المباشرين وجماعة من الخاصكية نحو من خمسين إنسان وهم بالشاش والقماش وجماعة من المماليك نحو مائة إنسان .. وبأيديهم العصى يفسحون الناس فاستمرت فى هذا الموكب حتى صعدت إلى القلعة ومعها نحو مائتى امرأة على مكاريه " .. ونست اغتيال ابنها السلطان وسجن أخوها السلطان مستمتعة بنفوذ زوجها السلطان .. ياللمماليك

قصروه استكمالا لعصيانه استولى على غزة وأعمالها والقدس وغير ذلك وطومان باى وسع من نفوذه " وتصرف فى أموال المملكة كما يختار وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه لا يقضى أمرا دونه " .

السلطان بعد أن أعيته الحيلة لإرجاع قصروه عن عصيانه قرر تجهيز تجريده لمحاربته بقيادة طومان باى وبها حوالى ثلاثين أميرا و ألفى مملوك فتوجهوا للشام .. وهناك كانت المفاجأة فبدلا من تأديب قصروه أعلن طومان باى نفسه سلطانا بالشام وتسمى بالعادل " وأحضر قضاة الشام وكتب صورة محضر فى خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة وشهد فيه جماعة من الخاصكية بأشياء توجب الخلع فخلع من السلطنة وبايعوا طومان باى بالسلطنة من غير خليفة وتلقب بالملك

العادل أبو النصر .... " " وقبل له الأمراء الأرض فأول من قبل له الأرض قصروه نائب الشام ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا " .

طومان باى أعاد ترتيب الأوراق فورا وعين قصروه فى الأتابكية ووضع رجاله فى المناصب الهامة " فلما تم أمره فى السلطنة خطب باسمه على منابر دمشق ثم أخذ فى أسباب التوجه لمصر ".

الأشرف جان بلاط عندما سمع هذا " أخذ فى أسباب تقرير الوظائف للأمراء الذين بمصر عوضا عن من أظهر العصيان بدمشق فاستمال قلوبهم حتى يكونوا له عونا ويدخلوا تحت طاعته " .

وجعل المماليك يحلفون بالإيمان المغلظة على المصحف العثمانى بالولاء له ثم حصن القلعة " فركب حولها المكاحل المعمرة بالمدافع وأصلح سورها و أبراجها ... "

" ثم أن السلطان نقل إلى القلعة أشياء كثيرة من العليق والبقسماط والجبن وغير ذلك من الاحتياج ثم ملأ الصهاريج التى بالقلعة بما يكفى المحاصرة فوق الشهرين "

العادل طومان باى وصل إلى غزة " هو وقصروه و دولات وجماعة من النواب والتف عليهم الجم الغفير من عسكر الشام وعربان جبل نابلس والعشير وغير ذلك " .

ثم دخل بعد ذلك القاهرة " ورفع على رأسه صنجق خليفى " ومعه باقى الأمراء فلم يجد مقاومة بل قابله الشعب بالدعاء واستولى على القاهرة بسهولة وحاصر القلعة ثم دارت معركة بالمدافع " فقتل ممن كان بالقلعة جماعة كثيرة وجرح آخرون ففتر عزمهم عن القتال وبانت الكسرة على الأشرف جان بلاط " .

فى اليوم التالى " اشتد الحرب بين الفريقين وحصل بينهما واقعة مهولة بباب الوزير .... وجرح فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين .... " واستمر القتال ليومين تاليين " فلما تلاشى أمر الأشرف جان بلاط وترشح أمر العادل طومان باى لاحت عليه لوائح النصر فصار جماعة من الأمراء والعسكر يتسحبون من القلعة وينزلون عند العادل طومان باى " حتى " كانت الكسرة على الأشرف جان بلاط وقع النهب بالقلعة فى الحواصل السلطانية فنهبوا أشياء كثيرة من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك من أغنام وأبقار وبقسماط وسكر "

" فلما حصلت هذه النصرة من غير قتال مهول فعند ذلك ركب العادل طومان باى .... وصعد إلى باب السلسلة ومن غير مانع ملكه " بعد حصار دام السبعة أيام .

جان بلاط قبض عليه بعد ذلك وحبس بحجرة فى القلعة لمدة ثمانية عشر يوما ثم رحلوه إلى السجن بثغر الإسكندرية فكانت مدة سلطنته ستة أشهر وثمانية عشر يوما ثم مات هناك مخنوقا وهو فى القيد بأمر من طومان باى .

سلطنة العادل أبو طومان باى الأشرفى قايتباى

" وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك و أولادهم فى العدد وهو التاسع عشر من ملوك الجراكسة و أولادهم بالديار المصرية " كان عبدا جركسيا ثم أعتقه الأشرف قايتباى وتدرج فى المناصب حتى أصبح أمر سلاح وعده مناصب أخرى فى دولة الأشرف جان بلاط .

الأمير المنتصر جمع المجلس بصورة شرعية فخلع جان بلاط وبايع الخليفة طومان باى بالسلطنة ثم بدأ فى الانتقام من مؤيدى سلفه و أولهم القاضى الشافعى الذى أظهر موالاته وتأييده للسلطان المخلوع والمختفى الأتابكى تانى بك الجمالى الذى لم يظهر ويعلن تأييده للسلطان الجديد. ثم خوند أصل باى " فقرر عليها نحوا من خمسين ألف دينار وقيل عشرين ألف فباعت أشياء كثيرة من قماشها و أخذت فى أسباب وزن ما قرره عليها من المال "

أما الأتابكى قصروه الذى كان السبب فى ارتقاءه إلى السلطنة فقد كان جزاؤه أن قال له السلطان " والله قلبى خائف منك يا أمير كبير فلما صلى العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه فأقاموه من مجلس السلطان وتوجهوا به إلى مكان بجوار الدهيشة فأقام هناك أيام ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل "

وهكذا كان المماليك دائما " وكان قصروه سببا لنصرته بالشام ومصر وكان يشيل التراب على كتفه مع الفعلة عند حفر الخنادق وقت محاصرة القلعة عند حضور العادل من الشام وما أبقى ممكنا فى نصرة العادل على الأشرف وآخر الأمر قتله ظلما " رغم أنه " كان بين الملك العادل وقصروه إيمان عظيمة ومواثيق وعهود وما كان قصروه يظن أن العادل يخون تلك الإيمان "

خيانة السلطان لحليفه " نفرت عنه قلوب الرعية ولم يستحسن أحد منه قتله لقصروه "

فتبادل السلطان والمماليك الشك مما دعاه لإحداث تغييرات أساسية فى المناصب بحيث أقصى البعض وتفاهم وربما سجنهم وعين آخرين مكانهم و أغدق عليهم .. قانصوه الغورى أمير دوادار كبير كان واحدا من الذين أغدق عليهم .. ومع مطاردة المماليك " تزايد شر العادل وصار يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا ... وصار ولاة الشرطة يطوفون من بعد العشاء ومعهم المشاعل وعدة وافرة من المماليك السلطانية فيشوشون على الناس ويكبسون البيوت تحت الليل ويسبون حريمهم فحصل للناس الضرر الشامل "

" استمر الحال فى اضطراب فلبس العسكر آلة السلاح ووثبوا على العادل " " فلما اتسعت الفتنة ظهر جماعة من الأمراء المختفين " " فلما تحقق العادل بأن الركبة عليه نزل إلى باب السلسلة وعلق الصنجق السلطانى ونادى للعسكر الطائع يطلع القلعة فلم يطلع إليه أحد من الأمراء ولا من العسكر " إلا من كان موجودا أصلا فى القلعة ... فى ذلك اليوم حدث قتال بين الفريقين " فلما رأى ذلك من كان عند العادل من المماليك السلطانية تسحبوا أجمعين وتمت الكسرة على العادل فلما دخل الليل قام ونزل من القلعة و اختفى وكانت ليلة عيد الفطر " سبب هذه الفتنة أن " قد أشيع بين الناس أن السلطان قد عول على مسك جماعة من المماليك و الأمراء يوم العيد وهم فى الجامع فلما بلغهم ذلك وثبوا عليه " قبل أن يثب عليهم وكانت مدة العادل طومان باى فى السلطنة مائة يوم .
وكان سفاكا للدماء عسوفا ظالما وكانت مدة سلطنته كلها شرور وفتنا مع قصرها .

" آخر الأمر هرب واختفى واستمر مختفيا حتى قبض عليه وقطعت رأسه " .

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى الأشرفى .

" هو السادس والأربعون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية وهو العشرون من ملوك الجراكسة و أولادهم فى العدد " وقد كان عبدا مملوكا للأشرف قايتباى ثم أعتقه وتولى مناصب عديدة آخرها عندما عينه العادل طومان باى عوضا عن نفسه فى " الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية " " فاستمر على ذلك حتى وثب العسكر على العادل واختفى فى ليلة عيد الفطر" وبعد مداولات عديدة استقر رأى المماليك على سلطنته فتولى الملك وله من العمر " نحوا من ستين سنة ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده " .

المماليك الجلبان أثناء تلك الفوضى نهبوا و أحرقوا كثير من القصور والبيوت خاصة ممتلكات أنصار الملك العادل ولم ينقذ الموقف إلا أن عين الملك الجديد واليا على القاهرة شخصا يسمى طومان باى الجلب " فركب ونادى فى القاهرة بالأمان و الاطمئنان وأن المماليك تكف عن النهب فسكن الاضطراب " .

المماليك المشايعين للملك العادل اختفوا من القاهرة خوفا أما هؤلاء الذين كانوا قد اختفوا خوفا من العادل فلقد عاودوا الظهور بالإضافة إلى الشيخ جلال الدين الأسيوطى الذى كان من المختفين طول مدة سلطنة العادل والمتغيبين .

الملك الجديد كما هى العادة قام بإطلاق سراح العديد من مساجين العصور السابقة و أخلع عليهم كما " أخلع على جماعة من الأمراء خلع العيد ونزلوا من القلعة فى موكب حافل " . ثم أحدث بعض التعديلات فى الوظائف و أعاد ترتيبها بما هو فى صالحه . كما وافق للأتابكى تانى بك الجمالى الذى اختفى ثم ظهر بالإقامة فى مكة ومع ذلك لم يرضى المماليك فهددهم " أنه يتبرأ من السلطة وهم بأن يختفى بنفسه حتى يولوا من يختارونه من الأمراء " ... ثم عين فى الأتابكية الأتابكى قيت .

وهكذا سارت الأمور فى مصر لفترة تعدت العقدين انتهت بمعركة مرج دابق التى مات فيها السلطان الغورى وتولى بعده الملك الأشرف أبو النصر طومان باى ليصبح الملك السابع وأربعون من ملوك الترك والحادى والعشرون من الجراكسة .

الأشرف أبو النصر طومان باى لم يستمر كثيرا لقد لحق به سليم الأول ملك الترك عام 922هـ أى بعد حوالى ألف عام من ظهور الاسلام غزا مصر منهيا زمن طويل لحكم المماليك وبدء زمن الاستعمار التركى .

وهكذا ختاما للملخص السابق عرضه عن ابن اياس والذى تم من خلاله الاطلال على مرحلة طويلة من تاريخ حكام مصر منذ أن غزاها عمرو بن العاص وحتى سليم الأول .

فان القارىء .. اذا تجنب الصيغ المعلبة لفقهاء السلطة وتعامل مع الأحداث والأشخاص دون حسابات تفرضها النظرة التقديسية لكتب قديمة أوقفت نمو القدرة على التأمل المحايد لدى المصرى المعاصر - أقول فان القارىء سوف يكتشف دون عناء أنه أمام أكثر من أسلوب تعامل به المسلمون على مر العصور مع مفردات دينهم .. و أن الاسلام من خلال تفاعله مع الحضارات التى تم غزوها قد اكتسب قراءات متباينة وقد تكون متعارضة مع ما طبقه الرسول صلى الله عليه

وسلم وخليفته أبو بكر ... فمنذ تولى الخليفة عمر بن الخطاب وضع أمامه هدف تكوين امبراطورية واسعة تضم أقاليم العالم القديم خلفا لفارس وروما وتسيطر على منابع الخير فى العراق والشام ومصر .

نظم الحكم التى طبقت فى امبراطورية عمر بن الخطاب كانت على النمط الامبراطورى القديم نسخا لامبراطوريات الاسكندر ويوليوس قيصر وكسرى فارس .

الخليفة عمر وظف الروح القتالية لشعوب الجزيرة الموحدة التى أججها الاسلام فى نشر رايات العرب عبر امبراطورية واسعة تحول فيها أبناء الحضارات القديمة الى موالى والغزاة الى أشراف .

العربى فى امبراطورية عمر كان لديه القناعة بتميزه العنصرى العرقى عن أبناء الأقطار التى غزاها ـ بنفس درجة شعور أبناء أثينا أو أبناء روما فى زمن سابق وما تكرر بعد ذلك لدى المغول والتتار والترك وألمان هتلر وحتى أمريكان بوش المعاصرين تمنعه من الذوبان أو التزاوج مع الحضارات المهزومة ولقد قرأنا فى الصفحات السابقة أن الخليفة عمر عاقب جنود حاولوا الزراعة فى مصر و أن لفظ مصرى كان يطلق على ذلك القادم من الجزيرة العربية و استوطن مصر و أن هؤلاء المستوطنون العرب لم يتخلوا عن كونهم كيانات منفصلة تعيش على حدود المدن والقرى ترعى الماشية وتحترف الغارات على المزارع أو قوافل التجارة والحج و أن أبناء و أحفاد عمرو بن العاص كانوا دائما شوكة فى جنب أى حاكم بما فى ذلك المماليك والأتراك وظلوا حتى تاريخ معاصر فى حالة احساس بالتفرد تمنع اختلاطهم أو تزاوجهم بعناصر محلية أخرى .

مصر فى زمن الخليفة عمر كانت مصدر ثروة دائم ومستمر خصص لتمويل جيوش الفتح العربية واستمرت هذه التقاليد مع الدولة الأموية ثم العباسية تاريخ طويل من استنزاف الثروات وانفاقها على الرفاهية والأبهة التى صاحبت فترة حكم أباطرة بنى أمية وقد يكون حديث الملك النوبى لآخر ملوكهم الهارب من العباسيين دليل كافى على ما كان عليه الحال فى ذلك الزمن .

وحتى عندما استقل بعض الولاة بحكم مصر لم يتغير الوضع ولنقرأ حجم الأموال التى تركها ابن طولون بعد وفاته .. لقد غيب الانسان المصرى واتيحت كل التسهيلات والفرص للأجانب ليتسلطوا سواء جاءوا من الشرق أو الغرب أو الجنوب .. الاسلام عندما طبقه الخليفة أبو بكر امتداد لزمن الرسول صلى الله عليه وسلم .. اختلف عن ما قدمه عمر للشعوب المهزومة وهذا اختلف عن اسلام بنى أمية أو بنى عباس معاوية لم يطبق أسلوب عمر وكذلك كان المأمون بعد الغزو الثانى لمصر كما أن المماليك العبيد عندما حكموا قرأنا العجب من خيانات ومؤامرات و أساليب نهب وفى بعض الأحيان جنون .

ابن اياس قص علينا هذه المأساة وفصل فيها المجاعات و الأوبئة والغزوات والانتفاضات والتجاريد والصراعات و اضطهاد المصريون الأصليون منذ أن جمع عمرو بن العاص ثرواتهم و أودعها جراب من جلد ثور كامل حتى أجبرهم بعض السفهاء من المماليك على ارتداء أزياء خاصة ووضع شارات تمييز .

القراءة المعاصرة لابن اياس قد تساعد المصرى الحديث على فهم أسباب مشاكله ومعاناته اليومية اذا استطاع أن يتخلص من الكتب الصفراء التى كتبها فقهاء السلطة أيام المماليك ولا زالت تستخدم حتى الآن بواسطة جمهرة من التابعين .

محمد حسين يونس

نهاية شتاء 2007

أعمال أخرى للمؤلف

الروايات:

- خطوات على الأرض المحبوسة
- على شفا الموت على شفا الجنون
- أجمل الكلمات لم أهمس بها بعد

مجموعة قصص قصيرة :

- أحاديث عن الغولة
- طعام لنا بدلا من طعام الآلهة
- جدى الملك الإله
- البردية المجهولة

دراسات :

- ثقافة المصريين
- طلسمات مصرية
- قراءة حديثة فى كتاب قديم

ترجمة عن الانجليزية :

- آلهة المصريين
- ما بعد الحرب الباردة

فى ظهر الكتاب

" قراءة حديثة فى كتاب قديم "عرض لعدد من الكتب المختارة ترصد أسباب المأساة التى نعيشها على أرض هذه المنطقة منذ تحكم المماليك والأتراك بها مرورا بالنازية والفاشيستية العالمية وتأثيرها فى حكام المنطقة وحتى اليوم بانكساراته انه كتاب تنويرى قد يساعد البعض على قراءة الأصول .. وقد ينير جوانب مظلمة فى شخصية قارىء العربية